سليم خياطه

الحبشة المظلومة

او

فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره



مطبعة « روضة الفنون » – بيروت

١٩٣٦

سليم خياطه

الحبشة المظلومة

او

فاتحة آخر نزاع للاستعمار في دور انهياره



مطبعة « روضة الفنون » - بيروت

١٩٣٦

— الاخطاء —

سيلاحظ القارئ في هذا الكتاب اخطاء مطبعية لا تحصى ، وعبارات وجملا أصيبت بخلل أو تفكك او اختلاط بعضها ببعض .

يرجع شيء من هذا النقص المعيب ، ولا شك ، الى تسرعي في التأليف ، لاني كنت مسوقاً برغبة اظهار الكتاب في اقرب وقت مناسب من جهة السياسة والخطة والحصول على التأثير المطلوب . لكن معظم النقص ليس نتيجة التسرع ، بل هو عبارة عن خلل طباعي يعود الى افظع ما خبرت من قلة الاعتناء بالطبع وتصحيح مسودات الصف (البروفات) .

هذا ، ومن طبيعة الاسلوب الذي اتبعه ان تترك الغلطة الصغيرة فيه على الجملة تاثيرا وتشويها غريبين ، حتى ولو كانت تلك الغلطة « فيركولا » زائدا او نقطة ناقصة . ذلك ، لاني احاول ان اصوغ الجملة بشكل يتلاءم مع تفكير العصر وحدود حياته وصفاته ، وان احكم عليها بان لا تخرج بشيء عن نفس المعنى الذي اقصده ودقائقه ، عن منطوياته واقسامه وفروعه وانعكاساته ومعترضاته .

كان علي ، امام حالة كهذه ، ان اقف بنفسي على الطبع .

لكن ذلك لم يكن باليد ، اذ كنت اكتب هذه الصفحات في فلسطين — حيث اتخذت لي اقامة فيها عقب ابعادي من بلدان الانتداب الفرنسي — وارسلها من هناك في البريد قسما بعد قسم الى سوريا — حيث يسر لي طبعها . اما الان ، وقد سبق السيف العزل ، فلم يعد لي سوى ابداء الاسف والالتجاء الى حلم القارىء الكريم ، مع رجائي اليه بان يهتم بالجوهر هذه المرة ويؤجل حسابه معي على الشكل .

— المؤلف —

مقدمة واهداء

يا صديقي !

طلبت مني أن اسافر إلى بلاد الحبشة لأدرسها وأنور شعبي العربي المظلوم عن قضية اخوان لهم . طلبت مني ذلك يوم كانت الغزوة الفاشستية الاخيرة ضدها لاتزال في مرحلتها الاولى ، يوم كانت تلك البلاد غارقة بعد في حلك عميم من ظلام « القارة السوداء » الملفوفه بستور الفاتحين البيض ، اولئك البيض ، النبلاء المتوحشين ، الذين يعيشون من امتصاص الحياة في تلك القارة ، ومن نشر الجهالة فيها وحولها لكي لا يخترق حدودهم مظلوم الى مظلوم ، او يلتقي انسان حر باخ له يرسف في اغلاله .

ولكني ، ياصديقي ، اخبرتك مابي وما يعيقني عن اشهى ما تشتهي النفس مما طلبت مني . قلت لك اني مرتبط

في هذه الساعة الى بلاد العرب ، وبان ذهابي قد ينتج الضرر بدل الافادة ، التأخير بدل التقديم ، وعلى ذلك لا أخرج من مكاني ، بل ابق في نقطتي كما يبق الجندي الامين ، لا اتزحزح ولا اتحول حتى ازحزح مع كل جندي رفيق آخر واحول من يستعبدون البشر وهم يطيبون ايديهم ، ويتغزلون بأصنامهم وجرائمهم واوجاع عيدهم بادمغة يملؤها دخان مئة نوع ونوع من افيونهم .

ثم قلت لك باني ، وان لم يسعني الترحال الى بلاد اخواننا ، استطيع تبيين شيء عنها وعنا وعن عروقنا الجهادية الوثق وأنا مكاني . وهكذا فعلت . وجئتك وجئت شعبي بهذه الصفحات . انها اوراق سوّدت في ليالي ارق العالم في هذه السنة ، هبطت علي من وحي الاشتراكية ونهضة الشرق العظيمة ، من وحي ماركس ونضال الحبشة ضد الرأسمال الغربي ، من الفكر الصافي العادل الذي يذيب نفسه حبة حبة ، كما يقدم لنا زعيمنا دمه نقطة نقطة ، في سبيل تخليص الشرق والغرب من اسياد تتناوبهم افظع نوبات الجنون المجرم .

فأقرأها قبل ان تسافر انت الى تلك البلاد النائية القريبة ، سواء كانت في الجنوب او في الشمال ، فلعلها تفيدك

قليلا وان كنت انت نبعاً عذباً للافادة ، وان كنت سترجع الينا من هناك وفي جعبتك ما هو افضل منها بمراحل ، وافضح لمخازي المستعمرين ، واشد تنويراً لسبيل الاحباش وسبيلنا نحن العرب على السواء ، واظهر تدريساً للخفايا المحيطة بطريق تحررهم وتحررنا السديد .

° ° °

يقولون — ايها العربي العزيز المناضل مع عصبة الثائرين لتحرير شعبك مع شعوب الارض باجمعها ! — يقولون ان الحبشة آخر دولة مستقلة في افريقيا . ومعنى هذا ، انها ، ما عدا جمهوريات السوفيات وبعض حليفاتها ، تكون آخر دولة مستقلة في العالم الذي نعرفه وبمفهوم الاستقلال الذي ندركه ، اي الاستقلال عن ارادة الاستعمار ، وبالتالي الراسمال الذي يعني واياه شيئين متحدي الهوية . فلما سمعت ذلك — وكان قبل ان تجيئني بمدة وجيزة — تعجبت غاية العجب ، لأنني كنت اظن استقلالها وهماً من الأوهام ، شيئاً كاستقلال منشوريا او مصر مثلا .

ذهبت على اثر ما سمعت افتش . لم اترك مكتبة للبيع او للقراءة ، في هذه المدينة وجاراتها ، من دون ان انقب في

رفوفها لاجد ما يعلمني شيئاً عن هذه الجارة الشرقية المستقلة .
ثم غصت طوال الوقت بعد ذلك ، الى ان انهى هذا الكتاب ، في بحر من جرائد ومجلات اللغات التي احسنها ، التقط كل حرف يقع تحت نظري مما خطه المراسلون والمحرورون والملفقون والجواسيس — وبالمختصر مما خطه الطيبون القليلو الظهور الضعيفو الصوت ، وغير الطيبين الكثيري الظهور الكثيري الزمور والابواق — بخصوص البلاد التي تعدها الامبراطوريات المتلاشية لوليمة شائقة اخيرة من ولائمها .
فكانت النتيجة وقتئذ (وذلك قبل نيسان من هذا العام) لتفتيشي وحماسي ان وجدت ما كان يكتب عن مملكة النجاشي الاسمر النبيه ، عن القطر الكبير والشعب النبيل المتعرضين لان يغيضا في بطون النجاشيين البيض ، اصحاب القناطير المقنطرة من مال ومن عبيد ، قدراً قليلا جداً بالنسبة الى اهميتها ومعنى القتال المستمر من زمان عليها ، قدراً جداً محرف ومموه بالنسبة الى حقائقها وما كان يدور فيها وحولها .

من ذلك بدا لي كأن الاوروبيين والاميركيين المستعمرين ، الذين يؤلفون مئات والوفاً من الاسفار والمقالات والمحاضرات المنشورة بكثافة عن كل ما هب ودب ، نسوا قبل

هذا العام ان في بقعة من هذه المسكونة مملكة قديمة ، عريقة بمدنيتها الخاصة وتاريخها، رائعة بمآسي احوالها وحياة ساكنيها، غنية بكنوز لا تثمن من مواهب الطبيعة في ارضها . ثم بدا لي كأن سبب هذا الاغفال ، « مؤامرة السكوت » هذه ، يعود الى ان الحبشة كانت محاطة بمستعمرين وغير مستعمرة في آن واحد . وجدتها لاتزال منذ النصف الثاني من القرن الماضي حتى الساعة في حالة نزاع عنيف ، عميق ، متشعب ، مع دول الفتح الرأسمالي ومع نفسها . ومن المعلوم عند المطلعين على خبائث المستعمرين انهم يتبعون قاعدة « السكوت من ذهب » في مثل هذه الاحوال ، اذ انهم يشفقون من ان يعكر كثرة الكلام المفضوح والتعمق بالجدل المسموع حول شؤون فرائسهم صفو الولائم الفاسقة التي يقيمونها على حياة الملايين، على دم هذه الملايين واطفالها ونسائها واوطانها وعقولها ونفوسها وخبزها وتاريخها ومستقبلها . كانت عصابات من المستعمرين تعمل وتحاول وتعد العدة لنحر الحبشة وسلخ جلدها ، تنظيف أحشائها وفرز « قوادمها » ، لتهيئتها شواء طيباً في سبيل مائدة فرعونية فاخرة . كانت تفعل ذلك كما فعلت في بلاد العرب ، من قبل في الصين ، في مصر ، في صقع كل

امة شرقية عظيمة الماضي ، عريقة الثقافة ، ساذجة الشعب ، ولا تزال باقية في حاضرها على احوال وقواعد مجتمع ذلك الماضي . كانت تفعل ذلك وهي تتحذر من ان يشم بقية القطيع البشري المستعبد رائحة موت شقيقتهم المأخوذة الى الذبح ، من ان يروا دخان النار المعدودة لطبخها .

ولكن لما رأى القطيع ما تفعل العصابات علا الضجيج ولمع الرصاص !

لما رأى القطيع ذلك كانت الحقيقة قد أصبحت ، ياصديقي ، لاتختفي او تختبئ . كان الاحرار قد توالدوا وتكاثروا في العالم ، رغم كل حصاد وآخر لهم ، بصورة لم يعد يستطاع قطع الاسلاك بينهم مهما كان الامر . وفي هـــذا الوقت كانت البشرية قد تعلمت كثيراً من تاريخها الطويل والممل ، الشقي والبليد . ها انت واحد قد ترامت اليك الرائحة خلال الشقوق في جدر المستعمرين ، فشممتها . فتقيأت نفسك ، فجاش كل عقلك وجسمك ، فجئتني بمشروعك في سبيل انقاذ شقيقتنا الحبشة . ثم ها انا ايضاً شممت الرائحة ، فهاجتني وجئت اكتب املاء الحقيقة على اكثر ما استطيع تجريدها . وها الناس في كل مكان يشعرون بما اكتب اثناء وقبل ان اكتب.

وها امامنا وخلفنا وحولنا ، فوقنا وتحتنا وفي كل موطئ قدم انسان ، مئات والوف ملايين وعشرات ومئات ملايين من المظلومين ، من الثائرين ، من القطيع المتشرد الواعي والفاقد الوعي — ها كل هذا العديد ، عديد كالنجوم وكالرمال في كمياته ، يسيرون بكل ما غرست فيهم اجيال التعاسة من حب المظلوم وكره للظالم نحو الحبشة . والمتقدمون من هذا العديد يحملون اليها شعلات النور الجديد ، والمستعدون للموت مهما اسود يخاطرون بكل شيء ليعلموها والعالم بأسره كيف يلبس الضعيف جلده ويرمي من يتلمظون بلحمه في اعماق البحر الاحمر ... في كل اوقيانوس تضيع فيه اوساخ الحياة ، في كل فرن لاهب لا يرحم ولا يبقي على مكروب .

كل انسان شريف في العالم ، أميراً كان او صعلوكا ، كل عفيف ، ابي ، محب للانسان ، اي لنفسه بالنتيجة ، من أي جنس او دين او عقيدة كان — كل انسان من هذا العديد ينظر ، ياصديقي ، الى المملكة الافريقية كمسألة يتعلق بها مثله الأعلى .

اطمئنك باني ، وان كنت لم استطع الذهاب الى تلك البلاد ، وان كانت عصابات المستعمرين قد صقلت سكاكينها ، بان

الحبشة جعلت البشرية باجمعها تمسك بتلك العصابات في حالة الجرم المشهود ! اطمئن ، وقل للجميع بان يعملوا حسبما يأمر ضمير المحبة والخير عند كل منهم !

واذا اعترضك واحد في دربك وسألك : « كيف تتكلم ولسانكم أمير من لبنان ؟ » ، فرد عليه مفحماً بأن في لبنان عشرة آلاف امير من هذا الطراز ، بأنه اذا كان موسوليني يمثل شعبه وهو يبيدهم فان شكيب أرسلان يمثل العرب ايضاً وهو يبيعهم . وقل ، فوق ذلك ، لمعترضك : « ما كان عارضو انفسهم والمساهمون على اوطانهم في أسواق المزاد العلني الدولية ، ليستطيعون في يوم من الأيام ان يصبغوا الشعوب التي ينتسبون اليها بسواد وجوههم » — وكفى الله المؤمنين القتال .

...

جاء دورنا لكتابة التاريخ . راح الوقت الذي كان العالم يصدق فيه ما يكتبه أمثال اللورد كرومر عن « مصر الحديثة » ، والاخوان « تارو » عن همجية اهالي المستعمرات الفرنسية وعظمة المانية النازية ، وأسعد بك والمؤرخ شمبرلن عن الثورة الروسية ، وجرائد « الطان » و « التايمس » عن

الثورات المصرية والسورية والفلسطينية ، وثرثرات جميع الأبواق الفاشستية في العالم ، المنهالة بالضربات والاهانات على رأس الحبشة وهي في محنتها تتلوى بين أضراس مغتاليها .

لقد شبع الجميع من تلفيقات وتخرصات ليس مثلها تخليط الصابئ وهو يخترع الاماديح مرغماً عن امرائه المستبدين .

إن تاريخي الصغير هذا يختلف عن كثير مما قرأناه في لغتنا . ذلك لأنني لم اقصد منه مجرد سرد رواية مسلية فحسب (وان لم اغفل حاجة التسلية) او نظم كتاب نثر حزين (وان كانت دواعي الحزن فيه غير قليلة) عن ماضي أمة وفتوحها وعبودياتها ووصف لمختلف احوالها الفرعية . ولا رميت كذلك الى عرض هذا الحاضر ، الوارث لذلك الماضي كما يرث المرض الخل عما كان في أبيه ، عرضاً سطحياً ، او منفقاً ، او مظهراً لحقائق دون حقائق ، او ناظراً الى موضوعي كشيء جزئي ، غارقاً في الصغائر وناسياً الكبائر ، او معتبراً اياه حادثاً منعزلا ، مكاناً وزماناً قائمين بذاتهما ، لايتعلق ويتمركز فيهما كل الحاضر وكل الماضي وكل مكان آخر ، كما تتمركز هذه الامور في كل زمان ومكان آخر ، تؤلف النقطة وسط الكرة اينما كانت عليها . ان مايحيط بنا من الطبيعة والحياة لحيز

يشبه الكرة العظيمة ، يتعلق ويتمركز كل ما فيهما بكل ما فيهما . والبرهان تجده كيفما نظرت اليهما ، شرط ان يكون نظرك وفكرك ، ياصديقي ، سليمين ، فلا يريان الاشياء في شكل اعوجاجات وانتفاخات منشارية بعيدة عن تركيبها واشكالها ، كما هو حال بعض اهل البيمارستانات !

بل قصدت من الصفحات التالية الى ان ادرس وادرس . ان افهم ما بدا لي مضبوطاً ، صحيحاً كل الصحة العلمية ، فيما سماه المعلمان الكبيران ماركس وأنجلز « بقانون حركة المجتمع » ، ثم ان اعود الى تفهيم ما ادركته لاخواننا ، لا ان امعن في جمع ورسم صور « بيزنطية » ، جامدة ، مكلسة ، مخططة على اعتبار الثبوت في الطبيعة والحياة ، وعلى ارجاعهما الى غايات مضمرة في عقل ذات موهومة منعزلة ، بدل رؤيتهما رؤيا الحس في اسباب وتناقضات ملموسة التفاعل والتوليد . اما ذلك الاعتبار فانه يطلب تحريف الحقائق لانها تصطدم بمصالح الحاكمين والمالكين ، الذين يعيش القسم الكبير من الكتاب على استئجارهم ، او ينتج حياكة مشوشة من الخيالات الاعتباطية ، المعبرة عن ارادة تحقيق أطماع اعتدائية أثيمة في جو مظلم مبهم ، و يسبب صدور الجهالات ونشرها من قبل الافكار الساذجة

او المتلاعبة ، او تنبع منه سخافات افيونية الاوهام ، مريضة النفس والاحلام ـ وبالاختصار : يستند الى ذلك الاعتبار « الخيالي » كل ما يعمل عـلى بقاء المجتمع كما هو : تعاسات وجهالات وظالمين ومظلومين .

حاولت ان لا اكتب سطراً الا وتكون او تتكرر فيـه امثولة اوقاعدة شاملة جامعة ، مثل واسع الدلالة عميقه ، حقيقة ناتئة وغير ملموسة،حادثة هامة لم تجلب الانتباه ، وهلم جراً من هـذه الامور التي يعتمد فيها كاتب الشعب ، المخلص لخيره وفضيلته ، عـلى قواعد العلم من استناد الى الواقع ، وفحصه واستخراج الحقائق من مجموعات حوادث ثابتة قليلة الشذوذ ، والترجيح بين المعقول المنطقي وغير المعقول الخ . . .

واعيد واكرر المسألة لتنغرس غرساً مكيناً في العقول التي ربيت على الاعوجاج في مجتمع يسوده فوضى واعوجاج نظام المستفيدين منه ما يملكون من عبيد وحق العبيد .

لقد جاء دورنا لكتابة التاريخ ! فلنكتبه جيداً وسريعاً وكثيفاً . هذا ما حاولت ان أفعله . واذا كنت غير مجيد او مسرع او كثيف كفاية ـ فاعذرني لأني لا ازال في الدور الذي يكون كل جهد الانسان فيه اعداد نفسه وسواه لاستقبال

شمس الصباح الجديد ، في وقتنا هـــذا الذي تتلاطم حوادثه وساعاته باستعجال لا يمهل الواحد منا فينة يعيد فيهـــا نظراً قليلا على ما كتبه .

هذا ، واذا خطر لك ان تجد لي عيباً في إكثار التهكم وسط مأساة الرأسمالية المروعة ، فاعلم انني فرح رغم عميم الشقاء . فرح ، لأنني اراها نسير الى الامام بأسرع مما تتصور ونشعر ، بل لأنني اتبين « الأمام » ، وهو يكاد يأتينا من نفسه من شدة ما نبدو له كسالى ! وعندما يشعر الانسان ، ويوقن بالحساب الجـــامد ، بان مسببي عميم الشقاء ينحرون بعضهم بعضاً ، كيف لا يجد موضوعاً لدعابته ، ويصب جامات تهكمه عـــلى رأس المجرمين المجانين الذين يحكمون عالمنا ، كما يقول غوركي ، والذين ينتحرون على الاسلوب « اهارا كيري » ، كما يقولون رفيقك الياباني !؟

°°°

اقرأ هذه الصفحات ، ايها الصديق ، وأنت على الطريق . واعذرني ، لما بنيت لك من الاسباب ، على الاخطاء والهفوات الصغيرة التي أقع فيها . ولا تنس الذي طبع الكتـــاب عندما تزعجك الاغلاط المطبعية ، هذه اللعنة التي تمتاز بها طباعتنا ،

خصوصاً عندما لايكون صاحب الكتاب واقفاً عليه .

أهد أبناء الحبشة في الجنوب والاخوان في الشمال سلامي وصفحاتي ! قل لهم ان قلبي وقلوب الملايين ترافقهم وتحارب معهم ضد" العدو البربري المشترك . بلغهم الخبر اليقين من انا جميعاً نواصل العمل في هـذه الجبهة المتحدة التي ستنتهي، آجلا غـير بعيد ان لم يكن عاجلا ، الى انهيار الراسماليات الآ كلة من بعضها ، الى التئام أول مؤتمر عالمي يضم مندوبي مجالس الشعوب المتحررة الى تحقيق أعظم حلم لأول مؤرخ متمدن ، يوم رأى عصر الاشتراكية محتوم المجيء رؤيـة نبوية من خلال مخاض القرن التاسع عشر ودخان آلامه وسواد احتراقه بين دواليب الصناعة الراسمالية ، يوم صاح : « يا عمال العالم اتحدوا » !

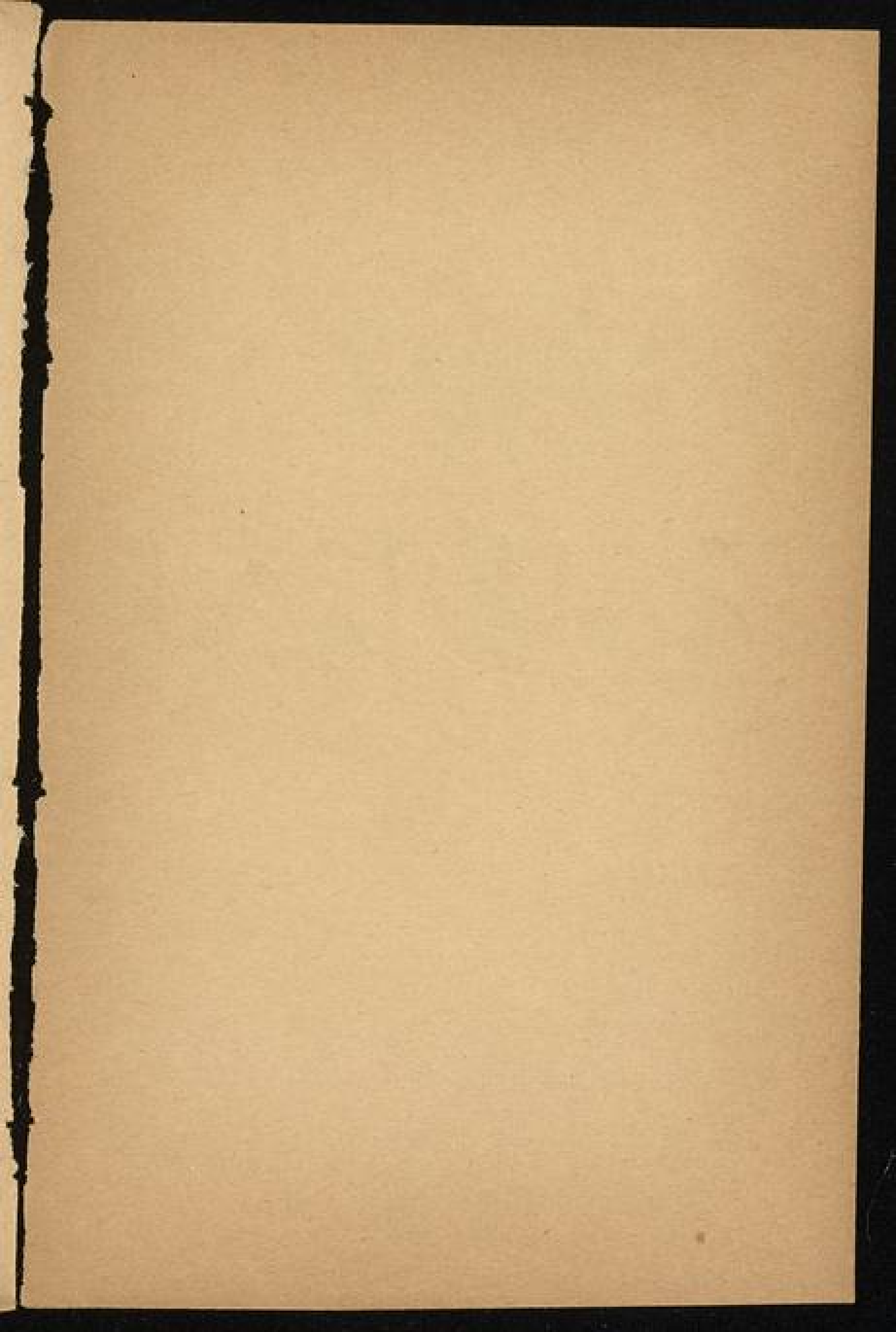
ياعمال الخير والفضيلة الانسانية في كل مكان ، اتحدوا ! ضموا الصفوف وهبوا الى الامام نمنع الاشرار من استعمال اسلحتهم الجهنمية ! بل نستعملها نحن ضدهم ، ونجعلهم يقضون على بعضهم البعض ، بدل اعطائهم الفرصة لتحقيق مشاريعهم التي تنظم انقراض البشرية وافضل ماتوارثته من مدنياتها وثقافاتها .

لافض فوه لاباء وامهات أولادهم أعزاء عـلى قلوبهم، فيقولون : اللهم أهلك الكافرين بالكافرين !

١٢ / ديسمبر / ١٩٣٥

سليم خياطه

الحبشة المظلومة



دروس التاريخ
او
فصل كتمهيد

عندما راجعت تاريخ بلاد الحبشه وجدته شبيها في خطوطه المجملة بتاريخ كل امة . واهم نواحي التشابه بين تاريخ الامم هو كثرة النكبات التي تصيبها ، سواء كانت من الخارج او من الداخل ، من اهوال الطبيعة او من نظام المجتمع . في الحق ، ان تاريخ الانسان حتى هذه الساعة هو في الدرجة الاولى سلسلة طويلة من المصائب والشقاء . والكراس القيم الذي وضعه الاستاذ امين الريحاني عن سوريا باسم « النكبات » يمكن ان يوضع مثله على المجموع البشري .

غير ان هناك فارقا واحداً هاماً بين تاريخ البشرية السابق لهذا العصر وبينه اليوم . لقد كان الانسان

دائماً يطمح الى اصلاح حاله والتخلص من تعسه واضطرابه، لكن تحقيق طموحه كان فيما مضى يكاد يستحيل عليه، فيلجأ الى اليأس، ومن ثم الى المخدرات الدينية، فتزيد بذلك نكباته. اما اليوم، فهو يجد أن مطامحه يمكنها التحقيق، بل انها تتحقق. لذلك فهو، على الاجمال، مرح رغم مزيد شقائه، متفائل رغم تشاؤم اسياد نظام يموت. يتحرك ليل نهار بسرعة تحرك اشكال الحياة المكروسكوبية، ويتجه - وهو غارق بين تضارب تموجاته وتشوش نضالاته الظاهر - في مجار متضاربة، متدفقة، قوية، تأخذه نحو مراتع مستقبله الذي سيخلو من اغلب ما عرف من الوان مصائبه.
كل سليم النظر يلاحظ هذا الفارق الاساسي بين تاريخ الامم ومجتمعاتها القديمة وبينها الان، كل نزيه يرى ويرغب حدوث هذا التغير في المجرى الانساني العام، سواء كان يحدث ببطء مع عمق او ينفجر مع اجتياح، سواء كان يقع آناً بتحول او آناً بثورة. انه يحدث في كل مكان — حتى في بلاد الحبشة التي نظنها منقطعة عن المعمورة. وانه اخذ يحدث منذ ما اكتشف الانسان واستحصل على الالات والوسائل والاستعدادات والممكنات الشتى

التى تيسره له ، منذ ابتدأ ان يلتجيء الى العلم وتنظيم نضاله للتخلص من مصائبه بدل ان يلتجيء الى الدين ويستسلم للفوضى. هذا ، وعندما اقول « الانسان » اقصد منه القسم والنواحي التي تمثل فيه ارادة تغيير حالته للخير العام ، لا القسم والنواحي التي تريد ديمومـة الحالة الحاضرة لمصلحتها الخاصة . فالشطر الاول هو المجموع البشري الساحق ، المتألم، المستعبد، الذي تصيبه النكبات في الدرجة الاولى، تتقدمه جمهرة من الابطال والشهداء ، من المفكرين والعلماء والزعماء الشعبيين الثوريين ، فيشدون ازره ، ويمهدون له وعورة السبيل ، ويكتشفون له القواعد والاساليب التي تحقق له تحرره وتمكنه مـن سعادته . اما الشطر الثاني ، فيمثله كل من يستفيد ويعمل على ادامة استفادته من بقاء المجموعة الانسانية الساحقة على حالها السابق والراهن من نكبة وجهل . وهذا الشطر عصابة ضئيلة العدد من المسيطرين .

على هذا سارت البشرية وتسير ، وعـلى هذا الاساس ندرس الحبشة . والان هيا بنا اليها لنرى كيف يتحول تاريخها من نكبات الى امل ، ومن هـذا الى تحقيقه . فان هـذه البلاد الاستوائية ، النائية ،

المجهولة ، الغريبة ، تستحق اهتماماً كبيراً منا نحن العرب الذين نطلب ان نتحرر ونرتقي ونسعد مع غيرنا ، وان يتحرر غيرنا ويرتقي ويسعد معنا . لم تعد تلك البلاد مجرد اصقاع ضائعة بين الغابات والصحاري والنجود المجهولة ، منقطعة عن العالم انقطاعاً يجعله لا يؤثر فيها ولا تؤثر فيه . كلا ! بل اصبحت منه وفيه ، يعتمد مصيرها على بقية الدنيا وشيء كثير من مصير بقية الدنيا عليها . بل العرب والاحباش انفسهم قد غدوا الان من بعضهما على قرب وترابط قضية ومستقبل كالقرب والترابط بين اي بلدوبلد مصابين او مستهدفين لحملات الاستعمار . بين سوريا ولبنان مثلا ، او بين مصر وطرابلس برقه ، او بين الهند والصين ، او بين الجمهوريات السوفياتية وبقية العالم المظلوم جميعاً . فكل بلد على الاطلاق اصبحت اليوم مقدماً مقاطعة في الاتحاد العظيم الاتي لجمهوريات العالم . . . هذا ، ان لم يستطع الرأسماليون ان يقرضوا الحياة من على وجه الارض بحروبهم ومؤامراتهم .

* * *

دخلت بلاد الحبشة (وهي القطر الذي يعرفه الغربيون اليوم باسمي « إثيوبيا » و « آبيسينيا ») في حقبة التاريخ

التمديني المترقي عن حالات البداوة الاولى منذ ما هجر اليها عدد من القبائل العربية ، اهمها قبيلة عظيمة من اليمن اسمها « الحبش » او « الحبشة » . وقد وقعت هذه الهجرة قبل الميلاد ببضعة قرون . واما مايعرف من حقائق احوال وتاريخ هذا القطر فيما سبق هجرة الاحباش اليه ، فقدر ضئيل جداً نتوصل اليه بالتخمين . بل ان اكثر ما نعرفه حتى بعد حصولها ، بل حتى القرن الثالث او الرابع عشر بعد المسيح ، ليس الا نتفاً ولمحات من بوارق الحقيقة الغارقةفي بحور من أكفان الخرافة او عادات القبائل الباقية او الاثار الصامتة الناطقة . غيرانانستطيع تقدير مجمل تلك الاحوال وتصورها من كون أغلب اهلها كانوا على مثل جميع البشر في اطوار بداوتهم . كانوا قبائل يمتازون عن قبائل آسيا واوروبا السابقين بالاجسام الخفيفة المفتولة ، والشعر الجعدي اوالسبط الفاحم ، والبشرة القاتمة تتراوح بين السمرة الداكنةوالسواد . كانوا يحيون في وضعية متأخرة . يسكنون كهوفاًومضارب تدل على غاية من الفقر والاتضاع والجهل . يعبدون الانهار والطيور والجبال والاشجار ومختلف الحيوانات والثعابين والحجارة

والاجرام السماوية ، اولا يعبدون شيئاً على الاطلاق . كانوا يعيشون بالقنص اولا ، ثم بوسيلة جديدة الى جنب القنص هي تربية المواشي وزراعة الارض بالصورة الابتدائية واما الغزو فكان ديدنهم على كل الاحوال . وكثيرون من اهل تلك البلادلا يزالون على هذهالاوضاع وما يرافقها من عادات وعقلية وظروف حتى اليوم.

لما جاء العرب الاحباش الى بلاد تلك القبائل جلبوا معهم لقاح مدنية يمنية راقية في عصرها ، ذات فنون وخبرةوتقاليد وعادات وآلات ومعارف جديدةمفيدة. ومنذ وقت هجرتهم تلك ، بل حتى من قبل ذلك ، الى هذا اليوم والاتصال وتنقل السكان بين جزيرة العرب وبين اقاليم افريقيا الشرقية والشمالية ، المعروفة الان بالحبشة والصومال والسودان والاريتريا وسواها ، قائم على قدم وساق في مجرى تاريخ الاقليمين . وكما كان التقارب العرقي وثيقاً بين العرب وسكان الحبشة ، كذلك كادت العادات والتقاليد والعقلية والثقافة والعبادات تكون موحدة بينهما في اهم نواحيها . بل ان اللغة نفسها جمعت . فلسان الحبشةالقديم كان لغة عربية الاصل اسمهــا « الجيئيزية » . واغلب لغات الحبشة اليوم هي

تطورات مختلفة للهجات مختلفة من اللغة العربية . غيران اللغة الامهرية وهي بنت الجيئزية البكر واقرب اللهجات الحالية الى العربية بالفاظها ونحوها وصرفها واساليبها ، هي اليوم السائدة بين شعب الحبشة، يعتبرونها لغتهم الرسمية في البلاط ودوائر الدولة ، بل وفي الكنيسة . وهكذا نجد ان لنا باهل الحبشة قرابة من كل وجه (فوق القرابة الانسانية ووحدة المصيبة والاعداء) ، حتى ان اسم بلادهم اسم عربي .

ومع هذا ، نجد ان بلاد الحبشة بالحدود التي نعرفها اليوم كانت مجهولة في الماضي البعيد . كانت في الماضي في انقطاع شبه مستمر عن بقيه الشعوب ، فلا تخرج من سديم ابهامه الا كل دهر وآخر . تلمس أثناءه الدنيا او تلمسها الدنيا . فتسري فيها عند ذاك رعشة تيقظ لفينة قصيرة ، ثم تعود تغط في نوم الاجيال المنسية . والسبب الاهم لهذا يعود الى وقوع معظمها في صقع نجدي عال ، بعيد ، موحش ، يمنعها على الفاتحين والتجار والزائرين والمبشرين ويمنع عليها المعرفة والاتصال ببقية بلدان العالم القديم المحيطة بها . وكان ذلك طبيعياً في عصر لم تكن المواصلات فيه ودوافع التغلغل الاستيطاني او الاستكشافي او الاستعماري

قد صارت الى ماهي عليه اليوم.

ولكن رغم هذا الانقطاع، ورغم ما سنجده فيما يلي من قلة معرفة العالم بالحبشة قديماً وحديثاً، فان بابها كان مطروقاً منذ اقدم الازمنة، وشطوطها وحواشيها مفتوحة امام روادها. وكان اولئك الرواد في الاغلب من صنفي التجار والفاتحين. كانو دائماً يستهدفونها وما حولها من المناطق طمعاً بما فيها من غنى ومحاصيل. نستشف خلال غيوم تاريخها المطموس مدناً تجارية ناميه، منتشرة هنا وهناك منذ زمن مجهول على الساحل الغربي للبحر الاحمر. كان يعمر هذه المدن، عدا الاحباش، طوائف من التجار الاجانب واليهود.

تخرج تلك المرافئ الى الضوء في عهد بطليموس الثاني، عاهل مصر الاغريقي، (٢٨٥ — ٢٤٥ ق. م). فقد ارسل اليها هذ الرجل بعثات الاستطلاع، وسمد تربتها بالتجارة والاستغلال، وطغت قوافل مصر في وقته حتى اقصى مدن البلاد الساحلية وبعض الداخلية منها. وقبل بطليموس الثاني لا يشك المؤرخون بان مصر، على عهد الفراعنة، كانت قوافلها تجتاز بلاد النوبة اليها لتحمل منها انواع منتوجاتها

وموادها الخام والعبيد ، كما ان اهل اليمن من عرب الجزيرة كانوا دائماً ينظرون اليها كنبع ثروات . وبعد بطليموس الثاني جاء الثالث ، الذي اتبع خطة سلفه بالفتح التجاري في الحبشة وذهب بنفسه يرتاد سواحلها ، حيث جدد او اسس بناء مدينة « آدويس » التي بقيت الى اليوم في شكل بلدة حقيرة اسمها « زوللا » . ومنذ ذلك الوقت حتّى اليوم والحبشة مطمح لانظار التجار والفاتحين . والتجار والفاتحون لاينون عن محاولة إختراقها ، عن مبادلتها البضائع ، وعن نهبها . ولهذه الناحية سيرة طويلة لاتزال تتطور ، كما سنرى . حتى تأخذ شكلها الاستعماري الحديث . فان التجار والماليين والفاتحين المستعمرين اليوم يرون في الحبشة منجم كنوز لاينضب ، ولقد مر عليهم حتى الساعة ثلاثة او اربعة قرون وهم يستعملون كل الطرق ، ويرسلون بالبعثة اثر البعثة والحملة اثر الحملة الى الحبشة لمحاولة الاستيلاء عليها واخضاعها بكل ما فيها من موارد ومن احياء ، الذين يعدون موارد ايضاً

ooo

كان المؤرخون والادباء اليونان والرومان يطلقون — بسبب غلبة جهلهم لما وراء اطراف سوريا ومصر — لفظة

« ايثيوبيا » على جميع الارض الممتدة من الهند الى حدود ليبيا الغربية . كانت الهند ومصر نفساهما تعتبران من ايثيوبيا هذه ، وكانوا يسمون جميع الشعوب السوداء او ذوي الجلود السمراء « ايثيوبيين » . وعلى مثل جهل اليونان والرومان لبلاد الحبشة نجد جهل بقية اهل الامم والمدنيات السابقة لهم . فاننا لانقع على ذكر واضح لها في المنقوشات الهيروغليفية المصرية اوسواها ، او المسمارية الاشورية او سواها . كذلك التوراة لاتذكرها ، بل تذكر « كوش » اي بلاد النوبة التي ترجمها ناقلوا التوراة الى اليونانية بلفظة « ايثيوبيا » المشار اليها .

الا ان هذا الجهل ليس بغريب ، اذ ان الحبشة تكاد تكون غير معروفة من الجمهرة البشرية الى الساعة هذه . ليس من يعلم الحقائق الراسخة عن تاريخها ودخائلها غير نفر قليل من المستشرقين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والالمان وسواهم القائمين بوظائف الاستكشاف فيها لحساب الدول المستعمرة ، والذين يطلقون ظلماً على انفسهم لقب المؤرخين ، اعتداداً بما يحتكرونه من المعلومات الهامة وبما يمتازون به من مقدرة على ترصيع كتبهم الضخمة بالاكاذيب والحقائق المحرفة

او المغماة او المشوهة . انهم لكذلك لتأثرهم بعقلية خـــدام الفاتحين .

ولكن جهل عامة الناس خارج حدود الحبشة قد لا يبدو لنا ايضاً كثير الغرابة عند ما نعلم بان اهل الحبشة انفسهم لا يزالون يجهلون الكثير من امر بلادهم : ماضيها وحاضرها . فان مـــا يعتقدونه عن تاريخهم شبيه بما يحفظ بعض شيوخ الرجعية من الادباء والمؤرخين عندنا عن تاريخ الجاهلية الاولى انهم ، مثلا ، يرجعون انساب ملوكهم الى سليمان الحكيم ونوح وآدم ، كما كان العرب يرجعون ملوكهم الى سلالات متصلة بامثال هذه الشخصيات الخرافية ، وما يروونه عنهم وعن اسمائهم وغرائب حياتهم وحكمهم وفتوحاتهم وقوة ايمانهم يجعل روايات نسابنا واخباريينا القدماء شبيهة احياناً بالحقائق بالنسبة لمحفوظاتهم . واما بخصوص معرفة الاحباش لحاضرهم الراهن ، فهم احسن فهماً له مما كانوا عليه مـن فهم وادراك لامور حاضرهم منذ بضعة قرون . فـان أحد « المؤرخين » الانكليز للحبشة ، هو السير إ. أ واليس بودج (١) ، يذكر

---

(١) لقد اعتمدنا في الشيء الكثير من المعلومات عن تاريخ الحبشة وسيرة المستعمرين فيها على هذا المستشرق وامثال له . ذلك لانه لا يوجد الى الآن كتب مكرسة للحقيقة والعلم والتقدم البشري مما درس فيها اصحابها هذه البلاد

في كتابه « تاريخ ايثيوبيا » بان جميع الدول التي كانت حول الحبشة في عهد من عهودها الماضية كانت تنتظر الى فتحها كل ساعة ، بينما ان الوحيدين الذين لم يخطر ذلك ببالهم كانوا الاحباش . اما اليوم ، فان جميع الاحباش يعلمون تمام العلم بان الدول الاستعمارية المحيطة بهم تنوي استعبادهم .

بيد ان نقص المعرفة لاحوالهم الحاضرة تتجلى لنا في انهم لايزالون غير مدركين مئة بالمئة بان السلاح الوحيد الذي يخلصهم من نوايا الشر عند اعدائهم هو العلم والثقافة الصحيحة والارتقاء التكنيكي الالي ، شريطة ان يكون هذا الارتقاء وطنياً شعبياً لمصلحة الاكثرية الكبرى من الاهالي ، لا ان تكون وسائله بيد الاجانب او بيد افراد منهم يخدمون الاجانب ويشتركون معهم على استعباد شعبهم . لا نزال معرفتهم ينقصها الادراك التام بان الطيارة لا تقاومها الا الطيارة ، لاعصبة الامم ، وبان شعباً بدوياً يعيش في حالة الاقطاع وغير متعلم مهما يكن باسلا كريماً ، قد يقع في اية دقيقة فريسة سهلة لظالمين خبثاء واسياد دمويين، وبان على الارض اليوم جمهوراً كبيراً جداً من المخلصين، ينتسبون الى جميع البلدان، ويعتبرون انفسهم اخوان كل امة ضعيفة مغلوبة على امرها ، و يعملون

باقصى جهودهم وبكل انواع التضحية لتحريرها مـــن ربقة المستعمرين الاجانب . اجل ، الاحباش يجهلون بان هؤلاء الانسانيين المخلصين قد ساعدوا قبل اليوم على تحرير بلاد غيرهم كتركيا والعجم مثلا ، وبانهم يشتركون اليوم مع اربعمئة وخمسين مليوناً صينياً شرقياً لتحريرهم من قبضـــة عصابة الرأسماليين الانكليز والفرنسيين والطليان والالمان والاميركين واليابانيين .

***

نرجع الى تاريخ البلاد فنجد بانه لا يوجد لها تاريخ « علمي » معروف بمعنى الكلمة قبل النصف الثاني من القرن الثالث عشر . اتدري لماذا ؟ لأن علماء الحبشيات يؤكدون انا بانه لم يبق في البلاد الى هذا الوقت من الآثار او الكتب ما يدل عليها ويطبعها بهوية واضحة وببقاء الذكر الاكيد . فان الحروب والانتفاضات والفتوح ــ وهذه الاخيرة كانت كثيرة في حواشيها رغم ما اشرنا اليه من انقطاع الحبشة عن العالم ــ كانت تجتاح البلاد طولا و عرضاً في حركة تدميرية دائمة . لقد كانت القبائل والمدن الصغيرة المستقلة وطبقات الاهالي المختلفة والمقاطعات والامراء والملوك ورجال الدين وفرق

المذاهب والشعوب المجاورة تتفاعل مع بعضها البعض تفاعل تنازع وتقاتل لا يهدأ . كانت شعلة الدمار لاتنقطع عن احراقها منذ اقدم عصورها ، ولا تلتهم الناس فقط بل تميت مواهبهم وميراثهم الثقافي والادلة على وجودهم ومركزهم الانساني تحت الشمس . ولما وافى القرن الثالث عشر وجد الحبشة وهي لايكاد يعمر فيها . لكثرة ما نهكت نفسها ، شيء يروي عنها شيئا .

لقد اقتلع منها إعصار التنابذ والتعدي المتقابل المستمر جل مبانيها الثابتة ، ولم يترك الا قليل مطموسات ودوارس ترقع ثلمات التخمين للحقيقة المنطوية في اثواب تاريخ خرافي مهلهل . وجل المخطوطات والكتابات الشرحية والدينية والسيرية والخاصة باعمال الملوك وعائلاتهم وغيرها ، من التي كانت محفوظة في عاصمتها الشمالية القديمة « اكسوم » اوفي مرفأها البحري « آدويس » او اديرتها القديمة في الجنوب وامكنة اخرى ، احرقها وأتلفها فوضى التنازع الاعمى عوواصف النزوات غير المربوطة ، بمامعها الاديرة والعاصمة والمرفأوجملة الامكنة الاخرى . دمرت الكوارث المتعاقبة قرى البلاد ومزارعها ، وساعدت على استبقاء التعس والجهل والروح

البربرية ، وسهلت للملوك والرؤساء والكهنة ، الذين كانوا العوامل الاولى في إذكائها، متابعة سبيلهم في ادامتها والاستفادة منها في فترات اعمارهم القصيرة ـ لتعود فتلتهمهم بدورهم وتقضي عليهم‌هم انفسهم قضاء فظيعاً ابدياً في نهاية المأساة . واما تجارة البلاد وصناعتها وآدابها وثقافتها ، التي كانت تتحرك للحياة والانبعاث كلما سكنت نيران الاقتتال والفتح والتذابح فينة لتأخذ نفساً قبل ان تعود فتلتهب وان ترجع تجرف تراب الحياة امامها اشد من ذي قبل ـ واما هذه الاشياء فقد تهزل حتى تصبح كعليل في حالة نزع وخور موتي ، بل تسكن على حواشي حياة ابتدائية وتتغذى بما تمتاز به تلك الحالة من تأخر وفقر وكثافة ذهن . هوذا ، ايها القارئ العزيز ، فصل مريع آخر يضاف الى سيرة النكبات في العالم .

ولكن من خلال ثنايا الدخان المتصاعد حول هذا التخريب والافناء المتواصل ، نلمح هنا وهناك بصيصاً لقبس ضعيف مرتجف ينور رسوماً مخطوطة من حياة الحبشة . ان مثل هذه الاشعات الخجولة لتعلمنا بانه رغم كل ما اعترى الحبشة (على مثل ما اعترى جميع الامم) من تشويش الابادة ، ورغم انقطاعها الطبيعي عن العالم ووجودها في اواسط افريقيا ،

ورغم كل عقبة او نقص آخر ، قد استطاعت ان تشكل لنفسها كياناً قوياً وغنياً من المدنية والترقي والبناء والانتاج في فترات الاستراحة المسترقة من تاريخها المضطرب . وفي هذا نتلقى درساً بليغاً عن مقدرة الانسان ، عن اتجاهه الحقيقي والمرغوب منه لنفسه ومن الطبيعة له ، عن قوة الارادة فيه وقوة البقاء ، عن ذكائه وثباته واستعداداته ومقدرته الرائعة على التكيف ، عما يمكنه ان يحققه اينما كان وكيفما كان ومهما كان لونه ولغته وجنسه ، ومهما تعلقت به نواجز التقهقر والارتجاعية لترده عن سبيل تقدمه ومجده الحقيقي ، عن مستقبله السعيد العظيم .

وأحرى بالانسانية ان يكون لها مثل هذا الأمل . اذ لولاه هل كان لنا الا ان نسبق الموت باراحة انفسنا ؟ تأمل ! خذ لك هذه الصورة السريعة من تاريخ الحبشة النكي ، الذي هو في الحقيقة رمز لتاريخ العالم باجمعه :

حروب تستمر بين الملوك « والرؤوس » والاباء ، بين المدن والمقاطعات والقرى والقبائل . عائلات تقتتل على السلطة والثراء ، تتسلح باثارة الهستيريا الدينية وهي تمحق الشعب وتمحق بعضها بعضاً . الوالدون من الامراء يقتلون ابناءهم او

ينفونهم الى قمم الجبال . اخوة يدسون السم في طعام الاخوة ليرثوا المملكة من دون مزاحم ، فاي سم اذن هو الذي يلقمونه للملايين من عبيدهم الذين ليسوا اخوتهم ؟ الملكة والنبيلة تكيد للملك والنبيل والعكس بالعكس . والكاهن والشيخ والحاخام يدخلون بين الجميع مزيدين في فساد احوال الجميع ، مغذين النـــاس بحشيش اوهام كثيراً ما يندفعون بمفعوله اندفاع اصحاب الحسن بن الصباح الى جنانهم عـــن طريق الاغتيال والتخريب والانصراف عن كل معقول . من تاثيرهم انه بينما الفاتحون يخترقون البلاد ويبيدونها ينصرف الاهلون الى التقاتل فيما بينهم على اي يوم ينبغي ان يعيدوا فيه عيد الفصح !

اسياد يغطسون في الموبقات وحرق المدن والقرى باهاليها وفي بناء الاديرة والكنائس والجوامع . ملك ينكح خليلة ابيه واخته معاً ، وخلفاء له لا تخرم حياتهم ثانية مـــن الاستراحة عن نحرهم لاعدائهم وحرق بلدانهم ونحر اعدائهم لهم . معارك هي من الكثرة لدرجة ان امكنتها ، مـن ضياع ومدن وساحات امحت عن صفحة الخريطة ولم نعد نجد مواقع ظاهرة على وجه الارض . الملك « آمدسيون » يشبهه مؤرخو

ايامنا باسلاف سبقوه بثلاثة آلاف سنة ويزيد — بملوك النوبة وبرعمسيس الثاني وارباب بابل وآشور . اساليب هؤلاء في الفتك لاتزال اساليبه واسلافه وخلفاءه . خمسمئة من رعايا الملك يلتجئون الى كنيسة هرباً من غضبه وظناً بانه يخاف الله ، ولكنه يحرقها وهم معاً قائلا انهم دنسوها نبلاء وعاهلون من شتى الدرجات والطراز يذهبون الى العيد فيتلهون باصطياد الحيوانات واهل القبائل على السواء و « بابا » الكنيسة الحبشية الصغير « ابا سلامة » مثل طيب على بقية البابوات ، اذ انه يغتصب نساء جيرانه كداود ، ويفضل عليهن الغلمان ، ويسره دمهم اكثر من جسمهم ، ومن لا يطاوع شهواته يكفره ويحرمه من رحمة الله او يقتله رأساً . مثل النازي والفاشست وعسكريي اليابان ومستعمري الهند اليوم ، كان الاقوياء يخفون اعداءهم ، فيصمت الناس ولا يجسر احد ان يتساءل اين راح « فلان » ، لانهم يعرفون « فلاناً » اصبح من ضيوف عالم آخر . واثناء كل هذا يخرج الكاتب الحبشي من كوة صومعته عنقاً هزيلا عليه رأس صغير شائخ تنقصه النظارات ، فيجعل نظرة « ميوبية » تعبة في السهل ، ثم يعود ليكتب وقلمه يثز على جلد الشاة : « وجرى الدم كالماء » !

يذهب الملك الى غزو سبع مدن يقتل جنوده كل انسان يلتقون به كما كان يفعل جنود الجنرال غاملان في الثورة السورية . ثم يعودون هاتفين فرحين ، فيكتب الكاتب مرة اخرى : «عاد الملك بسلام الله » ! ثم يذهب طاغية آخر الى غزوة ثانية ، فيظل يسير ويبيد ولا يترك خلفه من الاثار سوى الجثث والرسوم حتى يقطع النيل الازرق او الابيض . ولكن حزناً يدخل قلبه هناك حيث تضمحل المعمورة ،لانه، كما يقول الراهب المؤرخ : « لم يجد امامه احداً ليقتله في تلك الاصقاع» ! وهكذا دواليك .

العبيد الارقاء اكثر من ثلث الشعب ، ولكن ليس لهم حتى الشرف بان يسموا « شعباً » ، وهو « القطيع » في عرف الملوك . غير ان الجماهير الجرارة التي تسمى شعباً ، التي تبلغ اكثر من ثلثي الثلثين الباقين من السكان ، لا تفرق عن الثلث الاول الا بكونها واقعة في درجة ثانية من العبودية . اما ماعداهم فاقلية ضئيلة من الكسالى والمغامرين على حساب غيرهم، وكلتهم « العناية » بان « يديروا » هذه الاحوال . اما القحط والوباء والمجاعة فتتعاقب ابداً . مع الحروب . والشقاء المتراكم منذ مئات السنين في روع بشرية منهوكة ينفجر عنها أسطورة

شجية يخلقها الشعب ليقذف بها دماغه في غيبوبة كي يعدمه تماماً ، ولكنها مع ذلك لاتعدمه احساسه بالعذاب . هي اسطورة تقول بان الملك تيودوسيوس بن داود الذي حكم ثلاث سنوات فقط وقلت في عهده الحروب نوعاً ما سيبعث ليحكم الحبشة الف عام طوال ، فلا تكون فيها معارك ولا يكون فيها فقر ، بل يرتع اثناءها كل انسان في احضان سعادة بهيجة ونعمة وسلام .

التناحر بين الكنيسة والدولة قائم على قدم وساق . هذا بطريرك لم يقطعه الملك ما أمل لقاء مساعدته له على اخضاع الشعب لنزوته ، فيهيج الشعب عليه باسم الله وما يتبعه من القديسين والقديسات فيفنى في الهيجان بضع عشرات اومئات الوف يغرقون في بحيرات من دمائهم ، ولا ينتهون من متابعة سبيل الموت حتى ولو تدحرج رأس الملك عن كتفيه وذلك امير يرمي بضع مئات او الوف من الاكليروس في جرف سحيق او يشويهم بنيران وقودها من أديرتهم المحترقة ، ومن ثم يتبعهم بمذبحة عامة للشعب ، لكي تفهم هذه السائحة جيداً بان وكيل الله الوحيد على الارض وماسك دفاتره هو الملك لاغيره . هذا هو معظم التاريخ .

بلى ، انه لتاريخ الحبشة وتاريخ العالم هذا الذي ينطق بذلك الشعر وذلك الاسلوب الارجواني العميق . هو تاريخ البشرية الظالمة المظلومة . صحيح ان الامير الحبشي جاء بعد رعمسيس الثاني ببضعة آلاف سنة وهو ما كأنه إلا نسخة ثانية له ، ولكن صحيح ايضاً بان هتلر وموسوليني في هذا الزمان نفسه جاءا بعد نيرون وآتيلا باقل قليلا من الفي سنة . كانت ملوك الاحباش وجميع الامم القديمة تحرق المدن والبشر ، ولكن المستعمرين الفرنسيين منذ عشرة اعوام فقط احرقوا دمشق وحصدوا اهلها على النمط التيمور لنكي . والمستعمرون جميعهم ، والانكليز منهم في راس الدفتر ، لا يزالون في القرن العشرين يبيدون ويحرقون القرى باهاليها على غرار ما أشعل هؤلاء قرية صرفند في فلسطين ، وعلى غرار ما أبادوا الفلاحين المصريين في دنشواي ، وعلى غرار ما فعلوا ويفعلون دائماً في الهند ، وما فعل ويفعل قديسوهم من « كليف » حتى غوردون وحتى رامسي ما كدونالد . ومع ذلك ، فان الاحباش والامم القديمة لم يستعملوا الطيارات ليحطموا الشيوخ والاطفال والنساء بالقائهم من اعالي الجو ، كما يفعل رجال موسوليني بالعرب وكما يريدون ان يفعلوا الان بالاحباش وغيرهم ممـــن يجتهد الفاشست لتمريغهم تحت نعال

وحشيتهم « المثقفة » ! كذلك ايضاً لم يعرف الاحباش وغيرهم من الامم القديمة كيف يستعملون الرشاشات كي يحصدوا بها اهل القرى التي يحرقونها، كما وقع لاهالي صرفند المذكورة مثلا ولألوف غيرها عندما تصف حول تلك القرى المغضوب عليها جنود الاستعمار ليصطادوا كل من يفلت من اللهيب. للحبشة عـــذر التأخر او ما يسميه برابرة اوروبا الحاليون « بالبربرية » . ولكن ما عذر فرنسا وانكلترا وايطاليا واميركا واليابان ؟ العله في ان نظامهم الاقتصادي لا يزال نظام الفرد يستغل الجماعة، كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة ؟ ام لعل عذرهم في انهم ارقى شكل تطورت اليه البربرية ؟ ،

والان أليس ان أفظع كارثة أضيفت الى قائمة النكبات في تاريخ الحبشة هي هذه النكبة الجديدة التي نقلنا نتفة من اعمالها، التي حملها الى تلك البلاد والى سواها وكلاء رأسماليي انكلترا وفرنسا وايطاليا ودولهم ؟ هي وافدة الاستعمار، القمة في جبل شقائها وشقاء جميع الشعوب، هذه التي جاءت الحبشة اكليل شوك أخير قبل ان تدخل في انتفاضة العالم الكبرى . هي اروع واخبث جميع مصائب الاحباش، ولم تجئهم من البربرية القديمة بل من « مدنية » الرأسمالية .

نخرج من هذا الفصل التمهيدي وقد تجلت لنا الجوانب البارزة التي احاطت بماضي الحبشة، والتي لا تزال تتطورمعها وتحيط بحاضرها . والاهمية الاولى لما عرفناه من هذه الجوانب هو فيما تقدمه لنا من الدروس التي يجب ان لا تضيع فوائدها لهذا أشدد التنبيه اليها بتعدادها كما هو آت .

هـذا ، واعتقد بانه يحق لي كشرقي متعرض لعبودية الاستعمار وواقع مع قومي في نفس الفخ المنصوب لاخواننا اهل الحبشة ــ نعم اعتقد بانه يحق ويجب علي وعلى غيري ان ننبه بعضنا بعضاً الى مثل هذه النقاط . ذلك لانها جوهرية بالنسبة اليهم والينا على السواء ، وادراكها يعينهم ويعيننا على نوال الحرية والسير في معارج التمدن الاشتراكي الصادق والتنعيم بعدله وبحبوحته وهاك الان هذه الجوانب :

١ ــ ان معرفة الاحباش المعاصرين لتاريخهم تحتاج الى تصحيح منهم له . ذلك كي يفهموه علمياً ، مبنياً على الحقائق الاساسية ، على قواعد النضال الطبقي وعلى المحور الاقتصادي الذي دار ويدور عليه هذا النضال . وهذه الحقائق لاتظهر لنا الا على ضوء طريقة المادية التاريخية في البحث ــ الطريقة الوحيدة السليمة لفهم حوادث المجتمع ومعرفة اسباب تقدمه

وتقهقره ، ماضيه وحاضره ومستقبله ، من دون أقل تحريف او تشويه ، دون اي تمايل نحو « اليمين او اليسار » كما يقول ملكهم القديم النابه كلوريوس في مقالته « اعتراف الايمان ». يجب ان يفهم شباب الاحباش المخلصون ومفكروهم المجددون هذه النقطة واهميتها . اذ أن المعرفة الصحيحة للتاريخ تلعب دوراً بمكان اولي . في رقي بلد ما ومناعته على الاستعمار .

٢ — انّ ما تظهره لنا طريقة المادية التاريخية في درس الماضي هو كونه لم يكن الا ماضياً من الملوك والبطاركة والزعماء والشيوخ والوان النبلاء والكهنة يشكلون محوراً لمصائب وتعاسات لا تنقطع ، يلغ فيها الشعب وهو يحمل رؤساءه هؤلاء وصليب عذابه . وبكلمة : كان الماضي ماضي نكبات الشعب المستثمر المخضع لارادة ومطامع اسياده .

٣ — كان الماضي ، عدا ذلك ، انقطاعاً ثقيلا ، شبه مستمر بين الحبشة وبين بقية الدنيا ، الا ماحدث بينهما من اتصال عن طريق التجارة والفتح والدين . وهذه طرق عملت ، في الواقع على ازدياد انقطاع الشعب الحبشي وتنمية كرهه للعالم الخارجي ، الذي بدا له وكانه غول يفغر فاه ليبتلعه فوق ما هو « مبلوع ». وكان من اثر ذلك ان امتنع عليه ان يستفيد الاستفادة الثقافية

المشتركة بين الشعوب ، وعن اكتساب معارف الامم العلمية والادبية والفنية ومساهمتها في الاكتشاف والتقدم ، واخيراً عن السير مع التاريخ الى ابعد مراحل التطور التي وصل اليها في اوروبا واميركا وآسيا عموماً ، ثم فيما وصل اليه عند سكان الجمهوريات السوفياتية — ممثلة المرحلة الاخوية الجديدة في في حياة الانسانية قاطبة .

٤ — ان الاحباش والعرب ليسو فقط أقربين بالدم واللغة والاخلاق والعقلية ، وعلى اتصال دائم منذ اقدم العصور حتى اليوم ، بل انهم ايضاً شعبان نبيلان تجمعهما مصائب الماضي التي ولدت منها مصائب الحاضر . تجمعهما الحاجة الى السلام والتضامن في سبيل تكسير انياب الاستعمار المكشرة الزابدة قبل ان تعرق لحم الشعبين عظمهما تعريقاً كاملا .

٥ — ان بلاد الحبشة غنية جداً . كانت كعبة يتوجه اليها الفاتحون والتجار منذ ايام الفراعنة ، مخترقين اليها اسوار بعدها وانقطاعها وحواجز البحر والغابات والنجود الشامخة والدكادك الفجة ، مخاطرين بانفسهم في اجتياز مناخات المناطق الاشوائية . والان ندرك ان هذا الغنى الذي جذب اليها برغم الاخطار . تجاراً وقواداً من الامم القديمة ، هو نفسه الذي

يجذب اليها اليوم قواداً وتجاراً من دول الاستعمار . كان اصحاب القوافل ياخذون من البلاد ذهباً ومسكاً وبخوراً وخشباً وعاجاً ابيض واسود (الاول) هو سن الفيل والثاني هو (العبيد) ومزروعات ومنتوجات شتى ، ويجعلون منها سوقاً لبضاعتهم . واليوم ايضاً يرغب المستعمرون بهذه الاشياء، وبما يزيد عليها كثيراً . هذه الزيادة هي في ان رجالهم كشفوا في الحبشة عن طبقات معدنية لاتثمن فهم يريدونها . وفي امكانهم استخدام تربتها الطيبة في انتاج ما لم تكن تعرفه في السابق من المزروعات بواسطة شركات استثمارية واسعة يكد على اراضيها ابناء البلاد انفسهم تحت شروط العبودية الاستعمارية — فهم يطمعون بذلك ولا يكادون ينكرونه ولكن يسمونه بلغتهم المعسولة المنافقة « تمدنا » . وهم يشعرون في بلادهم بضغط ملايين العمال البائسين والعطالين (وهذا يسمونه « بزيادة السكان ») ، الذين يسلبونهم كل شيء ويرمونهم للجوع — فهم يريدون ترقيع هذه الحالة بقذف اولئك العمال في بلاد الاحباش ليموت منهم قسم في البدء بمحاربة اهلها ، وليعيش القسم الباقي بالامتصاص من دم من يبقى من الاحباش اثناء ما يكدسون القناطير الذهبية لاسيادهم . كل هذا يجعل

الحبشة مطمحاً المستعمرين (وموسوليني وفاشستيه تمثلهم فيها اليوم)، ويجعل هؤلاء على استعداد لقتل كل ابن من ابنائها في سبيل الحصول عليها . هذا، والمهم في غنى الحبشة هو ليس الغنى في نفسه او الغنى لنهب وابادة يشبعان مطامع المستعمرين ، بل هو في استطاعة استخدام الاحباش انفسهم له وترقية حالهم به . فان في البلاد من الموارد ما لو يعمد الاحباش الى استغلاله بالالات والتكنيك الراقي مع الطرق التعاونية الاشتراكية الحديثة، لوسع كل فرد منهم ان يعيش أرفه عيش وان يكون كل منهم في مستقبل غير بعيد سيداً قائماً بذاته، له بيته الخاص واوتومبيله وراديوه وما لا نعلمه الان من غرائب نعم المستقبل، لاعبداً لسيد اقطاعي اودودة تحت نعل الاستعماري .

٦ــ ان للاحباش ميزات وقابليات رائعة . ولهم ذكاء متوقد واستعداد لاينقص عن استعداد أي شعب آخر للترقي والتحقيق ، مما يجعلهم قادرين على السير في طليعة الامم الماشية الى تحررها ، ويسهل لهم تقديم معونة ودفع قويين لموكب المدنية الاشتراكية الذي لا يتوقف ثانية عن السير . والدليل على قولي تجده فيما نراه خلال ظلمات تاريخ

البلاد من انبثاق أشعات متوهجة لمدنيات قوية قامت فيها . فان الحبشة قد عرفت في حدودها الشمالـــة مدنية النوبة ، وفي الشمال الغربي ازدهرت لها حضارة غنية عقب ايام البطالسة ، وظهر في اواساط القرن الرابع امبراطور في عاصمتها القديمة آكسوم اسمه « ايزانا » نستطيع ان نضعه في صف كبار رجال السياسة واذكياء القواد الذين عرفتهم الشعوب . ومما يؤسف له أن الحروب المتتالية في الحبشة لم تبق عـــلى شيء كثير من الاثار ، اهمهـا معابد « لاليبا لا » الشيرة . لكن هذه المعابد كافية ، إذ أنهـا من الجلال والفخامة وروعة الصنعة ما يضعها في رأس قائمة عجائب اعمال الانسان البنائية في العالم . وفي الحقيقة ، اجد كثيراً من الحبشة كونه ظهر فيها قسم من ملوكهـا كتاباً ومغرمين بالمناظرات الفقهية والجدل النظري . فهـــذا مما له قيمته ودلالته التي لا تغيب عنا بالنسبة للزمان والمكان المتقهقرين اللذين وجد فيهما هؤلاء الملوك ، وبالنسبة لمركزهم كأسياد في دسوت الحكم ، اذ ان من دلائل الخصوبة الكامنة في شعب ما ان نجد حتى ملوكه مولعين بالابحاث التصورية مهما كانت عليه من البلادة والعقم . وان شعباً يخرج ابا علاء المعري في شخص مفكر حر ، موهوب ، تضطهده الدولة

والكنيستان الرومانية والحبشية معاً ، واقصد به الكاتب زرأى يعقوب ، كشعب يرقد فيه عدد لا يحصى من النوابغ . حقاً لقد كان انقطاع الشعب الحبشي عن الاتصال الثقافي والحضاري بالعالم مانعاً عليه سبل تقدمه وانمائه لمواهبه ، وواقفاً دون اخذه حقه واعطائه قسطه من محصول الفكر والاجتهاد البشري . غير ان منغوليا السوفياتية كانت مثلها قبل ان تخلع عنها نير قيصر الروس وتصبح جمهورية شعبية حرة ، آخذة في اظهار هبات فكرية وانتاجية واختراعية وفنية رائعة . ولذا ، فان رفع كابوس الاستعمار والتخلص من الرجعية الاقطاعية باقامة حكم شعبي لامور لاتوثق صلة الحبشة بالعالم كند مع نده وحر مع أخ حر فحسب ، بل تخصب تربة الذكاء والانتاج الحبشي الثقافي ايما اخصاب ويدفعه الى اظهار البدائع والروائع خلافاً لافك المستعمرين .

٧ ــ مثلما تتبين شرارت لامعة للعبقرية الحبشية الكامنة خلال تاريخ من الانعزال والنكبات ، كذلك تتبين خلفه ان الحبشة استطاعت ان تكتسب رغماً مجموعة كبيرة من هبات الثقافة والمعرفة والتجارب التي كانت من محصول الامم الاخرى . كانت علاقة التجار بالبلاد علاقة مادية مبتذلة ،

وكانت علاقة الفاتحين نهباً وقرصنة وسيفاً بتاراً . غير ان قدراً كبيراً مما كانت تملكه الامم في هذه النواحي تسرب ، مع ذلك الى الحبشة ، فاستطاعت ان تستفيد منه حتى عبر اقبح صور تلك العلاقات . والتعليل الشامل لهذا التسرب انه حتمي الحدوث . يقع بمجرد وقوع الاحتكاك او الجيرة بين قومين . وإذ كانت الامم التي اتصل اهل الحبشة باهلها ، دائماً متقدمة عليها ، بسبب ما كان لها من صلة أوثق ببقية العالم ومدنياته ، فقد اصبح لا محيد عن اكتساب الاحباش حتى من لصوصها وفاتحيها وتجارها شيئاً مما امتازت به عليها . لا شك بان غزوات كغزوات جنكيز وتيمورلنك قضت على الشعوب التي استهدفتها ، لان اهل هذه الفتوحات كانوا على قدم راسخة في البربرية الابتدائية بينما ان الصينيين والمسلمين الذين فاض عليهم مغول جنكيز وتتر تيمور كانوا أرقى منهم بكثير ، فكانت النتيجة ان اجهزت البربرية على التمدن ولم يستفد المستهدفون للفتح سوى الابادة . لكن احتكاك العرب باوروبا أفادها وقدمها . هذا ، ولا اقصد « بالاحتكاك » الفتح بمعنى الكلمة . واما الاستعمار، فلا اقصده ابداً . لانه ، من جهة ، تيمورلكي العقلية تماماً في انانيته

وغايته ودمويته وما يريد من محق الاقدام التي يجتاحها. ومن جهة اخرى يشكل الاستعمار ظاهرة قائمة بذاتها ، لامثيل لها في السابق ابداً لكونها من مفرزات الرأسمالية التي تولدت من اقتران التطور التجاري والمالي الواسع الحديث بالثورة الصناعية التي لاتزال ولن تزال مستمرة الثورة ، ولكن التي ليس الاستعمار الا من ظاهرات الدور الاول منها فقط ، وهو دور وشك الانقضاء.

غير انه ينبغي ان يقال بان على اهل الحبشة في هذه الساعة مجابهة المواقع بكل فظاعته الرأسمالية والفاشستية . لذلك كان عليهم ان يعملوا بكل ما عندهم من جهد وحيوية ومناعة ، أثناء ما هم متعرضون له من أفتك الغزوات الاستعمارية التي تمثلها إيطاليا اليوم في بلادهم . عليهم ان يستفيدوا من احتكاكهم بها تجارب ودروس ومعارف جديدة . من أفظع عدو وأعدمه شرفاً وضميراً يجب ان تكتسب الحبشة معرفة صحيحة بمقدار ما يدعيه هذه العدو الكاذب من شرفه وضميره . يجب ان يحاربوهم بفتك كفتكه ، بخبث كخبثه ، بتنظيم كتنظيمه ، وان يتعلموا استعمال أحدث الالات ووسائل المقاتلة التي يستعملها ذلك المتعدي الاثيم .

كما ان قبائل الحبشة الاول استفادوا من عرب اليمن تلقحاً بدم جديد، ومدنية أرق، ولغة عربية ذات كتابة وقواعد، وكما ان هذا الشعب الجديد الذي خرج من ذلك الامتزاج تلقن عن التجار اليهود أصول البيع والشراء واستخراج الكنوز المخبأة، وكما انهم اقتبسوا من اهل النوبة كثيراً مما تلقاه هؤلاء عن فاتحيهم المصريين بخصوص الادارة وتدريب الجيوش وتدوين السير والاخبار، وكما عرفوا من التجار اليونانيين في آكسوم وآدوليس قواعدهم في الاعداد وكيف يطلبون التثقف الرفيع والاهتمام باعلاء الناس لمستوى معيشتهم، وكما ان الصناع السوريين والمصريين وسواهم افادوهم في ترقية استذواقهم للاعمال الفنية عندما ساعدوهم على نحت معابد «لا يالا»، وكما ان ترجمة الكتب — وان كانت في الاغلب سقيمة ولمؤلفين سقماء — عن القبطية والعربية، هيجت فيهم نواحي التفكير والمناقشة فيما يترجمون ويقرأون، وكما كان بوسعهم أن يتعلموا فن بناء الجسور القوية من الجنود البرتغاليين الذين ارسلوا الى بلادهم ليكونوا نواة للفتن — كما حصل لهم كل ذلك، يمكن لهم اليوم ايضاً، فيما اذا انتبهوا ونشطوا لحماية نسائهم واطفالهم من همج الفاشست الايطاليين،

ان يكسبوا من الذين يسيرون في طريق استعمارهم ما لا يريد هؤلاء ان ياخذوه عنهم . وقبل كل شيء يحسن الشعب الحبشي صنعاً فيما اذا تعلم من حقيقة مستعمريه ما تنطوي عليهم جميع مظاهرهم التغريرية والارتشائية الحلوة من حقائق الاستعباد الناعم المتلاعب الذي لا يلبث ان يتلوه استعبادهم الخشن بكل مهالكه . نكرر القول دائماً بان على طليعة الاحباش المناضلة ومفكريهم واحرارهم ان يفهموا بان الشعب الحبشي بكامله ، مسلحاً باسلحة مدنية، متعلماً ، مستمراً في التعلم باقصى جهوده ، منشئاً لاطفاله مدارس صحيحة التلقين واجبارية ومجانيـــة ، مدركاً بان ما يعمله انما يعمله لترقية نفسه وتحريره الوطني والاجتماعي ، غير خاضع كالعوبة في يد الدول الاستعمارية ، هو اهم عناصر القوة التي تستطيع ان تحمي استقلال بلادهم وتكون اساساً لترقيتها وسعادة شعبها . عليهم (وهنا اخاطب العرب في الحقيقة اكثر من الاحباش) ان يشعروا بان تحرير المرأة وتعليمها واشتراكهـــا في النضال مع الرجال يضاعف قوة البلاد ويشد همتها شداً عجيباً . ونكرر القول ايضاً بالاشارة الى ما في قلب الدول الاستعمارية نفسهـا من اناس يجدون في الاستعمار سبة الانسانية الكبرى والسبب

الاول لتعاسات العالم، والى انهم يعملون ليل نهار في دك قلاعه السوداء. اجل، ان جميع المكافحين الثوريين ضد الاستعمار، المنتشرين في جميع البلدان، من طبقات عاملة وفلاحين مظلومين ومفكرين وقادة شعبيين مخلصين، يمدون يدهم الى مصافحة الحبشة ويودون مساعدتها. وفي مقدمة الجميع اتحاد الجمهوريات السوفيانية التي قدمت أطيب مثل في اعانتها الشعب التركي اثناء ثورة تحريره الوطني، وبعدها في مرحلة تقدمه الاجتماعي الحالية، ثم في مصافحتها كل امة مظلومة اخرى.

بوسع الحبشة ان تقتبس وتفهم كثيراً من اصطدامها بهذه المحنة التي لا بد منها ومن محاربتها حرباً لا رحمة فيها للتخلص منها، بهذه الوحشية المنظمة التي تشكل مرحلة محتومة في تطور البشر. والتي (كما نبين فيما ياتي) تشكل ايضاً في توصلها اليوم بكل شدتها الى الحبشة آخر دور من ادوار الرأسمالية.

على الاحباش ان يعملوا على تحويل الميكروب الاستعماري الى مصل يتطعمون به ضد فتكه الحموي الخبيث ....



الهجوم على الذهب

يلزمنا وصف قليل للبلاد التي تتخذها موضوعاً قبل المضي في الكلام عليها كهدف للهجمات في سبيل الذهب . كهدف للاستعمار . تبلغ مساحة الحبشة اليوم حوالى ٣٥٠٠٠٠ ميلا مربعاً ، مقسمة الى ثلاث ممالك هي : تيجراي في الشمال ، آمهرا في الوسط ، وشوآ جنوباً . في كل مملكة منها اقطاعات ومناطق ومساكن قبائل . ولكل من هذه الاشياء ملك اورئيس او زعيم او رأس (لقب اقطاعي فيها) كانوا يعمهون ، كما اشرنا سابقاً ، في حالة كالحالة الحربية القبائلية ، بل كالحالة التنابذية الدائمة في اوروبا ، القائمة فيها منذ القدم حتى الان . (هذا ، مع حسبان الفارق في ان الحروب الحبشية والحروب الاوروبية تحصد من النفوس على قدر تمدنها . اذ ان حرباً واحدة وقعت في اوروبا بين سنتي ١٩١٤ و ١٩١٨ التهمت من شبابها لحسب ما يزيد على ضعفي عدد سكان الحبشة مع المقاطعات التي اقتطعتها منها انكلترا وفرنسا وايطاليا) .

معظم البلاد واقع في مثلث نجدي يرتفع الى مستوى يقرب من ٨٠٠٠ قدماً عن البحر . هذا النجد محاط من جهاته باخاديد وعرة ، ووديان حادة ، وجبال مسننة تكاد تكون في وقفاتها على انتصاب عمودي شاهق . ثم تعلو عنه جبال تلبس هاماتها قبعات ثلجية طوال العام ، فيسمو أعلاها في ارتفاعه على «مون بلان» ، ارفع قمم الالب رأساً. عند حواشي المثلث يأخذ النجد بالهبوط ، فيسقط الى الاريتريا نحو البحر الاحمر شرقاً ، والى بلاد الصومال وكينيا جنوباً ، وجهة الصحراء ومنخفضات النيل وما هنالك من القفر الناشف والاراضي الدغلية في السودان شمالا وغرباً . هكذا نجد في الحبشة اقاليم يختلف فيها الطقس بين حمى الصحراء والمناخ الالبي البارد ، بين جو الغابات ولهاث المستنقعات الاستوائية وحالة الاعتدال . وفي هذه الطبوغرافية الشاقة سبب لافتخار الاحباش بانه رغم تعرضهم لغزوات المغيرين لم تستطع اية مملكة طول تاريخها ان تخضعها لنيرها . اما عدد سكان هذه المساحة الغريبة من الارض ، فيختلف فيهم الرأي اختلافاً يتباعد كثيراً . وذلك يعود الى الجهل الذي لا يزال يحيط بكثير من امثال هذه الحقائق الاحصائية البسيطة عن الحبشة ، والى محاولة

« علماء » المستعمرين اخفاءها او تشويهها ريثما يتم لاسيادهم تمكين القبضة من عنقها. ولكننا نستطيع على كل ان نقدر عدد السكان بما يتراوح بين الثمانية والعشرة ملايين.

بخصوص ثراء البلاد الطبيعي واستعدادها الانتاجي، لحسبنا ان نعرف بانها من اخصب المناطق في افريقيا، كما ان هذه، رغم الوعورة والصفة الصحراوية التي تسود القسم العظيم منها، لتحوي قسطاً لا يقدر من الكنوز المعدنية المدفونة فيها وقابليات زراعية وصناعية هائلة. ومن يراجع خرائط الخصوبة الارضية في العالم ليجد بان الحبشة تأتي في بلدان الصف الاول. وحسبنا الان ان نعرف من اهم اشكال ثراء الحبشة الحاضرة النفدات التالية. فان فيها من المعادن: حديد ونحاس بغزارة، ذهب، بلاتين، فضة، ملح حجري، كبريت، ماغنيزيوم، حجر سماقي، رخام اسود (باسالت) صخر « التراخيت » فحم خشبي (ليجنايت) وحجارة كريمة من مختلف الالوان الخ... وفيها من الحبوب: القمح والشعير والذرة والعدس والدخن الخ... وفيها من انواع المحاصيل والغلال: القهوة، القطن، السكر، الشمع، الفلفل، العسل (وصفت الحبشة بانها « ارض الحليب والعسل »)، الجلود

الفرو ، العاج ، الصمغ ، النيــلة ، السمن المسلي ، الشحم ، حب الهال ،المسك ، البخور (ومن هذا المر واللبان والفسوخ) الخ . . . وفيها من الفواكه والخضار (وتربة البلاد على غاية من الخصب والتنوع ، ويكفي ان نعلم ان خصوبة وادي النيل في مصر ترجع الى ما يجلبه هذا النهر من تربة الحبشة) : العنب ، البرتقال ، الليمون ، البنزهير ، التفاح ، المشمش ، الموز ، البلح ، الشمندر ، الخس ، الملفوف ، البندورة ، وهلم جراً . وفيها من الماشية : آلاف القطعان من الابقار والغنم والخيول والماعز . وفيهـا من الخشب أحراج غنية بكل نوع ثمين مـن الشجر ، اهمها شجر المطاط — وهـذه الاحراج كثيفة برغم الحروب المتواصلة التي ابادت معظمها .

ثم فيها ، عدا كل هذا ، مقدار كبير من «الفحم الابيض» اي الانهار والشلالات التي تستطيع ان تولد مـن الكهرباء ما يكفي لنصف القارة الافريقية على الاقل . يكفي ان نعلم ان منابع الحبشة وانهارها تقدم اكثر من ثمانين في المئة من ماء النيل المصري السوداني ، واهم هذه المنابع بحيرة تسانا ونهر العطبره في شمالي الحبشة (١) .

---

(١) راجع ما كتبه بهذا الخصوص السر هارولد ماكيكل في كتابه - السودان الانكليزي المصري - — ص ٨٥ .

ثم نستطيع ان نكون فكرة عن اهمية هذه المياه في شرقي شمالي افريقيا من انها شكلت في عقول اهل هذه المناطق فيما مضى نظرية شعبية (فولكلور)، قد تكون من اروع الخرافات التي عرفها التاريخ . اقصد بهذا ذلك الاعتقال والتخوف من إمكان قطعها عن مجرى النيل الذي يعيش عليه ملايين من البشر ، والتحدث الساذج الدائم بهذا القطع واهواله . حتى اننا نرى ملوكاً عدة من الاحباش قد هددوا حكام مصر ، عند الاختلاف معهم، بتحويل مجاريه عنها، وان الخليفة الفاطمي المستزيد بالله لما حصل في ايامه نضوب في النهر ظـن ان الاحباش قد حولوه ، فارسل يستعطف النجاشي لارجاعه الى سابق حاله !.. هذا ، والانكليز لم يهدأ لهم بال من هذه الناحية حتى نشروا سلطتهم المطلقة على المنطقة التي تحيط ببحيرة « تسانا » .

ليس مجالنا أن نستطرد في درس هذه الموارد ، ولا في درس شيء سواها من احوال البلاد الجغرافية او القبائلية او الادارية اوعادات اهلها . كل موضوع من هـذه يستحق القدر الكبير مـن الاعتناء وزائد الاهتمام ، ولكننا الان نتركها لنتقدم الى استكمال مقدمات البحث من وجهة

استهداف الحبشة للغلمة الاستعمارية، ومن جهة استخراج الامثولات لاهلها ولنا، بل للشرق المضطهد كله، من اشكال وتطورات العراك القائم في سبيل ابتلاعها. ويكفي الان ان نشدد في التنويه الى ان تهالك القادمين الى افتتاح الحبشة، سواء بالصورة الغزوية والتجارية القديمة او بالصورة الاستعمارية الحديثة، كان دائماً طمعاً بشيء مسن، او بكل. ما وصفنا وما لم نصف من ثراء البلاد. كان ذلك التهالك ولا يزال، هجوماً حيوانياً على الذهب. بكل كل دولة قوية توجه عينها الى أية دولة ضعيفة ومسدسها مصوب الى راسها او سمها مدسوس في صحنها ليست سوى هاجمة على الذهب، لا كما تدعي بنفاق بليغ من انها رسولة تمدين. وفيما يلي من هذا الفصل وما يليه ملخص سريع بسيط لبدايات وتطورات واساليب وتفسير هذا الهجوم، بصفته متمثلا في الاتجاه ضد الحبشة ومستهدفاً اياها.

ooo

لما كان بحثنا الاتي في الحقيقة بحثاً للهجوم الاستعماري على الذهب، فقد وجب ان نسبق الكلام بتعريف يحدد الاستعمار تحديداً تاريخيا علمياً وتحديداً آخر مقترناً بمفهومه

العام في أذهان الشعوب المستعمرة وكلاهما في الواقع تحديدان مؤتلفان يشيران الى مشكلة أصلية واحدة — مشكلة طغيان القوي على الضعيف واستعباد الغني للفقير .

أما علمياً وتاريخياً فخير ما يعين الاستعمار تعييناً مضبوطاً هو ما جاء في احدى تعاريف عدوه الاكبر لينين — في احدى تلك التعاريف المختصرة ، المفيدة ، البديعة الدقة ، والتي امتاز بها زعيم المظلومين الخالدة قال : « الاستعمار يعني الرأسمالية الاحتكارية التي لم تبلغ نضوجها الكامل الا في القرن العشرين » . (١)

ان المظهر السياسي الاقتصادي المحدود الشكل الذي تتخذه لنفسها هذه الرأسمالية الاحتكارية هو نموها المستمر في البلاد التي تنشأ فيها وتوسعها المستمر في خارجها . ويتجلى هذا التوسع نحو الخارج في صنفين من الدول او البلدان : في البلدان الضعيفة اولا ، ثم في الدول القوية التي تكون هي ايضاً ذات رأسمالية احتكارية مائلة الى الاستعمار . مثلا : يستهدف توسع دولة من الدول الاستعمارية بلداناً ضعيفة ، عاملا على إرضاخها وجعلها من جملة مشاريعه الاستثمارية الاحتكارية .

---

(١) كتاب (الثورة البروليتارية) - ص ١٩ - الطبعة الفرنسية لمكتبة (الانسانية) عام ١٩٢٥

ثم يتنافس هذا الاستعمار مع استعمار الدول القوية الاخرى على مايدها من الاحتكارات ومن البلدان الضعيفة. وبهذا تصبح هذه الدول القوية متنافسة ايضاً على غلبة بعضها بعضاً، على تحويل بعضها بعضاً دولا ضعيفة راضخة لرأسماليه ولاستعمار بعضها بعضاً المباشر. ثم ان هناك مظهراً ثالثاً للاستعمار، هو التحالف بدل التنافس، وهو تحالف يقوم بين رأسماليات دوله المختلفة على الاشتراك في ابتلاع بلد من البلدان الضعيفة بسبب قوة هذا البلد وتماسكها النسبي وكبرها، كموقفها السابق من الصين مثلا، او بسبب المصلحة المشتركة القائمة على المصلحة المتنافسة، كموقفها من تركيا عقب الحرب العامة ومن روسيا اثر قيام ثورة العمال والفلاحين فيها .

ذلكم هو تعريف الاستعمار كما جاء للينين (وهو التعريف الصائب)، وتلكم حدود مظاهره الشكلية كما تستخرج من ذلك التعريف ومن الواقع . وهو — اي الاستعمار — في حالة نضوجه يؤلف، كما بين لينين، ظاهرة من ظواهر القرن العشرين .

غير ان هذا التوسع المعاصر من قبل الدول القوية تجاه الضعيفة وتجاه بعضها بعضاً له سوابق ترجع الى ما قبل القرن

العشرين ، كما ان للرأسمالية سوابقها من رأسمالية صناعية ومن تجارية بسيطة ، ومن اقطاعية او ملوكية مطلقة فاتحة كانت من قبل الرأسمالية البسيطة . والمعنى الذي تتخذه لفظة « الاستعمار » في أذهان اهالي «المستوطنات» الشرقية (اي في « الكولونيات » حسب التعبير الغربي ، او البلدان المستعمرة حسب المقصود السياسي الحديث) هو معنى يكاد يضم تسلط الدول على بعضها البعض في جميع قوالبه من قديمة وسطية (١) ،فاتحة بسيطة ، ومن حديثة توسعية ، معقدة . ان الاستعمار بالمفهوم العامي اصبح يرادف الاستعباد والاستبداد من كل شكل ، ويعني حركة الاجنبي كيفما تحرك ومهما ظهرت عليه سيماء البراءة . وبذلك يتخذ الاستعمار شكلا اضخم واكثر شمولا وأبعد في القدم من تعريفه العلمي الدقيق ، فيبيت معناه بعد ذلك جامعاً لكل نوع ودرجة من انواع ودرجات تغلغل السيطرة الاوروبية ، ويمتد الى أبعد من هذا القرن . يمتد الى اول محاولة يقوم بها الغرب في القرون الحديثة لمد نفوذه على الشرق : لسلبه اراضيه واموال واهله .

---

(١) الوسطية هي عندنا نسبة الى القرون الوسطى

الان نجمع بين معنيي الاستعمار هذين لنستخلص تعريفاً شاملا لهما وجامعاً لبحثنا الذي يتناول هجوم الغرب على ذهب الحبشة منذ أوائل بوادره ، منذ كان فتحاً بسيطاً مستنداً الى توسع ملك او بابا أو جماعة من التجار او وكلاء احدى القوى الدولية ، وهو فتح كان باباً ومقدمة للتوسع الرأسمالي الحديث ، فتطور مع تطور النظام الطبقي حتى وصل اليه . وبمقتضى مزجنا بين مفهومي الاستعمار نجد التعريف المستخلص يقرر :

ان الاستعمار هو الاشكال المختلفة والدرجات المتعاقبة لتوسع الدولة القوية (وتكون في الغالب الواقع غربية) في اراضي الدولة المفككة الضعيفة (اي في الغالب شرقية) ،توسعاً سياسيا واقتصاديا يرمي الى اخضاعها أو استثمارها لمصلحة الطبقات الحاكمة في الدول القوية ، من الاقطاعية حتى الطبقة التجارية ، وحتى اخيراً الرأسمالية الاحتكارية .

اذن ، الاستعمار بالمفهوم الواسع هو العملية المزدوجة من نشر الدولة القوية سيطرتها الاقتصادية على مرافق الثروة والموارد في الدولة التي هي أضعف منها ، ومن تحكيم سلطتها

السياسية الديكتاتورية المباشرة اوغير المباشرة في رقاب اهلها. وتعد جماهير الاهالي بنظر المستعمرين في البلاد الضعيفة من جملة مرافقها . لهـذا يصبحون ، حال استتباب سلطة الدولة القوية في وطنهم ، راضخين لا رضوخاً سياسياً جبرياً فحسب، بل استثمارياً استعبادياً ، لارادة الحكام المنصوبين عليهم من قبل الدولة القوية. أما هؤلاء الحكام فيكونوا مزودين بأوامر تقول بعدم احترام أي شيء ، عدم الاقتصاد بأي قدر مـن الارواح ، عدم احلال أي شعور ضميري او اعتبار انساني في سبيل تنفيذ الاستعمار والاستعباد في الاهالي. وهكذا تكون النتيجة ان الدولة القوية تحكم البلاد الضعيفة من اجل استغلال اهلها وأرضها سواء بسواء ، باعتبار أن الارض والناس الذين ليسوا سوى موارد ثروات للطبقة الحاكمة في تلك الدولة ، اي الطبقة التي اقامت الدولة او استلمت جهازها لتكون منظمة وكل اليها خدمة مطامعها الخاصة ، لا خدمة عموم شعبها كما يوهم البعض وكما يتوهم آخرون .

قديماً كان التسلط السياسي على وجه عام يتقدم الاقتصادي، واليوم يتقدم الاقتصادي في الغالب على السياسي ، ولكنهما على كل حال دائماً وابداً يترافقان ويلحق الواحد الاخر كيفما توجه.

قديما كان التوسع بسيطا ، يستند الى بيئة متأخرة ، جاهلة ، الى امداد مطالب طبقتها الحاكمة غير المترقية من ملوك وامراء ورجال دين ورجال حرب . كان توسعا اقرب الى الغزو ، كان فتحاً اصطدامياً مفاجئاً ، بعكس التوسع الاستعماري الحديث، هذا التوغل المالي والنفوذي والعسكري المطرد ، هذا التغلغل التدريجي ، الدقيق ، المنظم ، التسميمي ، البارد القساوة ، الدموي الحلاوة ، المدني الوحشية .

ولقد اخذ ذلك التوسع بالتحول من شكله الغزوي الساذج الى قالبه الاستعماري المعاصر منذما ابتدأت طبقة جديدة في اوروبا بالظهور والنهوض . هي الطبقة المعروفة باسم « البورجوازية » التي خرجت الرسمالية الاستعمارية في اوروبا واميركا واليابان منها ، والتي لا تزال الى اليوم الطبقة الحاكمة في اكثر من اربعة أخماس الارض . (١) ونستطيع ان نقول ، ونحن

---

(١) الرأسمالية الاحتكارية لاتحكم بلاد السوفيات البالغه سدس مساحه الكرة الارضية حيث استلم الحكم عمال البلاد وفلاحوها وعلماؤهم ومفكروهم الثورويون كذلك نجدها لا تحكم اقساماً واسعة من الصين حيث يسيطر العمال والفلاحون والشعب الصيني الذين اقاموا حكومة وطنية على الطراز السوفيتي وكما وان بلاداً شرقية اخرى مثل تركيا وايران تتملصان اكثر فاكثر من ربقه الراسماليه الغربيه .

قريبون من الدقة ، بانه منذ أوائل القرن الخامس عشر ، عقب التراجع الصليبي وامتداد التجدد الرينسانسي ، اخذت طلائع توسع هذه الطبقة الناشئة في اوروبا تبدو في امتداد اكتشافي وتجاري واسع . كانت تقوم به دول اوروبا الاخذة بالنهوض في بلدان الشرق الضعيفة او الاخذة بالانحلال ، ثم في القارتين الاميركيتين المتأخرتين . وفي اوائل القرن السادس عشر وصلت الطلائع الى بلاد الحبشة .

° ° °

شرعت الطلائع تظهر على المسرح الحبشي مع تسرب المبشرين اليسوعيين والكبوشيين والفرنسيسكانيين وسواهم اليها . أجل ، لقد كان رجال الدين دائماً يعجون عجيباً في الحبشة كما هم في بقية العالم الخاضع لنظام الطبقات . لقد كانوا دائماً يتوافدون اليها من الاسكندرية والقدس ، لمشاركة من فيها منهم بالجدل واضاعة وقت الامة ، لسلب عقلها واثارة الفتن والمذابح بينها . غير ان هذا الطراز الجديد من القسس الاوروبيين ، الذي اخذ يفد اليها ممهداً سبيل الاستعمار ، كان وبأ جديداً لم تعرف الحبشة أشد منه فتلا وتسميماً في كل وجودها .

منذ اواسط القرن الخامس عشر بدأت عينا البابا تدوران في وقبيهما وتتجهـــان بشراهة نحو الحبشة، اذ تأمل « ملك » الكاثوليكية بانه يستطيع ازدرادها دفعة واحدة بمجرد اقناع ملكها بأصوبية الايمان الروماني، وجعله بذلك يضم نفسه ونظام دولته الكنسي تحت لواء البابوية . ولقد كان وقتئذ من سذاجة ملك البلاد، واسمه زرأى يعقوب، انه ظن في استطاعته ان يستعين بدولة اوروبية على اعدائه في الداخل ، فارسل بعثتين الى روما واخرى الى مجمع فلورنسا . ولقد جذبت هذه البعثات انتباه البابا ومن ورائه بعض دول اوروبا القوية وقتئذ الى ما في الحبشة مـن ذهب ، فبادر الى الترحيب بها باسم المسيحية . ثم اظهر تسامحاً ملاتكياً لم يكن من عادات الكنيسة ، اذ اعلن لها قبوله بانضمام المسيحية الحبشية الغريبة الى مسيحية روما دون ان تغير مـن تقاليدها وطقوسها ، رغم ان شقة الخـــلاف بين الكثلكة ودين الاحباش كانت اوسع بكثير منها بينها وبين الارثوذكسية او البروتستانتية. كانت مسيحية الأحباش ممتزجة بشيء كثير من الوثنية الافريقية واليهودية والاسلامية ، وكانوا يختنون أولادهم ويعطلون السبت ، يسمحون بتعدد الزوجات ويتساهلون بالطلاق

ولا يميلون الى تزيين معابدهم بالرسوم والتماثيل ، ثم يجمعون الى كل ذلك كمية كبيرة من الطقوس والمعتقدات التعويذية الوثنية المتباينة . لهذا نجد في محاولة البابا ما يسمونه « بالنعومة السياسية » ، او بالاصح التدليس على الخد قبل انزال اللطمة .

في اواخر العقد الثامن من القرن الخامس عشر ارسل حنا الثاني ، ملك البرتغال ، بعثة مؤلفة من ملاحين شهيرين ، احدهما « آفونسو ده بايفا » والاخر « بيدرو ده كوفيلهام » ، فقتل الاول في عدن وو صل الثاني الى بلاط الحبشة حيث استطاع بدهائه ان يحصل على اكرام الملك ويكتسب نفوذاً عليه . ثم استطاع ان يكون على اتصال مع ملك البرتغال ، يوافيه بالمعلومات ويقترح عليه ارسال بعثة اخرى وجوقة من المبشرين . وعلى اثر هذه الحركة ، اي في العقد الثاني من القرن السادس عشر ، تتبين ظهور العوارض الأولى لتطاحن دول الاستعمار الناشئة حول الحبشة فان البرتغال كانت قد بسطت سيطرتها على شواطئ الهند وجزيرة جوا والمحيط الهندي في عام ١٥١٦ كان رجالها قد وصلوا الى امتلاك «زيلع» الواقعة شرقي الحبشة على خليج عدن ، والى احراقها بنصف سكانها .

في ذلك الوقت ايضاً كان السلطان سليم الاول قد دحر

الجيش المصري بقرب حلب . ومن هناك سار الى القاهرة .
ثم ارسل قائده سنان باشا في حملة اكتسحت اقساماً من
بلاد العرب ، فأنشأت الحاميات على طول الشطوط البحر الاحمر
وما لبثت ان طردت البرتغاليين من زيلع المذكورة .

هكذا نشأ نفوذان استعماريان يتطاحنان على
ابواب الحبشة ، فما عتم أن امتد تناحرهما التوسعي الى البلاد
نفسها ، خلال بجار من اهل البلاد انفسهم . وهذا افظع
ما في طبائع الاستعمار : انه يستعمل البلاد التي يستهدفها لفتح
ذاتها امامه . جاءها ذلك العراك العثماني البرتغالي وهو يجلب
معه وسيلتين جديدتين من وسائل التوسع وغاية جديدة من
غاياته مما نقل معناه بضع خطوات من الفتح البسيط الى
الاستعمار ، في قاموس الاستعباد اما الوسيلتان فكانتا : استغلال
النعرة الدينية ورجالها في البلاد المقصودة من جهة (البرتغال
يستعملون المسيحية والاتراك يستعملون الاسلامية) ،
واستخدام البارود والبنادق والمدفعية في القتال من جهة اما
الغاية الجديدة فقد ظهرت في عدة امور : ١ — قيام الدولة
الفاتحة بانشاء المدن ، الاساكل ، المحطات البحرية والبرية ،
المخافر المرتبة ، لا بقصد تمجيد ذكر الفاتح وتعظيم اسمه وتخليد

معاركه فقط، كما كان المرمى الغالب على شأن الفاتحين السابقين من الاسكندر حتى تيمورلنك، بل بقصد سحب المدخول من تسهيل التجارة للدولة الفاتحة وايجاد قواعد ثابتة للتوسع الدائم المستمر بحسب مبدأ الامير فخر الدين المعني اللبناني القائل في تلك الايام بان «السلطنة تخم متنقلة»، أي اراضي تؤخذ لتستعمل مراكزها والقوى المكتسبة منها لاخذ سواها ايضاً.

٢– في وضع طرق النهب القديم واصوله ضمن قوالب قواعد ولوائح واتفاقات وعادات مقننة بقصد الديمومة، وذلك لاجل التوفير في الصرف والتكثير في الايراد واظهار الاغصاب في لباس من النظام.

٣ – الامعان الشديد في الاستثمار والتفنن فيه. فمن استغلال موارد المناطق المحتلة وسبل التجارة المارة بها في صورة الضرائب ورسوم المرور والمكوس، الى ترتيب القرصنة في بحارها وترتيب تسخير الاهالي بالجملة وحشد المغانم منهم، واخيراً الى فتح ابواب البلاد الملحقة امام تجار الدولة الفاتحة بحيث تصبح المناطق المكتسبة سوقاً لهم، محصوراً بهم اكثر ما يمكنهم الحصر.

كانت هذه الحوادث تمثل ظاهرة جديدة في الحياة الحبشية

العامة ، غريبة عن مجراها السابق العادي . فانه لاول مرة في تاريخ البلاد حدث تحارب بين قسمين من الاهالي وهم منساقون بنفوذين اجنبيين ، مغلفين بصبغتين دينيتين صليبيتي (١) الصفات . ولقد كان تقاتل الاهالي هذا عبارة عن تحارب طويل مضى فيما بينهم ، عن تذابح مستمر عجيب الحركة في مجيئه وذهوبه الهستيري الدموي ، ولم تعرف البلاد مثله ابداً في حدة الفتك والتدمير . كان اكبر ممثل لجانب النفوذ التركي في هذا التطاحن رجل اسمه محمد جراني ، وعرف « بالاعسر » دفعه العثمانيون وسلحوه ، فظل يصول ويجول ، مبيداً مهشماً ، حتى أحرق عاصمة آكسوم القديمة . اما الجانب الاخر ، فقد امتازت بتمثيله سلسلة طويلة جاهمة من وفود المبشرين الاوروبيين ، الذين لم يكونوا ليثيروا المسحيين على المسلمين فحسب ، بل يدفعوا المسيحيين الى التهام بعضهم بعضاً . إن هذه سيرة التوسع الاستعماري ، لا تزال تتتابع في كل بلاد يرغب أسياد الدول الظالمة « وباباواتها » ان يضعوها تحت مكبس نعالهم . هي حالة قائمة حتى اليوم على أروع صورة في الصين والهند وسواها ، حيث ان لكل دولة

---

(١) نسبة الى الحروب الصليبية

مستعمرة عصابة من رؤساء المبشرين وكبارهم تعتمد عليهم.
تجد هؤلاء يقيمون فيها تحت رايات الكتب المقدسة، ولكن
وظائفهم هي في انهم وكلاء شركات رأسمالية، وجواسيس
لدول نهابة، ومثيرو قلاقل ومذابح همهم فيها ان يأكل الاهالي
المساكين بعضهم بعضاً لكي يعود اسيادهم الذين ارسلوهم
للتبشير باسماء المسيح والقديسين فيلتهمون جميع من يبقى،
ولكي «يبحبحوا» لهم من بعد اجرة مقبولة من ذهب المعدن
او ذهب التبجيل والامجاد الوهمية على ما ابدوه كمبشرين من
عبقرية الافساد. اجل، الى الان لاتزال كل بلاد مستعمرة
تعج بجلادي الشعوب الطامرين هؤلاء، الذين لايغررون
ويستعملون الاهلين فقط بل رهطاً عظيماً من صغار القساوسة
المستثمرين هم ايضاً لتحقيق مطامع اسيادهم واسياد اسيادهم

بينما كان محمد جرانى المذكور لا يترك حجراً على حجر
ولا روحاً في جسم انسان مما وممن يلقى في طريقه. كان المبشرون
يعملون على قلب الملك كاثوليكياً، على اقناعه بتحويل
جميع الأهالي عن معتقداتهم باستعمال السيف والنار معهم،
والاهالي من جراء هذا غارقون في جدل واضطهاد لبعضهم
البعض من اجل اليوم الذي يرونه حقيقاً باحياء عيد

الفصح فيه ! ومن نتائج كل هذا القتل والابادة ، المنبعثين عن تطاحن استعماري ، ان الأوباء والمجاعات كانت ترقص رقصتها المقهقهة عـــلى اكوام الجثث بينما الملك ساع حثيث السعي الى تحرير رأيه بان العيد المذكور يجب أن يجري بحسب الطقس الروماني. لقد هاله المبشرون الكاثوليكيون بما اخبروه عن فظاعة قيامة اليهم وحرارة نيران جحيمه ، فعمي عن ان يرى شيئاً من هذا الجحيم في بلاده ! بل تهالك في الخضوع لأولئك المبشرين على حساب شعبه ، واطلق العنان لولع اصبح عنده في مبادلة السفارات مع الفاتيكان . الذي لايقبل سفارته الا كشرط وبرهان عـلى دخول الحبشة في الطاعة ، ومع ملك البرتغال الجديد الذي بعث لعامله في « جوا » يأمره بارسال الجنود والمراكب حالا الى الحبشة ، لاجل ان يوطدوا فيها، مايسميه ورثاؤه الطبيعيون اليوم « بالامن العام » ، ولاجل ان يستطيع ملك الحبشة تمجيد اسم المسيح تحت رعايتهم .

لم تات الضربة الكبرى الا ساعـــة جاء « الجزويت » .

جاؤوا يفتحون امام اسيادهم طريقاً مذهبة سوداء الى بلاد العاج والذهب . لقد انتهت المساعي « الفسيحة » السابقة الى الفشل لعوامل لامجال لها هنا . غير انه في اواسط القرن

السادس عشر عاد البابا (وهو الان جوليوس الثالث) ، الى التفكير بتخليص ارواح اهل الحبشة من قبضة ابليس ، فسلط عليهم رهطاً من ابالسته . لقد ذكره بالاحباش اغناطيوس لويولا ، مؤسس « جمعية يسوع » ، مظهراً له استعداد رجاله لخدمته ، مقترحاً ارسال قبضة منهم . فذهبت ارسالية منهم في قيادة برتغالي اسمه « كونسالي رودريغيز » ، تحمل الى النجاشي كلوديوس كتابا من عاهل الفاتيكان ، وكتاباً آخر من حنا الثالث ، وهدايا مع طلب الطاعة . ثم على الاثر عين البابا للحبشة بطريركاً يدعى « نونيز باريتو » . الا ان كلوديوس كان على شيء من الذكاء فلم يقع في حبائل هذه الحملة ورفض طلباتهم . لقد تسامح معهم باثارة مناقشات من الجدل والتبشير الديني ، لكنه غم كثيراً عندما علم منهم بان ملك البرتغال سيتبعهم في العام التالي يبعثة أخرى واكبر من البعثة الراهنة .

ولما جاءت البعثة لم تهدأ ثانية عن التعكير بدس أوهامها الجديدة ، فاضطر كلوديوس الى كتابة مقالته « اعتراف الايمان » تثبيتاً للأوهام العتيقة ، الأخف ضرراً ، الأقل تسبباً بالتفرقة . لقد سمى كلوديوس شعبه في هذه المقالة « بالقطيع » ولكنه كان ينوي لقطيعه تذبيحاً أقل مما ينوي

اسياد القطعان الاوروبية . واخيراً، لما وجدت البعثة بانها لم تنجح في إخضاع الملك عن طريق التسلط على خياله بتعاليمها المخيفة ، رجعت بسرعة الى عادة حليمه المعروفة ، اخذت تنظم العصابات من اتباعها فتثير بواسطتهم الفتن الدامية وفي النهاية انضمت الى هذه العصابات علناً ومنذ اول ما وطئ قدمها أرض الحبشة كانت لا تني عن الالحاح على رؤسائها في اوروبا بارسال الجيوش لاخضاع الاهالي بسيطرتهم .

في هذه الاثناء كان الاتراك لايزالون يحتلون مدينة بعد اخرى على السواحل الحبشية . وقعت سوا كن بيدهم، فمصوع، فاركيكو وديبارو وسواها . وعلى حاشية هذه الاحداث كانت المجاعات ووافدات الاوباء والقحط والجفاف لاتزال تطع وشمها ولا تنقطع لها زيارة .

علم الاحباش من اتصالهم بالاوروبيين ان لديهم اشياء أرقى مما عندهم ، أفيد واكثر ضرراً معاً . فصارملوكهم بعد التجارب الاولى يحاولون تكثيف احتكاكهم باوروبا لا لاجل الحصول على إرساليات تبشيرية، بل على عمال وعلماء وصناعيين منتجين ممن يستطيعون الاستفادة منهم . لذلك طلب « ملك سجد » الى فيليب الثاني ان يرسل اليــه من يفهمون بصب

المدافع وصنع البارود والبندقيات وما شابه هذه اللعنات الاوروبية التي لا بد منها لمحاربة الاعداء . غير ان فيليب لم يتحف ملك سجد بهؤلاء العاملين ، بل ارسل بدلهم ثمية أخرى من اليسوعيين ! لكن الاحباش لم يهضموا هذا التلاعب ، فقتلوا ممن بدأ من اولئك الاباء بالمشاغبة حال وصولهم قدراً لا بأس به ، وطردوا البقية . الا انهم كانوا كأسنان التنين الاغريقي ، كلما قطع من نبتها تضاعف النبت ، او « كثعبان الهيدرا » كلما جز لها راس خرج مكانه رأسان . عند ذلك عمد الاحباش الى استعمال اساليب الاوروبيين مع الاوروبيين . . .

من هذه الاساليب البراعة في اظهار أمر واضمار أمر .

ومن ذلك ان الملك ارسل الى البابا كليمان الثامن والى فيليب الثالث الاسباني يعدهما بالاعتراف بالسيطرة الروحية للاول وبسوى ذلك مما كان يظنه ثانوياً ، ويطلب في نفس الوقت ان يرسلوا اليه طائفة من المبشرين شريطة ان تصحبهم ايضاً طائفة أخرى من الصنائعيين الماهرين ليعلموا « قطيعه » . انما مقابلته خبث الاوروبيين بتدليسه هذا وصل به حداً ربما جعله لايتبين معه مبلغ الضرر الذي ينطوي عليه ، او انه كان من الحمق بحيث يطلب التشرف بتوثيق اتصاله الشخصي معهم على

حساب شعبه . ذلك أنه تكرم فرجا ملك اسبانيا السفاكة الاستعماري كي يبعث الى بلاده مع القافلة جنوداً ايضاً واقترح عليه تزويج ابنه من ابنتـه ، ودعاه الى ايفاد ثلاث بوارج اسبانية ليخلص واياها مرفأ مصوع من الاتراك ولتحويلها الى مستوطنة اسبانية . قد يكون ان الملك الحبشي كان حسن النية بعيد النظرة بحيث اعتقد باستطاعته ان يجتذب الاسبان عن طريق هذه الاعطيات الى التصادم مع الاتراك ، فيضربهم بعضهم البعض ، متخلصاً منهم كلهم مرة واحدة اذ يصيب عصفورين بحجر . الا ان شيئاً من امثال هذه الحسابات لم يصدق ، بل جاءه بدل مجموعة طلبياته قسم منها لا غير . جاءته مرة اخرى بصفة طرود من اليسوعيين ! قدموا وفي فكرهم ان يؤسسوا في الحبشة اشياء شبيهة دواوين تفتيشهم الجهنمية ! كانوا يمحصون أحسن خطة تجعل البلاد تبيد وتفتح نفسها امام اسيادهم من دون ان تكبدهم حتى مصاريف الفتح . ألا انه ليس لملك حبشي ان يفوق جهابذة التلاعب الاوروبي ! .

ظل الحال على هذا المنوال زمناً طويلا . وطوال هذا الزمن كانت تجري روايات الاستعمار ، والاستعمار في ذلك الوقت ليس بعد غير طفل وديع . كانت دول اوروبا لاهم لها

الا تشجيع كل ما ومن يعمل على محو الاحباش من الوجود .
كان ارباب تلك الدول يسخون ببذل حق الالتجاء والايواء
للخونة من الاحباش المدفوعين منهم ويسرفون في الصرف
عليهم وفتح قصور الدعارة لهم على مثال ما اجرى الكاردينال
ريشليو مع أحد امرائهم اسمه « ساغا كريستوس » . فكان
حال اولئك المستعمرين الناشئين في ذلك حال احفادهم اليوم ،
الذين يضيفون خونة الشعوب المضطهدة ويبذلون لهم اللذات
ويمجدون اسماءهم ريثما يستعملوها في التغرير باهالي بلدانهم ،
على مثال ما تهب ايطاليا الان لقسم من الامراء العرب في
طرابلس شظايا جماجم ابنـــاء بلادهم العرب ودماء نسائهم
واطفالهم في كؤوس مترعة بأجود الخمور واجسام يتذوقون
بينها أطيب فنون الفسق ، وعلى امثال ما تؤدي دول الاستعمار
المتباينة جماعات الروس البيض وتحضرهم للغزوات الاتية ضد
الشعوب المظلومة او الحرة المسالمة . وكان مبشرو اولئك
المستعمرين الناشئين يتوصلون احياناً الى شبة استيلاء على البلاد ،
اذ امكنهم ان يسطوا عدة مرات على عدة ملوك ، فاغروهم على
ارتكاب أغرب أنواع التعذيب ضد شعبهم . من الأمثلة على
ذلك انهم دفعوا بملك الى ان يقطع لسان اخيه والسنة جميع من

لايدين بالكثلكة . من ثم جعلوه يرمي الناس في جرف هار
من قمة عالية ليس بينها وبين الوادي السحيق من تحتها سوى
الهواء وشيء كالحائط ، فلا يقف المغضوب عليهم عن السقوط
حتى يتلقاهم قعر الوادي . غير اننا ، نحن ابناء هذا الزمان
« المتمدن » ، قد لا نشعر بالاقشعرار من ذلك ، لان الفاشست
الطليان مثلا يرمون العرب من الطيارات ولا يكاد يشعر احد
بما يفعلون ! (الا من كان ذا احساس لطيف كالأمير شكيب
ارسلان طبعاً !) .

لم يكتف اليسوعيون بهذا الجزء الصغير مما صورناه من
اعمالهم ، بل هيجوا في يوم ما الملك سوسنيوس حتى جعلوه
يطرد جميع اليهود من البلاد ، فقضوا بذلك على تجارتها لان
القسم الاعظم منها كان بيدهم . وعندما كانوا يصنفون
مؤلفاتهم عن الحبشة ،كانوا ينهالون عليها بالاقذاع الفني
يحيطونه بنسيج من التلفيق هو مثال الوقاحة ، اذ لاشبيه له في
الافتراء والتشويه ، مما جعل ان ينحت من اثلتهم عليها حتى
العالم والرحالة الاستعماري« جايمس بروس اوف كينارد » .
وكأن همهم الوحيد كان في أن يستحثوا ، دون استراحة ،حكام
« جوا » وملوك اسبانيا على القدوم بجحافل تفتح البلاد مرة

واحدة مثل ذلك الفتح المريع الذي يحدثنا عنه التاريخ عندما يسرد علينا اخبار توسع اسبانيا والبرتغال في القارة الاميركية وسواها .

وقد كان من سوء اليسوعيين وبقية المبشرين ان أصبح شعب طيب كالاحباش يكرههم ويرى فيهم عنوان الموت . ارتعبوا منهم . لم يعودوا اذ يرون اليسوعي أو يتذكرونه يتصورون غير عصابات نهب وقرصان ، تنصب من خلفها وحدات جيوش برتغالية تبيد بالات نارية لم يكن لهم عهدبها . انهم خبروا شيئاً من فعل تلك الجيوش وتسرب اليهم الكثير عن طرقها الانتقامية . بل اصبح الاحباش اخيراً ، من جراء كيد المبشرين ، يكرهون حتى رؤية وجه الاجنبي الابيض . وكل هذا انتهى بهم الى تفضيل الاتراك الذين على غير دينهم على من يفنيهم باسم دينهم . لقد شعروا بان على الاتراك الف صلاة وسلام بالنسبة الى اليسوعيين . اذ ذاك اخذ الشعب في اصطيادهم صيد الفئران . وصار ملوكهم يفتشون عليهم تفتيشاً ، ويخرجونهم من البلاد خفية كلما مسكوا بهم لئلا يذهبون ضحية اعمالهم . ثم اتفقوا مع حكام مصوع وسواكن الاتراك على اغلاق ابواب ثغورهم في وجه كل وأي مبشر يحاول دخول البلاد

بعد طرد اليسوعيين حزن اسياد اوروبا ، ولاموهم بحجة اساءة التصرف السياسي . ثم ارسلوا اجناساً أخرى من السائمة الكهنوتية ، وكانوا في اغلب الاحيان من رهبان الكبوشيين . فاتفق الاحباش وحكام مصوع وسواكن أيضاً على هذه الهجمة الجديدة وقضوا عليها من قبل ان تقضي على البلاد كلها. وفي هذه الاثناء كان ارتياع اهالي الحبشة من هؤلاء الوافدين قد بلغ الى درجة انهم غرسوا في المدن الساحلية ، حتى وفي ثغر لحا اليمني ايضاً ، عيوناً تراقب كل مركب يمر بالمرافئ لئلا يكون من حاملات هذه الوافدة . لقد لاحظ الملك كذلك ضرورة الاتفاق مع قوات شرقية ضد هجمة القوات الغربية التي لابد من ان يكون قد أدرك بان ما رأى منها لم يكن بعد سوى طلائع . فارسل السفراء يحملون الهدايا الى السلطان في القسطنطينية ، والمغول الكبير في الهند ، وسعى الى التحالف مع عاهل « آضال » (مقاطعة على البحر الاحمر) الذي كان قد خانه قبلا ، ولكن الذي شعر النجاشي بانه مهما يكن من لؤمه فلا يبلغ عشر معشار المستعمرين البيض . هكذا تعلم الاحباش من هذه الدروس الاولى مبدءاً سياسياً يقول : « الحبشة للاحباش »

ومع هذا ، لم تقف جهود الاستعمار الناشئ محاولة اختراق اسوار الحبشة. بل كانت الارساليات الكبوشية تتسارق اليها بمختلف الحجج ، متخفية في شتى الازياء . وكان الفرنسيسكانيون وسواهم يتبعون خطاهم ، فلم ينقص الاحباش الا ان يعرفوا ضروب المبشرين البروتستانتيين ، الذين لم تكن تدرناتهم قد نمت او توصل بها التضخم بعد الى حد اجتياح الحبشة. ومن حسن ظن الحبشة ايضاً ان مختلف منظمات الاستعمار الاكليريكي التي كانت تزورها لم تكن تشاغب على البلاد فحسب ، بل كانت كذلك تدس وتكيد وتفني بعضها بعضاً . ذلك ان كل فرقة منهم كانت تمثل دولة في اوروبا تدس وتكيد وتعمل على افناء دولة الفرقة الاخرى !

في هذا الوقت اخذت عيون دول جديدة تتجه الى الحبشة. فان حاكم المستوطنات الهولاندية في الهند استطاع اختراق السدود وارسال هدية من الاجراس العظيمة الى الملك . وكانت تجارة البلاد قد قويت مع مصر وعن طريقها ، لان الاتراك ما عتموا أن سدوا أبواب التجارة على شطوط البحر الاحمر ، فاغتنم « دومايئيه » ، القنصل الفرنسي في القاهرة (وقع هذا في اواخر سني القرن السابع عشر واوائل الثامن

عشر) ، هذه الفرصة لتمهيد فتح الحبشة لمصلحة دولته . ولقد راحت هذه الدول الجديدة ، التي اخذت تحاول الظهور على المسرح الحبشي ، تستعمل كل وسيلة وحيلة لاكتساب طريقها اليه . ترسل أطباء لتطبيب الملك واهل بلاطه ، ومنجمين لينظروا في طوالعه ، ومشعوذين ليضحكوا على ذقنه ، وتجاراً مصريين يرشونه او يرشون سواه ممن لهم كلمة ونفوذ . وبرفق كل هذا كانوا يرسلون نفس البضاعة العتيقة — وانما مهربة : أعني اليسوعيين والضروب الاخرى من الغربان الدينيين ، يأتون في لباس اولئك التجار والأطباء والمشعوذين والمنجمين وما شابه .

لكن هذا التفنن وهذه الالعاب افادت كثيراً ، وذلك لثلاثة اسباب دائمة . الاول ، ان الاحباش اصبحوا يتوجسون خوفاً من كل اوروبي ، فلم يعودوا يؤخذون باحابيلهم وأرغموا ملوكهم على طردهم إن رأوهم يبدون تساهلا تجاههم . ثانياً ، ظلت البعثات تدس وتوشي بعضها البعض مما خفف شرها كثيراً . ثالثاً ، كان اسم البابا ، وقد اصبح يمثل في روع الاهالي صورة الشيطان بعينه ، مقروناً دائماً باسم تلك البعثات وتصرفاتها ، بل وبكل الاجانب البيض تقريباً . هذا وآخر

تجربة مـن هذا القبيل وقعت حوالي ١٧٥٢ ، حينما أرسل ثلاث رهبان فرنسيسكانيين ، فاخفقوا فيما سعوا اليه وطوتهم الرمال ذكراً ضائعاً ومحت آثارمواطئ اقدامهم .

بينما كان المبشرون يبعثون لغايات دول الاستعمار ويخفقون كان ياتي من هـــذه الدول ايضاً ، كل فترة واخرى ، رجال مدنيون . وعلى العموم كان مايلقاه المدنيون من النجاح اكثر من نصيب زملائهم عارضي الصليب ، اذ لم يكن الاحباش قد خبروا بعد كل شرهم ومبلغ دهائهم . لذلك كثيراً ما استطاعوا بذكائهم وخبثهم وعدم ادعائهم الاتصال مع الله ان يكتسبوا عطف الأهالي ونفوذاً قوياً على الملوك .

كان اولئك المدنيون إما يتوخون المغامرة اشباعاً لرغبات فردية كما يظهر في امر فرنسي اسمه «فيرميل»، وقد جاء الحبشة في أواخر القرن السادس عشر فاكتسب عطف الملك لمعرفته بمسائل الحرب والمدفعيات ، وتوصل الى تسنم قيادة جيوشه بانتصاراته ، واما لايطلبون الاجمع المعلومات ودرس البلاد، وإن امكن توثيق علاقـة التجارة بهم ، لادراكهم بان وقت رضوخ الحبشة لوطأة نعل دولهم لم يحن بعد . من هذا النوع بعثة « دورول » الفرنسي في أوائل القرن الثامن عشر ، التي

أرسلتها فرنسا ولقيت طلائعها ترحاباً من الحبشة ، لكن فنيت قبل الوصول اليها اذ كاد لها الرهبان الفرنسيسكان ومات اغلب من في ركابها . ومنه ايضاً رجل بارع من كشافة الاستعمار ، رجل من الذين يعجب بهم ، اذ هو ذكي ، شجاع ، وليس كالعاديين . هو « جايمس بروس اوف كينارد » ، الانكليزي المذكور آنفاً . جاء هذا الداهية الى الحبشة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، فاستطاع وحده ، بفضل اعاجيب مزاياه الخلقية والعلمية وانسانيته ، عدى عميق حيله السلسة ، ان يوثق صداقة قوية بينه وبين بعض امراء البلاد واميراتها وبواسطة هذه الصداقة امكنه ان يستحصل على ادق وافيد مجموعة من المعلومات . فعل ذلك بهدوء ودون لغط ، فلم يحس الا وقد عاد الى بلاده وفي جعبته ما يزود دولته بكل ما يلزمها للقيام بأسهل تسلط ممكن على بلاد الحبشة ، لقد تغلغل في اقاليم تلك البلاد المجهولة وفيما حولها من المناطق طوال خمس سنوات (١٧٦٨ — ١٧٧٣) ، ووضع حين رجوعه كتاباً في ستة اجزاء كبار ، هو غاية في القيمة العلمية والطرافة لوقته ، وسماه اسماً يدل عليه هو : « اسفار لاكتشاف منبع النيل » .

مثل هذا الرجل ينطوي على اخطر قوة استعمارية . مثله يجب الحسبان له كل حساب . ومثله ليس الا نتاجاً طبيعياً للخبرة الاستعمارية التي كانت لانكلترة دون غيرها . هذا ، وكما ان عهد الاستعمار في تاريخ البشرية لا ينقضي ليقوم على انقاضه عالم الاشتراكية الكاملة الا بتحطيم الامبراطورية البريطانية كذلك يتحقق هذا العالم الجديد بان يخدم قضيته اليوم رجال افذاذ كبروس المذكور ، رجال لا يجب ان يظلوا ناصبين انفسهم خدماً صغاراً لنظام اجتماعي ظالم ، لديمومة العذاب البشري .

من بعد جايمس بروس ظلت الحبشة في حالة غيبوبة داخلية ، منقطعاً عنها نوعاً سيل التدخل الاجنبي الناعم ، الى ان وافت ايام محمد علي والي مصر . ومنذ تلك الايام نستطيع ان نبدأ الكلام عن سير الاستعمار على تقرب من تشكله الحديث في ميدان الحبشة ، عن نظامه وروحه وحججه ومؤآمراته وحملاته واغتيالاته فيها . ان هذه المظاهر التي يتحلى بها قد تعاظمت وترقت ، وهي تتبع خطوة خطوة ذلك النحو السريع الذي يظهر في ادوار الرأسمالية الغربيه الثلاث : التجارية ، فالصناعية ، فالمالية الواسعة . ثم ان هذه المظاهر

اليوم تزداد في الاستعمار بروزاً كلما دنا اجل تلك الراسمالية ، التي تتعارض توسعاتها اكثر فاكثر ، التي تنسد في وجهها سبل النمو ، التي تزداد فتكاً كلما هرمت وقرب اجلها ، التي تهجم على موتها وتحفر قبرها كما هجمت على الذهب وحفرت الارضين من اجله . لقد اكتسحت الراسمالية العالم . وضعت الاسياد عـلى رؤوس الاهرامات المالية . ركبت الملايين والملايين بعبوديتها . لم يعد امامها مكان تضرب فيه غير الحبشة . هي ضربتها الاخيرة — كما سترى . ثم ينسدل الستار على رواية الاجيال ، رواية الهجوم على الذهب . . .



المستعمرون في بـــلاد غيرهم (١)

الان ــ بعد ان اطلعنا ، بصورة بسيطة ومستعجلة ، على شيء من بدايات الاستعمار كتوسع طغياني تجاه الحبشة ، على اعماله واساليبه الفتحية والاعتدائية والاندساسية السابقة ــ الان , فلنمض الى متابعة سيرته وهو ينمو ويحاول اختراق الحبشة ، متخذاً لنفسه شيئاً فشيئاً الشكل والصفات في التوسع الرأسمالي الحديث الذي ادركه وحـــدده لينين . انها لسيرة طريفة !

لم يأت اواخر القرن الماضي حتى كانت بريطانيا ، ملكة الشطرنج الاستعماري ، قد نشرت شمسها في كل مكان ،

---

(١) وضع موخراً ، كوسموبي ، سياسي حالي كان وزيراً مصرياً سابقاً هو حافظ عفيفي باشا كتاباً سماه « الانكليز في بلادهم » يقصد من ذلك الى تصنيفهم بحسب البلدان التي يسكنونها لا بحسب طبقاتهم كما يجب ان يكون التصنيف الوقتي الخالي من « الغش العلمي » اما نحن فنتكلم عن « المستعمرين في غير بلادهم » الذين يتابعون في غير بلادهم عرض الفصول الاخيرة من الروايات التي يمثلونها في بلادهم نفسها ...

لاتخلو قارة غير اوروبا من مستعمرات ومستوطنات ومحميات ودوائر نفوذ وامتيازات لها فيها . بل كانت بلدان كثيرة في اوروبا ايضاً خاضعة من نواح عديدة لنفوذ بريطانيا السياسي غير المباشر والاقتصادي المباشر . الا أن افريقيا كانت بعد لاتزال في اغلبها قارة مقفلة في وجهها . لم تمتد فيها شعلة المدنية الاستعمارية. بريطانية كانت اوسواها ، الى غير حواش مذرورة حولها ، شطوط لم يثبت فيها القدم كل الثبوت . هذه الحواشي وما يليها من الداخل القريب كانت لا تزال تمر في الدور الذي تستهدفها الهجمات التمهيدية . هجمات يقوم بها المكتشفون ، المبشرون (والعياذ بالله!) ، القناصل والمبعوثون ، الجواسيس ، التجار ، الجاليات العصابات والقرصان والمغامرون والمجرمون الهاربون الذين يرقون درجات البطولة بقدر مايقتلون من اهالي البلاد المقصودة وما ينهبون ويخلقون من المشاكل ، واخيراً الحملات العسكرية الصغيرة الاولى ، يقصد منها جس النبض ، ان لم يكن تأسيس الحكم . كل هذا كان يتخمر ويظهر في شغب متواصل وبثور « اخلالية » متفجرة . كانت تفتح هنا وهناك ، تختفي وتنبثق ، تنتشر وتقتصر ، فما كانها الا عوارض مرض مفاجئ على غاية من الخبث والتغلغل .

في غضون هذه الفترة قام احد المبشرين الانكليز ، احد خلفاء اليسوعيين في كل اخلاقهم وطبائعهم الا في تفوقه النفاقي عليهم ، برحلة لاكتشاف مجاهل الاعماق الافريقية . هو قديس الاستعمار البريطاني هذا الرحالة المستر دايفد ليفينغسون الذي مات في سنة ١٨٣٣ ، فجعلت سيرته قدوة الصلاح تلقن للناس واطفالهم كأنها مثل الجمال المسيحي الأعلى . ثم على اثر ليفينغسون جاء افريقيا قديس ثان من مشاهير هذا الصنف ، كي يدرس افضل طريقة لتمدين شعوبها بتطبيق كلمة مار بولس المأثورة عليهم : « ايها العبيد اطيعوا اسيادكم ؟ » وهو يقصد : « اطيعوا حكومة جلالته البريطانية (او حكومة جلالة سواه) — والا محقناكم كديدان لا تنعم ببهجة الروح » . ثم هذا الثاني هنري ستانلي ، اكتشف مجرى الكونغو وصحنه ، وقص اخبار مخاطراته ومكتشفاته (وكثير منها قيمة ايضاً ، وانما غاياتها الاستعمارية غير قيمة) في كتابه « عبر القارة المظلمة » .

مع صدور هذا الكتاب ، بدأت الغارات الاكتساحية ، غارات تنوير الحلك الافريقي بحرق اهلها في « قبيلات » الرأسمالية الغربية المشعشعة . فبرهن القديسان ورهطهما بذلك على ان ما ادعوه من الرغبة في نشر مدنية صوروها كالسكر والعسل

لاسعاد الهمج ، ما كان في الحقيقة الا خدمة مطامع قبضات من رجال الاموال المتضخمة، مـــن المتحكمين بدول همجية التمدن . وانهم — اي القديسان ورهطهما ومجديهم — ما كانوا الا مسخرين للابادة والنهب الفظيع والاجاعة والتقتيل اومساهمين في استثمار قارة برمتها واستعباد جميع من فيها انها حقاً لعقلية وحشية مغموسة بالدبس، عقلية هؤلاء « المتمدنين والمشتغلين بالتجارة المسيحية ! »

قال احد المؤرخين العامين في سنة ١٩٠٦ ، وهو من النوع الاعور بين المؤرخين: « كانت مكتشفات ستانلي . . . إشارة لبدء التنافس بين الدول الاوروبية في السباق من أجل ارض افريقيا (انه لا يذكر اهلها فوق ارضها، لان له عيناً واحدة فقط) (١) . كانت انكلترا، فرنسا ، والمانيا أشد المتزاحمات، وحصلن على حصص ضخمة . وفي المدة القصيرة التي تبلغ خمسة عشر عاماً أصبحت افريقيا تحكمها اوروبا . لم يبق من بلدانها محتفظاً باستقلاله عند نهاية القرن التاسع عشر سوى الحبشة، مراكش وجمهورية العبدان في ليبيريا » . ثم في سنة ١٩٣٤ قال مؤرخ سياسي هو هامبدن جاكسون ، الذي يكثر

(١) الكلام التعليقي الذي يورد بين الهلالين اثناء الكلام المستشهد به يكون للمؤلف اما العبرة المستشهد بها فمن « التاريخ العام » لمايرس — ص ٧٢٧

الغمز والاغماض بعينه ولسانه ،في كتابه« الدنيا عقب الحرب»:
« لم تنتبه امم اوروبا الصناعية ، الى قابليات القارة (الافريقية)
كنبع لمواد خام الا في الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر .
وعند ذاك ابتدأت هجمة انتهاش افريقيا ، التي انتهت باخضاع
كل اقليم فيها من مراكش حتى الرأس للحكم الابيض —
باستثنائين تافهين هما ليبريا والحبشة اللتين بقيتا مستقلتين
بالاسم . لقد حصلت كمية كبيرة من الكلام حول عبء
الرجل الابيض ومسؤوليته في جلب اللطف والنور الى افريقيا
الحالكة ، لكن المحرك الواقعي كان طلب استثمار رجال افريقيا
وموادها الخام من اجل المصالح الاوروبية».

أما رجال السياسة فقد اظهروا ضمائرهم بقوالب قوية
أقوى من قوالب المبشرين والمؤرخين وأقرب الى مفهوم لينين
مع الفارق في النية وطريقة التعبير طبعاً ! . . يقول المسيو
سارو ، الوزير الفرنسي وصاحب المشاريع الاستعبادية
الواسعة ، من تصريح له : « فرنسا (١) . . . انها يجب ان
تطلب من مستعمراتها ومحمياتها رجالا للجيش ، اموالا لتخفيف
عبء المصاريف عن ميزانيتها ، مواداً خاماً ومنتوجات
لصناعتها وتجارتها ، طعاماً ومبادلة » (١) . وقد نفذ ارباب

---

(١) المقصود من لفظه « فرنسا » الواردة على لسان حضرة الوزير هو طبعاً الطبقة

الصناعة والتجارة الفرنسيين جميع مقترحات وزيرهم هذه، وكانت رعايتهم للبند الاول في القائمة عظيمة، اذ جمعوا مليوني جندي (حسب تقارير دولتهم) من المستعمرات وقذفوا بهم في اتون الحرب الكبرى. ومن هذا القبيل ايضاً ان الحاكم العام للكونغو البلجيكي اصدر في سنة ١٩٠٦ منشوراً صرح فيه عا يلي: «انه بواسطة كسر التأثير والنفوذ اللذين يتمتع بهما الزعيم من الاهلين، تنتهي بنا هذه السياسة الى وقوف الدولة وجهاً لوجه امام شعب قطعت كل صلاته الاجتماعية، ولم تعد له اية علاقة بالارض». اي ان تلك الواسطة الجميلة — كما اراد الحاكم منها — تقدم كل انسان في

الرأسمالية الحاكمة في فرنسا لا شعبها. ان امثال حضرة الوزير يستعملون اللفظة عادة بمعنيين معنى علني يخاطبون به الشعب ويوهمونه انه هو المقصود منها ومعنى ضمني واقعي تتفاهم به الطبقة المالية الحاكمة وتدرك منه انها هي المقصود الحقيقي بها لان الاعمال والمشاريع والمصالح المعلقة باللفظة تخص تلك الطبقة وتعود اليها لا الى الشعب الذي يريدون ان يعتقد بانها تعود اليه ليسهل اقتياده الى استعمارهم. ان هذا الاسلوب الاحتيالي، المبطن، المتناقض في التعبير، «البرجوازي» يدلك على مبلغ الاحتيال والتناقض الذي يقوم عليه نظامهم الاجتماعي البالي الكاذب المعدوم من اثر حقيقي لاي خلق شريف صريح ولاية خطة واضحة مستقيمة.

المستعمرات عبداً مملوكاً لاصحاب الدولة البلجيكية . والان هاك قرار عبقري افصح مـــن كل ما تقدم : اعلى المؤتمر الاستعماري الالماني المنعقد في غضون سنة ١٩٠٢ المادة التالية بخصوص السياسة الافريقية : « يعتقد المؤتمر الاستعماري الالماني بان من الضروري ، وذلك في سبيل مصالح الوطن (!) الاقتصادية، جعل الوطن مستقلا عن الاجانب في استيراد المواد الخام وخلق اسواق مضمونة على اكثر ما يمكن لتصريف المصنوعات الالمانية فيها . ان المستعمرات الالمانية في المستقبل يجب ان تقوم بهذا الدور المزدوج حتى ولو سخر الاهالي للعمل في المنشات العامة والمشاريع الزراعية ... » (١) .

مثل هذه التصريحات التي يسفر فيها المستعمرون عن نياتهم الحقيقية، عن ما يضمرون من استحلال كل شي، من فصم كل الروابط الانسانية ، مـن القضاء المبرم على كل شعب تتناوله يدهم الناعمة ، من عدم التربص امام مانع ما او فكرة واحدة من فكرات الضمير الاجتماعي او شعرة واحدة مـن احساس احترام الحياة والكرامـة والعمل البشري — مثلها لكثير لا مكان هنا لجمع وعد أزيد مما تقدم منها ، او لتحليل فظاعات

(١) كل هذه الاقوال مأخوذة من كتاب « الدنيا عقب الحرب » — ص ٣٥٨

منطوياتها ومرمياتها بتفصيل وتدقيق . ألا ان روائحها تفوح بما يكفي مؤونة التحليل والتفسير! هذا ، ولكل دولة مستعمرة تصريحاتها التي تقولب فيهـا نواياها ومطالبها وقواعدها « النظرية » في اجراء استعمارهـا . للطليان والاميركيين والهولانديين مثلما للفرنسيين والبلجيكيين والالمان قدر غريب من هذا النباح الاستعماري المتكالب . غيران الانكليز اكثرهم وأبرعهم جميعاً تخطيطاً لسبل استعبادهم الشعوب ، وهم على العموم أقل عواءً واكلب عضات كلبة – على حد تشبيه احدهم.

إلا ان هناك مفكراً نزيهاً يجمع لك الحاصل من هذا الكلام – حاصل فتوحات المبشرين واخبـار المؤرخين وخطابات السياسيين المبجلين – هو الاستاذ جوليان هكسلي البيولوجي ، ابن العلامة توماس هكسلي الكبير ، الذي جاء في مؤلفه « منظر افريقيا » ما يلي من حاصل الجمع البسيط :

« في مدة اربع سنوات فقط قتل من الاهالي الافريقيين او مات منهم بالامراض بسبب حرب البيض اكثر مما كان يقع من ذلك في اربعين سنة – وربما في قرن – من حروب العبدان الابتدائية القديمة »! فتأمل ...

وهكذا نشاهد في هذا الايجاز المتسرع للتحرك الاستعماري

في قارة واحدة عبر نصف قرن فقط ، يمتد من ليفنغستون حتى هكسلي فصلا واحداً فقط ايضاً من فصول الهجوم على الذهب في شكله الحديث . هي لمحة عامة من اسباب ونتائج الدخول الاستعماري الى افريقيا. واما كيف تم هذا الدخول كما تم من قبل في آسيا وسواها ، وكيف كان يتلوى الداخلون بين اراضيهـا واهاليها كالديدان الفاتكة ، مهرئين ، مسممين ، مشققين ، فهذا ما سنرى مثلا عليه ونحن ندرس الطرق العلمية التي يتبعها في دخوله الى الحبشة . ان مسيرنا مع الاستعمار في الحبشة كاف لاعطائنا فكرة مجملة عن مسيره في كل مكان . هذا ، مع العلم بانه في مرحلته الحبشية لا يلعب غير دوره التمهيدي الحلو ، الدور الذي يمثله رجل كليفنغستون اوستانلي ، واحدهما يلاعب سلسلة ساعته البراقــه امام شيوخ قبائل العبدان ، او يوزع عليهم بدراً من الخرز الملون ، مكشراً اثناء ذلك عن بسمة صفراوية لقسيس من المولعين بذكر الروح وشرب الوسكي . والان أطل التأمل قليلا :

ooo

تركنا خبر الفتوحات الحبشية في نهاية الفصل الثاني عند ذكر محمد علي . لقد جهز اليها هذا « الارناؤوطي » القاسي

الذكي حملتين لبسط السيطرة العثمانية المصرية عليها ، فانكسرتا جميعاً . كانت معاكسات الدول الاوروبية الخفية من جملة اسباب فشله . اراد الحـــاق الحبشة بممتلكاته ذلك الالحاق الفريد ، ذي الاساليب المركبة من روح جنكيزخانية ومن نوع الهمجية المزوقة في فتوحات الامبراطورية البريطانية ، الذي سبق واجراه على السودان . لكن الدول الاوروبية لم تبغ ما اراد ، واللقمات تتهاجم عليها الذئاب !

دحر حملة محمد علي الثانية فتى حبشي شجاع من ابناء الشعب كان يدعى « كاسا » . لقد كان هـذا الفتى على كثير من الاخلاق القبائلية التي تحلت باصباغ عزيزية شرسة اثناء حكمه فيما بعد ، ولكنه كان بطلا جميلا نبيلا اذا ما قيس برجال الاستعمار . فانه ليس من رأسمالي انكليزي مثلا ، اوجنرال افرنسي مثلا ، او دكتاتور الماني او ايطالي مثلا ثالثاً، يستطيع ان يظهر جزءاً من الشهامة الفطرية الساذجة التي تحلى بها هذا الطاغية البدوي. بل ليس لاولئك السميكي الجماجم حتى نعمة ان يحلموا حلماً بمثلها من شهامة . واذا ما صدف وسمعوا بقصة « كاسا » « وطاواباتش » وهم على موائد خمارهم او موائد تقسيم العالم فيما بينهم ، لا يمكنهم ان ياتوا غير ضحكات حصانية خشنة ،

يعذب امامها صوت النهيق . اما القصة التي تخرج من صدورهم « المخسة » مثل هذه القهقهات ، فهي ان موسى باشا ابن محمد علي وقائد حملته الثانية كسر احد جيوس الحبشة ، واسر قائدتها الاميرة الحسناء طاوباتش ، وقد كان عمرها وقتذاك خمسة عشر عاماً ، عازماً على اضافتها الى حريمه . غير ان « كاسا » المذكور ما لبث ان ظهر بفرقه ، فدحر جيش موسى باشا وخلص الاميرة . كانت في ساعة المعركة والاندحار تحت حراسة رجلين غليظين يراودانها عن نفسها بعنف محاولين الافتعال فيها ، ففلتت من بينهما واستلت من صدرها خنجراً مسموماً طعنت به نفسها . اذ ذاك ظهر كاسا منتصراً ، فرآها ، عشقها لاول مرة ، وانكب على صدرها يمتص من جرحها فيه ما يغيض في جسمها من المسموم ، مخلصاً بذلك جوهرة انسانية رائعة من الموت . وكانت له فيما بعد خير زوجة يمكن ان تكون .

في ايام كاسا هذا ابتدأ الاستعمار يغرز ابره في الحبشة غرزاً جدياً . قبل ذلك ، وبعد رحلات بروس السابق الذكر ، اخذ السياح والكشافة من رجال الدين والسياسة والمشاغبة يترددون على البلاد بكثرة . كان اهمهم المطران « جوبات »

الذي جاءها في اواسط القرن الماضي ومعه جوقة من المبشرين الالمان الذين ما لبث الاحباش حتى طردوهم ، ثم الفيكونت فالانتيا وهنري سالت اللذين وحدا جهود الدول الاستعمارية تحت قيادة بريطانيا . كذلك استطاعت جماعة من الفرنسيسكان ان تؤسس لها ارسالية في البلاد بمساعدة احد الامراء الجهلاء وجاء البلاد ايضاً اناس في « ما كياج » العلماء والباحثين: منهم الماني اسمه روبل ، وبعض الفرنسيين ، وسواهم .

لكن رؤوس الخبائث كانوا المبعوثين الرسميين ، امثال فالانتيا وسالت المذكورين ورجل اسمه « هاريس » أرسل في سنة ١٨٤١ كسفير من قبل جلالتها البريطانية ، وانكليزي آخر اسمه « و . شيشيلي بلودن » بقي في الحبشة خمسة اعوام وجلب معه الى انكلترا في نهايتها تقارير وافية ، كان همه فيها توجيه نظر اللورد بالمرستون بالحاح الى وجوب الاهتمام بجعل الحبشة سوقاً للبضائع الانكليزية « الفبركية » . استطاع بلودن هذا ان يجعل من امراء الحبشة احزاباً متطاحنة ، فعين لمقدرته الافادية هذه ، التي ما لبثت ان ظهرت بشكل أبرع ، قنصلا في مصوع ، ومـــن ثم في الحبشة . اما تجلي مقدرته المشار اليها ، فقد كان في تغريره باقوى امراء البلاد وقتئذ ، هو

« الرأس علي » : للتوقيع على معاهـــدة تجارية ما عتمت ان استعملتها حكومة جلالتها الجليلة لشد حملة سياسية وعسكرية على البلاد ، فظلت تفتك بهـا طوال اعوام وتعيد تمثيل جميع الفظائع القديمة التي مرت على رأس الحبشة ، حتى انتهى الامر الى حصار ما كدالا ووقوعها في يد الانكليز . ان هذه الحملة هي الهجمة الاستعمارية الناضجة الاولى « التي خبرتها الحبشة . انها كانت اول مذبحة مخططة ومنظمة لاجل ترويج بضائع اصحاب المصانع وايجاد ميادين استثمارية جديدة لهم في مملكة النجاشي .

عام ١٨٥٥ اعتلى كاسا العرش باسم « تيوادروس الثاني ». وحالما سمع بلودن ، القنصل البريطاني في مصوع ، بذلك ، ترك مركزه في الحال باذن من « المكتب الاجنبي » ملتحقاً بمعسكر كاسا ، حيث وجد بانه قد سبقـه الى « خدمة » الملك صديق له من عمال الامبراطورية اسمه ج . ب . بل . ولم يكن بل قد سبقه في المهمة فحسب ، بل وزاد عليه بان تزوج مـن سيدة حبشية نبيلة ، مظهراً كل تودد وتحبب لبلاد امرأته على نفس ما يظهر الحاج عبدالله فلبي اليوم من كل اخلاص عميق لدينه الوهابي الجديد ، ومثل ما تبدي المس سلايد ايضاً من غرامها

المشعشع المحرق بتعاليم غاندي ، آخر انبياء الهند والعالم .

في عهد تيوادروس هذا عاد المبشرون الدينيون من كل صنف يتقاطرون على الحبشة ، فانتشروا في كل مكان ، كأنما كل ما وقع لهم طوال قرون لم يردعهم عن التفشي والسريان . وتفسير ذلك انهم كانوا إفرازاً طبيعياً لحقبة التطور الرأسمالي ، كما كانوا افرازاً طبعياً ايضاً لحقبة الفتوحات الملوكية والبابوية . واذ كانت الحقبة الرأسمالية عهد نظام اقتصادي تاريخي ، وبالتالي لابد من مجيئه وسيره ومرور البشرية فيه ، كذلك كانت افرازاته ضربات لا تجتنب ولا تستأصل الا مع نضوج التطور بموافاة الحقبة التي ترثها وتمحي آثارها . مثال تصويري على ذلك : ان داء الجدري لم يكن للانسان مفر منه . ولكن لما وصل التطور العلمي الى زمن اكتشف فيه مصل التطعيم ضده عند ذلك استطاع الناس ان يتخلصوا من هذا الداء . كذلك المبشرون كانوا وباء وبيلا ولما يأت الوقت الذي اخترع فيه مصل يبيد ميكروبهم ومولده ، لان النظام الذي يفرزهم كان في ابان حياته ولم ينتج ضده بعد . لم يكن نظام الفوضوية الفردية من اقطاعية ورأسمالية ، قد توصل الى حدوده القصوى . لم يكن كارل ماركس وفردريخ انجلز قد نطقا بحكم التاريخ وعينا

الحدود بين اقليمه العتيق واقليمه الجديد بعد . لم يكن اينين قد جاء باكتشافه طعماً عملياً فتاكاً يجعل النظام الفاسد بقتله فساده حتماً ، ولم يكن اتحاد الجمهوريات السوفياتية قد ظهر بعد كنتيجة اجتماعية واجبة لكل هذا التفاعل ، كبرهان ساطع فاتن على حينونة وقت الانتقـــال من حقبة الى حقبة ، من حقبة مبشري وعمال الرأسماليين المفسدين الى زمن المعلمين الاشتراكيين الشعبيين المطهرين ، من الاستعمار والفتح الى تحرير الشعوب والتعاون .

وفي عهد تيوادروس صعد الى المسرح نوع جديد من المبشرين . ان تغيرات البيئة وحاجات التطور تظهر دائماً تشكلات جديدة وفلتات غريبة في اجناس الحيوان . اما هذا النوع او الفلتة الجديدة في «الانسان المستعمر» فاسمه «المبشرون المدنيون» . لقد رأت الدول كراهــة الاحباش لاصحاب الطيالس السوداء والملونة من الناعقين باديانها والعاملين على بسط سيادتها ، وبان الاهلــين لا يرضون ملكهم محاطاً بهذه الاسراب ، فلفقت تلك الدول هذا النوع المدني الجديد الذي لا يلبس الطيالس ، وارسلتهم ليحيطوا بالبــلاط وبالشيوخ والزعماء وهم خالعون ستورهم . ان الدول الاستعمارية تتمسك

جداً بمن يستعملون الالهة في مصلحة اربابها، حتى ولو استعملوهم بدون الازياء الضرورية . خذ مثلا على هذا التعلق الشديد بهم ما حصل مؤخراً في تركيا . فان هذه البلاد الناهضة امرت حكومتها القوية كل الرجال الدينيين بعدم استعمال ملابسهم، مما يضعف من نفوذهم كثيراً اذ ان للملابس تاثيراً لا ينكر على العقول . وعلى اثر هذا المنع امتعض غربان الاستعمار، لانهم اصبحوا وكأنهم قد قصت جوانحم، فقام بعضهم يشدون على الرحيل عن البلاد التي لم تهضمهم . غير ان قسوس انكلترا واميركا وسواهما من متصنعي البروتستانتية وفروعها أرخوا أذيالهم اتباعاً لنص الحكمة بان « مالايدرك كله لا يترك جله ». اما الكاثوليك من المبشرين، فقد احتاروا بامرهم وكان اغلب الراحلين منهم، اذ انهم شعروا بان الضربة قضت عليهم. غير ان مستخدمتهم الكبرى، اي فرنسا، وسعت عقلها لدرجة ان جاءت برقيات آخر ساعة تقول : « اذاعت سفارة فرنسا على الصحف بلاغاً مؤداه ان معظم « راهبات المحبة » (!!!)، اللائي كن سيغادرن تركيا بسبب « قانون الملابس الدينية »، قررن بناء على تدخلها البقاء في البلاد، وان يخضعن للقانون المشار اليه الخ . . . » هذا المثل نضربه على تعلق الدول المستعمرة

بخادميها كيفما كان امر لباسهم ، دينياً او مدنياً . وبعد التأمل يجد الانسان بان الاستعمار يمكن ان يجري بدون بزات كهنوتية .

وفي عهد تيوادروس اخذت كل اصناف هذه الفوائك الاستعمارية التي عددناها تتحرك كالايون والايلكترون . تسربوا الى كل ناحية من حياة الحبشة . كانو يتوغلون في درجات الدولة العليا ودرجات الاعمال الصغرى . حقاً كانوا يعملون وينتجون ، والعمل والانتاج اسمى ما تتوصل اليه ميزات الانسان . لكن العمل والانتاج للغاية التي كان يرمي اليها من ورائهم ، غاية قتل شعب آمن برمته ، جعلتهم وعملهم وانتاجهم شيئاً ابشع من الموت وتمثالا للحقارة . كانوا يفتحون الطرق ، لكن تمهيداً لمرور جيوش الاستعمار الاتية خلفهم لاخدمة للاحباش ولا حبى لملكهم كما قد يكون في الامكان ان يتوهم . كانوا « يفبركون » السلاح ، لكن ليبيد الاحباش بعضهم بعضاً به لا ليتخلصوا من المستعمرين . كانوا يتاجرون ، لكن لمصلحة شركات اجنبية استثمارية لا لمصلحة شعب مظلوم . كانوا يعلمون ، يعلمون الكذب والخرافة المسممة بكل وقاحة ونفاق لئيم . كانوا يمثلون عنصر الفخ في كل دولة جشعة ، حتى

ان امارة دوق « سا كس - كوبرج » أرسلت له وكيلين من المبشرين المدنيين ليجمعا له عرق ودم شعب منهوك بحجة انهما لا يجمعان له سوى الطيور الغريبة ! وكانوا ، اولئك الحمائم الثعبانية ، يتعدون عن الاهالي ويحتقرونهم . يسكنون مع عائـــلاتهم في مستوطنات متصلفة ، مرفهة ، تقيّ تكبراً وامتهاناً لا حساسات شعب يعيشون عليه بالامتصاص . انهم لا يزالون يعيشون كذلك في الشرق المستعبد جميعاً — لا في الحبشة وحدها يعيشون طفليات من الحرام ان تبقى آفة حية تنخر في اجسام الشعوب المظلومة .

وفي غضون هذا العهد ايضاً كان رجال انكلترا الكثيرون من على الشاكلة التي اصبحنا نعرفها ، ومن ابرعهم الماجور « ريس » المسبوق الذكر ، مندسين هنا وهناك بين القبائل وحاشيات الامراء يمدونهم بالسلاح والاعتدة والاموال ليحاربوا بعضهم بعضاً . وفي هـــذا نجد ان سياسة الانكليز اختلفت عن سابقيهم ، الذين ما كانوا يمدون الاحباش في غالب الامر بغير المبشرين ، دون شي آخر . كنت ترى القنصل البريطاني ، والمكتب الاجنبي في لندن ، او حكومة الهند ، اوغير هـذه مـن الهيئات والشخصيات القائمة يبث سموم الاستعمار

البريطاني، ترسل كل منها رجلا من عما لها الى ناحية من النواحي. هنا امير يتحرك في بطانته انكليزي لطيف، متواضع، حبوب. يخدم الامير بأمانة ويحمسه على مقاتلة امير ثان . وعند هذا الثاني انكليزي آخر مزدان بنفس الشمائل الحلوة، ويخدمه على نفس الاسلوب. وعلى الغالب نجد ان كل فتان من اولئك العقارب يمثل شركة او شركات ويروج لتجارة معينة، وقد يكون غيره ايضاً يمثل عين الشركة ويروج ذات التجارة. فضلا عن سواهما . وكانت تصاحب كل هذه الاشياء امدادات بالاموال والتعليمات من دولة جلالتها الجليلة .

وبين جوقة « المايسترو » (كلمة طليانية تعني رئيس الفرقة الموسيقية) البريطاني كان يعج مطبلون ومزمرون، دقاقو دفوف وصنوج، « فيولونشيليون » « وكمنجاتيون » تابعون لدول اخرى، فيدقون له ولانفسهم حسب جميع « نوطات » الاستعمار . من ذلك أنه حوالي ١٨٦٠ تسبب القسم الفرنسي من اولئك الموسيقيين باجراء اول تدخل ايجابي وعلني من قبل فرنسا في شوؤن البلاد الداخلية . جعلت هذه الدولة عمالها ورهبانها يدفعون باحمق اسمه « آجاو » الى التمرد ، ومدوه بالسلاح والملقنين . أعلنوه ملكاً على الحبشة ، واعلن هو من

جانبه اعتناقه الكثلكة وصداقته لفرنسا ولامبراطورها ، « الجنتلمان » الطويل الشنبات . ثم جعلوا آجاو هذا يهبهم مدينة « زولا »(هي « آدوليس » القديمة) وجزيرة « ديسي » عند مدخل خليج آنسلي ، وغير ذلك من الجزر والاراضي والامتيازات . كان المفتون يجود على فرنسا مثلما يجود الشيخ تاج الدين الحسيني السوري عليها اليوم . ثم لم يلبث ان استطار شر آجاو هذا ، وعظمت فتنته في البلاد . ارسل الى نابليون الثالث بعثة تحمل اليه الهدايا ، وتطلب منه المعونة والتحالف على اخضاع جميع الحبشة لحكمهما معاً فقبل الفرنسيون هذا الاقتراح الكريم ، ولكنهم لم يرسلوا سوى بارجة واحدة ، وذلك لحماية الاملاك التي سلبوها باستعمال الشقي آجاو وحدها ، ممتنعين عن ارسال ماعداها لعدم تثبتهم من ان مغامرة صاحبهم رابحة في نهاية المرحلة . غير انهم بعد ارسال البارجة اخذوا يساومونه على اراضي اخرى ، واعدينه وايديهم على قلوبهم كعنوان على صدقهم ، بانهم سيمدونه هذه المرة بافضل من ذي قبل ! لكن نهاية الرواية كانت في ان الملك مسك باجاو وقتله شر قتلة ، انما ، وللاسف ! بعد ان بلعت فرنسا غنيمتها .

هذه الرواية الفرنسية تصح ان تكون عنوان السذاجة فيما اذا قابلناها بالمهزلة الثالثة التي مثلتها بريطانيا، وهي «مايسترو» المستعمرين كما تقدم. انها لمهزلة اشبه بمأساة «عطيل» الخالدة لاتكاد تفرق عنها الا ببعض التحريف القليل. اما الادوار، فهاك توزيعها: يقوم بدور «عطيل» الملك توادروس، وبدور «ديدمونة» الملكة فيكتوريا، وبدور العذول الواشي حكومة جلالتها بقرصانها العصريين. اما التحريف، فهو في ان المسكينة ديدمونة شكسبير الحقيقية، ديدمونة الحب والاخلاص، راحت ضحية وكانت عفيفة بريئة من التهمة، وهذا شيء من الحرام ان يقال عن الديدمونة الثانية، ديدمونة السياسة الاستعمار. والان تعال نقرأ هذه الدراما الرهيبة.

امتازت مدة حكم توادروس بتقوي النفوذ الاجنبي في الحبشة. لقد كان الاستعمار يقبض اكثر فاكثر على ابوابها ومرافقها الحيوية. يكتسح البحر الاحمر مدينة بعد مدينة، منطقة بعد منطقة. يطرد منها الاتراك، يغلق أقفاله ويشد برغي انياره على رقاب الاهالي. وكان خديويو مصر الافذاذ يضمون اقاليم السودان واحداً اثر آخر ببذل اموال وارواح الشعب المصري، وذلك لـــكي يقدموا تلك الاقاليم هدايا

الأهلية وبذر بذور خفية لئيمة تنبت التذابح المتقابل جرياً على ما هو معروف من امرهم حيثما يحطون رحلهم المبروك !

وعندما رأت بريطانيا ، بعد الطبخ الطويل على الشكل المتقدم ، بان الوقت قد جاء ، عادت فذكرت نفسها بكتاب توادروس . ارسلت له جواباً وقحاً مهيناً بواسطة قنصلها « كامرون » ، وأمرت هذا بان يخلي الحبشة ويرجع الى مصوع حالا فجاء القنصل الى توادروس حزيناً حزن لورانس على مأساة العرب ، يكشف له عن جواب حكومة صاحبة الجلالة ، وملمحاً له بان عملها لايليق به السكوت عنه ، قاصد بذلك تحريك الملك الى عمل يكون حجة بيد مستأجريه . لقد استفز بغيرته المتصنعة حده توادروس ، فثارت في هذا نزوات اهتياجه الفطرية . لم يدع كامرون يفلت منه . بل سجنه مع الرسول الذي حمل الكتاب وطائفة من رجاله ، بينهم كاتب (اقصد كويتباً من ناشري الاكاذيب) كان همه ان يذيع عن الحبشة وملكها قصصاً بروبغندية مشينة تهيج « الانكليز في بلادهم » على قوم مسالمين في غير بلادهم . وفي سجن هؤلاء الانفار رأت بريطانيا سنوح فرصتها . قامت في الحال بتجهيز حملة شديدة لتستغل بها دفعة واحدة حجتها فيها دفعت النجاشي اليه

من حبس رعاياها وفيما اوصلت اليه البلاد من اضطراب وخور، عازمة على ان تثبت في قلب الحبشة قدماً لا تتزحزح.

في ٣ يناير، ١٨٦٨ كانت الحملة معدة من قائدها السر «روبرت نابير» ومن جيش يؤلفه ٣٢،٠٠٠ محارب ليس بينهم سوى ٤،٠٠٠ بريطاني، وبقيته من الاهالي. فتأمل!... اما جيش توادروس فقد كان ٣،٠٠٠ جندياً رديئي التسلح والتأهب للغاية، وبضعة آلاف آخرين من رجال القبائل لا يحملون سوى الرماح! ثم وقعت بين الطرفين معركة «آدوجي»، التي يصف انكسار الاحباش فيها السر «بودج» المتصنع الحياد بقوله: كان هؤلا (اي الاحباش) تحصدهم النيران البريطانية صفوفاً صفوفاً، الا ان من لم يقض عليهم كانوا يعيدون الكرمرة بعد اخرى. ولما وافى الليل كانت فلول تيوادروس الباقية من جهود رجاله الشجعان الرائعين تتراجع بنظام حسن، هازجين في تقهقرهم. (تاريخ اثيوبيا — ص ٥١١، ٥ مجلد ٢).

أرسل «نابير» الى تيوادروس بعد المعركة يطلب منه الاستسلام الى ادارة الملكة فيكتوريا (ديدمونة لا تنسى)! فاجابه هذا برسالة ولد كبير، مؤثرة للغاية وردت فيها

وسيادتها . ان بريطانيا تحسب حساب كل صغيرة .

في هذا الوقت كانت بريطانيا تحرك لعبة تحضيرية . تهيء ضربتها لتقع على رأس فريسة ضعيفة . وكيف يتهيأ لها ذلك الا باثارة وإدامة الفتن الداخلية في البلاد وحولها ، الا بانهاك قوى الحبشة بمنازعات متواصلة عليها بين الدول المستعمرة ، وبين تلك الدول وبين الحبشة ، وبين هذه وبين نفسها ، وبينها وبين اهالي البلدان المتاخمة الخاضعة لاستعمارها ؟ ها أنذا اقدم لك فيما يلي خطفات مقتطفة من هذه الشبكات التي نشرتها الرتيلاء البريطانية حول فريستها الحبشية :

الاب ستيلا ايطالي أسكن نفسه بين قبائل « البوغوس » منذ ١٨٥٣ كلف نفسه هذه المشقة ليعمدهم باسم الاب والابن والروح القدس ، لينشيء بينهم الكنائس ، ليثيرهم على الفتن ، وليطلبوا في النهاية حماية ايطاليا ! لكن قنصل انكلترا لايحلم بحماية ايطاليا ، ويجتذب اليه قنصل فرنسا ، الذي تخالف احلامه آنفاً ما يراه الاب ستيلا ثم يدفع القنصل الاول بالقنصل الثاني الى ان يلعب الدور الظاهر في اثارة القبائل الاسلامية على اقوام هذا الأب . عند ذلك أمعن الطرفان (اقصد الاتباع من الاهالي طبعاً) في ابادة بعضها حتى انهزم

الاب ستيلا بانهزام جماعته . ثم عاد القنصل البريطاني ، الراكب القنصل الفرنسي ، الى التخلص من القبائل الاسلامية التي كانت في يده بان جعلها تقتل زعيمها الذي كانوا يدفعون له . ومن ثم ، بعد مقتل الزعيم ، جعلوا قومه يلتهون بقتل بعضهم البعض ومثل هذه الحاشية الصغيرة على الرواية الرئيسية كانت تحصل وقتذاك في كل البلاد ، وكان المفتنون الرئيسيون فيها دائماً وكلاء صاحبة الجلالة الامبراطورية . ألا انه ليس من مهارة كمهارتهم في غزل شباك الفتن واعداد جو المؤامرة والاستيلاء .

حاشية اخرى — كمثل آخر على هذه الحواشي الشبكية التحضيرية — نجدها في كون الانكليز (وهم يتحينون وقتئذ مقتلا من « الرجل المريض » الدولة العثمانية . ومقضباً مكياً من عنق مصر والسودان ، في نفس الوقت الذي يرمون الى أنهاك الحبشة فالاستيلاء عليها) كانوا يدفعون بتركيا ومصر الى القيام بغارات متواصلة على الحبشة ، حاسبين بان الاربعة معاً سيقعون غنيمتهم بعد انتهائهم من مصارعاتهم فيما بينهم . وفي كلمة : كان الانكليز يلغمون اساسات المملكة الحبشية بتأليب كل القوى والنعرات على بعضها البعض ، وباثارة الفتن

سلطانيـــة الى ممتلكات التاج البريطاني كدرر لترصيعه . كان الاصبع البريطاني في جيوشهم يستلم ما يفتحون مـن الامصار بموجب عقوده المسحورة « وقصاصات من ورق » ، ثم يظل يحثهم على متابعة الهجوم والمذبحة ، حتى وصل بهم اخيراً الى الحبشة ، حيث لم يدع ابناء محمد علي يرتاحون او يقطعون عنها غارات العساكر التي تمشي باسمهم السامي ، منذ تلك الايام حتى اليوم . وكان اللون الغالب على هذا المنظر الذي يخرجه ملوك مصر لحساب الامبراطورية البريطانية رمادياً احمر ، دماً ودخاناً ، لوناً متبدلاً بين لهب وقتام ، تمقه في جانب رؤوس مجهولة تتدحرج على رؤوس ، واكياس تتكدس على اكياس في جانب آخر . هنا ملايين بشر يحترقون ، وهناك ملايـــين ليرات « يتجمعون » ! وبين الكل تقاطيع وجوه « كركوزية » ، وجوه ملوك وملكات واهالي بلاطات ، تهز هاماتها اليابسة طلوعاً ونزولاً كانها لا تريد الا ان تقول : نعم لا لا نعم ، لا نعم نعم لا ! امام هـــذه « البردايات » المسرحية جرت حوادث الرواية .

ابتدأ ذلك يوم عين الكابتين « كامرون » قنصلاً في مصوع وجميع الحبشة من بعد بلودن المشار اليه آنفاً . جاء كامرون

الى توادروس (عطيل) ليقدم تشكرات الملكة فيكتوريا (ديدمونة)، على ما بذله من جهود وشهامة ودراهم للاستحصال على جثة بلودن، الذي كان قد قتله بعض المتمردين. فاستقبل النجاشي الكابتين كامرون بالتأهيل، وتلطف معه، ووثق به. ثم انتهت به سذاجته الى ان كشف له عن اسراره وخططه. وهذا اكبر خطأ يرتكبه عاقل تجاه نفسه، ومسؤول تجاه شعبه. ولكن ملكاً حبشياً في القرن الماضي كزعيم بسيط ونبيل. أما داسوس انكلترا فانه كذكي خبيث.

جاء كامرون، فوجد طوع استعماله سواعد يمنى كثيرة ممن سبق لنا تعدادهم من كشافة المستعمرين فاخذ يشغلهم في كل زاوية، يرتب بهم خطة مخفية على مايظهر. وظل فوق ذلك يستغل سذاجة توادروس حتى دفعه في ١٨٦٢ الى ارسال كتاب الى الملكة فيكتوريا، يسالها فيه ان تقبل سفارة له. ولكن حكومة صاحبة الجلالة سكتت. لم تجب بهس او هسيس، لئلا إن رفضت سؤال توادروس نصاً تفقد ما يسهله لها من اختراق وما يقدمه لها من مساعدات، أو ان قبلت ان يكون تصرفها من قبيل اقامة عرقلة صغيرة في طريقها الى ابتلاع البلاد برمتها، اذ يكون قبولها بمثابة الاعتراف باستقلال الحبشة

هذه الحقيقة الهائلة : « لقد تغلب علي بواسطة أناس أرضخوا لحالة من الطاعة المنظمة ! » وبقدرما اظهر هذاالعطيل العصري ، شبه الهمجي بطباعه وعقليته ، من النبل تجاه الفاتحين، ما اظهر رجال ديدمونة من الغدر ، من الاساليب الاستفزازية الخائنة، من التآمر الاستعماري حتى ان رجلهم « نابيير » لم يتأخر عن الاعلان لقبائل « الكالا » بانه يدفع جائزة ٥٠،٠٠٠ ريال لأي كان منهم يجلب له تيوادروس بذاته ، او يجلب رأسه كوكيل عـــن المسكين يثبت لديهم وجوده ! وفي ١٣ ابريل ١٨٦٨ كان علم بريطانيا ، منديل ديدمونه الحزينة ، المغمس بالدموع المالحة ، يرفرف على « ماكدالا » ، عاصمة تيوادروس. وبعد أن قتل رجال الغانيـة اتباع « عطيل » ، في الحرب وخـــارج الحرب ، دفعوه هو ايضاً الى ان يقتل نفسه . ثم أحرقوا العاصمة وشردوا جميع من فيها، بعد ان نهبوا كل مافيها من كنوز واموال ، ومن آثار ارسلوا أثمنها الى متاحف انجلترا وجعلوا الثانوي منها نهباً مقسماً بين رجال ديدمونه الامناء!..

هكذا انتهت مأســاة هذه المهزلة بان نحر العاشق نفسه ليبق لعذاله ورجال معشوقته مجال تمثيل روايات اخرى كهذه مع « عطيلين » آخرين !... وفي هـذا تختلف « درامة التاريخ

كثيراً عن مسرحية الشاعر .

* * *

لاول مرة في تاريخ الحبشة استطاع جيش اجنبي اخضاعها في عقر دارها . غير ان الاحباش ما لبثوا بمقاومتهم وروحهم الاستقلالية القوية ان اجبروا الانكليز على الرجوع من حيث جاؤا ، وبذلك عاد الاخيرون الى اعداد العدة لاخراج روايات شكسبيرية رائعة أخرى . لقد اخطأهم حدسهم بنضوج الوقت لضرب ضربتهم ، فعليهم اذن ان يحضروا ضربة ثانية . والآن انظر كيف فعلوا ذلك :

بعد تيوادروس قام في الحبشة ثلاثة زعماء أقوياء ، أحدهم اسمه « كاسا » والثاني « كوباز » ، والثالث « منيليك » ملك « شوآ » الذي اصبح فيما بعد منيليك الثاني الشهير . وفي وجود هؤلاء الثلاثة كان للانكليز مجالهم الاول للعب . لقد جذب انتباههم الاولان اكثر مما جذبه منيليك ، الذي كان يشعر بحرج موقف بلاده باستفحال تدخل حكومة صاحبة الجلالة في امورها وازدياد نفوذ الاستعمار الاجنبي عموماً يوماً عن يوم ، والذي أظهر براعة سياسية في عدم الاكثار من التظاهر بقوته وفي تربعه ساكناً لاصطياد الفرصة السانحة .

اما رجال انكلترا، فقد توجهوا نحو الأوابن، وسلحوا كلا منهما، ومدوا كلا منهما بمستشاريهم، ودفعاهم الى ساحة النزال ليقطع كل منهما رأس زميله هدية لديدمونة الاستعمار.

اما مجالهم الثاني، فكان في مصر والسودان. كانوا يستعملون السودان ضدمصر والحبشة، وضد نفسها في وقت واحد. لقد خلقوا، هم لاسواهم، حركة المهدي وما تبعها من حروب الدراويش الشهيرة، ووسعوها جميعاً حتى شملت كل المناطق الافريقية الشمالية الشرقية، فكانت تلك الحركة والحروب وما تسحب الى دوامتها الفاتكة من ملايين بشر وشتى أقاليم كحجري رحى عظيمة، تطحنان مصر والسودان والحبشة الى دقيق نفيس تخبزه انكلترا لاسيادها مطيباً بطحن من جماجم ابنائها.

في هذا المجال جعلوا مصر تقوم بحملة لفتح الحبشة من الشمال تحت قيادة رجل من عمالهم اسمه «مونزينجر باشا». احتلت الحملة «كيرين» عاصمة «البوغوس»، لكن فجأة خرجت عليها من شوآ، مقاطعة مينليك، هجمة دحرتها وقتلت قائدها. في نفس الوقت كان الخديوي اسماعيل، الذي اخرجه الانكليز من قبضة الاتراك الاسمية الى قبضتهم الفعلية، قد استعمل نفوذ خديويته على الشعب المصري بارسال حملة أخرى

الى هرر تحت قيادة رؤوف باشا . فخلع هذا حاكمها وشنقه وضم المقاطعة الى الاملاك المصرية التي هي في الحقيقة وفي المستقبل الذي يراه لها الانكليز املاك بريطانية . ولما سمع اسماعيل بانكسار « مونزينجر » ارسل الانكليز عن يد الاول جيشاً آخر الى « مصوع » ، بقيادة « آهر ندروب باشا » . فاحتلت « كودا » في مقاطعة تيجراي ، وتابعت المسير نحو « آدوى » (عدوى) ، حيث خرج عليها الاحباش من كائن مخفية وعلى راسهم كاسا (وقد اصبح ملكهم تحت اسم حنا الرابع) ، فابادوهم تقريباً عن بكرة ابيهم .

ثم مرة أخرى يدفع الانكليز باسماعيل ، فيسير حملة رابعة كبيرة تبلغ العشرين الفاً تحت قيادة ابنه الاسمية وقيادة الكولونيل « لورينغ » الفعلية وقد قوى الانكليز عصب هذه الحملة بشرائهم احد امراء البلاد ، هو « والدا ميشايل » ، تحت اسم حليف للمصريين . لكن هذه المرة ايضاً انقض حنا عليها ، وقطعها ارباً واسر قوادها ، من الجملة ابن الخديوي . ثم طلب الملك حنا فدية عنهم تبلغ ٢٥،٠٠٠،٠٠٠ ريال ، فجمعها له اسماعيل وأداها عن يد صاغراً . لكن من أين جمع هذا المبلغ الهائل ؟ هنا النكتة ، نكتة عذال ديدمونة ! طبعاً استحصل

على قسم من نهب الشعب المصري واحتلابه اياه كل فلس يصل يد الجاني ، بحيث اوصل هذا الشعب التاعس الى الحد الاخير من انحلال « الحيل » ولكنه اذ لم يستطع حتى بذلك سد مبلغ خمس وعشرين مليون ، خصوصاً بعد الذي امتصته الحروب الاستعمارية المتواصلة من دم شعبه وامواله ، تقدم منه الانكليز بسيماء نبل وجود وعرضوا عليه تقديم البقية . فاضيفت بذلك ديونهم عنده على ديون ليعودوا بعد بضعة اعوام الى احتلال مصر بحجتها ، بحجة ان اسماعيل لم يستطع ان يفيها . فتأمل كيف يخرجون من تخريب جملة الهناءة البشرية بحصص شيلوخ المرابي ! تأمل ، انها دروس بليغة نصرف وقتنا عليها ايها الرفيق الشرقي العزيز ، ايها الحبشي والعربي والهندي والمصري ، لكي تتعلم من طرق حكومة اصحاب الجلالة كيف يتق شرها ، كيف تكسر الايدي المحزبة مرة واحدة ، كيف يتحرر العالم قاطبة من أصفادها اللؤلوية ، من زرنيخها العذب الطعم .

نعود الى اسماعيل ، فانه بعد ان باع بـــلاده وبلاد غيره برقاعة وقلة عقل سيد اقطاعي ، عاد يعلن على شعبه بان نتيجة حروبه كانت مصالحة شعرية ، إذ أهداه الاحباش مقاطعة « البوغوس » لقاء هدية سنوية يقدمها هو لهم ، ولا تبلغ هذه

الهدية على زعمه اكثر من القدر الضئيل جداً الذي هو ثمانية آلاف ريال .

وفي هذا المجال مجال اثارة الحروب بين الجيران من الشعوب ، لعب قديس من قديسي بريطانيا ، حول رأسه عشرون هالة روحية بخارية ، دوراً فعالا عبقرياً . هو قديس كان من سلواته ان يكثر مــن شرب الويسكي وان يقبر اهل افريقيا امواتاً وأحياء بالالوف عندما لاينفذون له رغباته . وذلك يفعله تحت ستار تحرير العبيد او عبادة الله . هذا الولي الصالح هو الشهير باسم « الجنرال غوردون باشا » ، الذي نصبه البريطانيون حاكماً عاماً على السودان باسم مصر ، الذي يلقبه الاستعمار البريطاني « شهيداً » ، ولكن الذي أتى نصيبه عندما قتله اهل السودان جزاء ونقمة . لقد كان هذا الانسان روح القلاقل السودانية المهدوية . كان روح التناحر القبائلي المستديم ذلك الوقت في شمالي الحبشة ، وكان ــ لكي تكمل المهزلة ، والجمال في الكمال ــ واسطة عقــد الصلح بين اسماعيل وحنا ! لقد لبست حكومة صاحبة الجلالة بواسطته فستان رسول سلام مــلائكي ! . .

في هذا المجال ايضاً لم يتم للانكليز الا قسم من برنامجهم،

وان كانوا قد توصلوا الى انهاك الحبشة . غير انهم كانوا قد تعلموا شيئاً جديداً . ذلك ان منيليك اخذ يجذب نحوه انظار عيون الثعبان المغروسة في رؤوسهم . ولما جذب تلك الانظار تحولوا اليه . فكان اول ما فعلوه انهم نفخوا زرنيخهم بينه وبين امرأته ذاتها ، فتوجهت الى اثارة الفتنة عليه ، ثم تقدموا من حنا يدفعوه الى استغلال اعمال امرأة زميله ، الى التناحر معه بعد اذ خلي الميدان من « كوباز » . ولم يستعمل الانكليز حنا ضد منيليك فحسب ، بل كانوا في طوال الحروب مع مصر يستخدمونه ضدها كما يستخدمونها ضده . فتأمل وتأمل . ولولا ان ظهر منيليك كقوة يحسب لها حساب ، لما كان حنا بقي على عرشه طويلا . لكن الانكليز رأوا فيه آلة لاتزال تستعمل . غير ان حنا ومنيليك فهما اخيراً بأن مصلحتهما في التحالف ، فتحالفا ، وزوجت ابنة الثاني بابن الاول .

اما مجال الانكليز الثالث، فكان في لعبتهم مع دول الاستعمار الاخرى . كانت هذه الدول قد شد في جذب انتباهها الى الحبشة قيام الانكليز بحملتهم الفجائية على « ما كدالا » ، فاخذت تلك الدول منذ هذا الوقت تعمل باندفاع مستزيد على التعارك في سبيل امتلاك ما بقي من مرافىء البحر الاحمر المصرية

التركية امتلاكا نهائياً ، وعلى التغلغل اكثر فاكثر في الحبشة ، وعلى الاحاطة بالاراضي الافريقية المتباينة التي افتتحتها اكتشافات ليفينغستون وستانلي جنوبي السودان وغربيها . وفي عام ١٨٨٥ كانت جميع السلطات الاوروبية الكبرى قد وقعت على عهدة برلين الاستعمارية التي عقدت — حسب ماجاء في عبارتها الملفقة — « بشأن إنماء التجارة والمدنية في افريقيا ... »

ومن الحملة على « ما كدالا » وظهور الدول الاخرى في هذا الشكل من الطموح الاستعماري رأت حكومة الجلالة البريطانية انها تجاه امرين واقعين : الاول ان الحبشة صعبة المنال عليها وحدها ، والثاني ان رأسماليي بقية الدول لن يتركوا مائدة الاطايب الافريقية لرأسمالييها وحدهم . وهنا ايضاً تبدو عبقريتها الاستعمارية في التوفيق بين هذين الامرين الواقعين . هذا هو مجالها الثالث ، تتكلم عليه في الفصل التالي .

لكن قبل ان نودع هذا الفصل اود ان اقدم صورة حية مصغرة لنتائج هذه البهلوانيات الانكليزية . لقد علمنا من هكسلي ما فعله الاستعمار بافريقيا في اربع سنوات الحرب ، مما يعادل ما كان يقع قبلا من اجتياح الحروب والاوباء الاقليمية لاهلها في مدة قرن — اي ان ضربة الاستعمار على المجتمع

الذي يسمى « همجي » تساوي خمسة وعشرين ضعفاً من جميع مصائب الحياة التي تصيب اهله وهم على حالتهم الهمجية ، غير متمتعين بنعم المدنية الاستعمارية . لكن هاك الان تلك الصورة الصغيرة لتحس بانك ترى قطعة من التفاصيل المخبأة في مصائب الاستعمار هذه ، في تصرفات المستعمرين ببلاد غيرهم :

يروي كاتب انكليزي من الكتاب الفوق الاستعماريين ،من الذين يكاد الانسان الطيب القلب لايشك بانه قد تكون لهم اذناب لشدة انضمامهم على جميع الصفات الارتجاعية — أجل ، يروي حتى احد هؤلاء ، هو السر هارولد ماكميكيل في مؤلفه الصفراوي : « السودان الانكليزي المصري » ، الحادثة التالية: « انفجرت مجاعة مريعة في سنة ١٨٨٩ ، وظلت تكتسح ، فيموت الوف من الجوع والمرض ... وفي ١٩٠٦ ، على الطريق بين عبيد ونهود ، التقى الكاتب برجل معمر كان يبدو منه كأن قسماً من راسه مفقود . وعند الاستفهام منه اخبر بانه في غضون تلك المدة كان يسافر وطفله في « كوردفان » عندما مسك به رهط من الجياع . ثم اضرموا ناراً وربطوه الى شجرة قريبة بينما كانوا يطبخون ابنه ويأكلونه . اما الاب

فانهم عفوا عنه (لانهم شبعوا) ، وراحوا في سبيلهم تاركينه ، وراسه منغرس بين الجمرات المتفحمة (١) » .

هذا حاصل جزئي ، ايها القارئ العزيز ، حاصل لا يكاد يبين من الصغر ، لاعمال ونتائج نيات القديسين من امثال ليفينغستون وغوردن . وكما ان المبشرين الاستعماريين هم افراز طبيعي للمجتمع الرسمالي ، كذلك فان مثل هذه الحوادث « التافهة » لتكون افرازاً طبيعياً لوجودهم . غير ان كل هذا لا قيمة له عندهم ومن ارسلوهم للتبشير . ليس كله الاحوادث صغيرة مبتذلة بالنسبة لرواية عاطفية رائعة كتلك التي من ابطالها ديدمونة الانكليز وعطيل الحبشة .

والتاريخ والعلم ، كما يسطرهما كتاب الدواوين والوكالات ، لا يأبهان البتة ولا يريان غرابة في ان يأكل الناس بعضهم البعض انهما في رأي هؤلاء الاكارم مجموعات روايات مسلية واخبار مزينة عن الامبراطرة والملوك والشركات واذكياء الدرهم ، عن مختلف العابهم والعاب اذنابهم ، عن حسابات ارباحهم وارباح ارباحهم ، مع قليل من الحواشي الضئيلة السوداء تدب متسربة تحت السطور وضمنها ، لتقص قصة عن « توافه الناس » .

---

(١) صفحة ٥٤ من المتن والحاشية في كتاب « السودان الانكليزي المصري » .

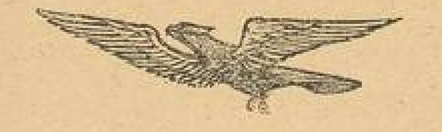
تاريخهم ، مثلا ، يهتم بتنويرنا عن « الانكليز في بلادهم » ، اي عن الحياة كما يعيشها ويراها الورداتهم ومدراء مشاريعهم ، وعلمهم يحدثهم حول ما يراه السائح من مناظر أكل البشر . فيا ترى، اذا كانوا غير موفقين الى تصوير المستعمرين في بلادهم ، ولاهم يحزنون لمآتيهم في غير بلادهم ، هل اذن يجب على التاريخ ان يهتم والعلم ان يحزن ؟ وبالتالي ، لماذا نبالي كثيراً اذا رأينا الرؤوس المشوية على الطريق التي داستها ارجل جيوش الفاتحين ؟ بل لتقتفي ارجلنا آثارهم ونحن نجوب مفتشين عن ذهب المقتولين .

لكن كفى ايها القلم ! كفى تهكماً والمشهد يمثل الموت عارياً. يمثل بريطانيا — وهي في رأس قائمة اخواتها المستعمرات — حكماً من احكام الشقاء البشري . ويمثلها بعد كل حساب جميلة طاهرة ايضاً . يصورها ويعلقها رسماً في « جمعية الشبان المسيحية » في القدس (١) ، فتتخذ لها جسم ملكة شابة ، حلوة ، تقدم التوراة والمسيحية لعبد مطاطئ الهامة . لقد قتل رجالها ذلك

---

(١) إشارة الى رسم فتوغرافي باهت معلق في غرفة ذكرى مونس « جمعية الشبان المسيحية » ، ببناية الجمعية المذكورة في القدس . والرسم يمثل النجاشي توادروس ساجداً امام الملكة فيكتوريا ليسألها : « كيف انتصرت علي ؟ » فتقدم له نسخة من التوراة وتجيب : انتصرت لانني مسيحية ! ... »

العبد قبل ان يرسموه ذليلا . استعبدوا بلاده وكل بلاد من حولها . واما المسيحية ، فيصح له على همجيته ان يكون معلماً لها فيها . قف يا قلم ! هل عندك من التهكم ما يفوق بلاغة الواقع؟..



الكاتالايزر

يسخر السر هارولد ماكيكل ، « الداعية » الاستعماري السابق الذكر ، من موقف الحكومة المصرية وتلكوئها في سحب الجنود الذين يحملون اسمها من السودان عقب مقتل السردار لي ستاك . ووجه تهكمه انه يشبه تلك الحكومة بشيء يسمى في الكيمياء « بكاتالايزر » (صفحة ١٦٠ من « السودان الانكيزي المصري ») . اما هذه المادة ، فهي ، كما اورد ماكيكل عن استاذ اسمه « جريجوري » : فاعل كيماوي يولد رد فعل وهيجان بين مركبات المزيج الواحد بينما هو نفسه لايتأثر مما يحدثه ويبقى كالشاهد المحايد الذي لايقوم باي دور مباشر في العملية !

نعم سيدي ! لقد اراد المتحذلق الاستعماري ، القصير النظر على براعته ، ان يظهر توافقاً بين هذه المادة ، التي اكاد اعتقد بانها ليست الا من عنصر السياسة البريطانية ، وبين العوبة مسرحية كالحكومة المصرية . غير ان « الحقيقة » تريد ان يكون التشبيه موافقاً لاحوال واعمال جلالةالحكومة البريطانية

التي تمتطي حضرته لخدمة اسيادها على حساب من يدفعونهم الى اكل بعضهم البعض . اجـــل ، ان بريطانيا العظمى هي « الكاتالايزر » البشري بعينه . تندس بين الشعوب وتحركها على بعضها البعض . ثم تبقى وهي ضمن العملية ، وهي سببها ورأس كل التشويش ، متخذة وضع الشاهد البرئ وسيماء المحسن الحزين . هذه هي براعتها الكبرى !

وبراعتها التالية هي في انها تتهم غيرها بما فيها لتوجه النظر عنها ، لتلصق عارها بسواها ، كالفاجرة التي تتهم رفيقاتها بقبائحها . غير ان جميع كتاب الامبراطورية وعمالها وتجارها من امثال صاحبنا ما كيكل ، مـــن ذوي الالسنة المتهكمة ، المحمضة ، الملفقة ، المداورة ، لا يستطيعون مهما صمتوا عن اشياء او ثرثروا حول اشياء ان يخفوا ما لا يقبل الخفاء . بل انهم ينبهوننا اكثر مما كنا منتبهين الى عيوب وعاهات الامبراطورية التي يطلو نها بدهانهم اللامع . وبالتالي نفهم جيداً بان « الكاتالايزر » الاكبر هو تلك الامبراطورية . وهـذا دليل يورده التاريخ على صدق قول زهير الحكيم :

ومهما يكن عند امرئ من نقيصة وإن خالها تخفى على الناس تعلم !..

في جميع حوادث العالم السياسية والاستعمارية يلعب الاصبع

البريطاني الصغير ، الطاهر ، اللدن ، لعبته « الحيادية » . والان اذ ندرس حركته في الحبشة ، نرى ان امره عجب عجاب ، وخطر يزيد علـــى ما يمكن ان يكون لعشر ديكتاتوريين كموسوليني من مخالب وخناجر مصوتة وانياب . ألم نر مافعل في مجاله الاول بين اهالي البلاد الواحدة ، ثم ما فعله في مجاله الثاني بين شعوب الاقاليم الواحدة ؟ ألم نره وهو محايد ، مصلح ، وسيط متبرع ، مندساً كالذئب من دون صوت لوطء اظلافه ، ويخلق من الفتن والفساد والمشاكل والتعس ما يبعث الانسان العاقل الى اطالة التفكير في كيف السبيل الى التخلص من هذه الداهية الدهياء ، المسلطة كسيف من نار فوق رأس البشر . أليست انكلترا ، هذا الكاتالايزر البرئ المسكين ، هي اليوم العقبة الكأداء في سبيل تقدم البشر وتمدنهم ، سلامهم وراحتهم المشتركة ، بما تتقنه وتغوص فيه من فعالية التفريق ، التهييج ، العرقلة ، استعمال البعض ضد البعض ، وسيادة الجميع واستثمارهم بعد ذلك باسم التقدم والتمدن والسلام وما شابه ؟ بلى ، ان بريطانيا الرأسمالية لكذلك في الامس واليوم ، وفيما يلي من الصفحات سنتعرض الى شئ من فعالية هذه « المادة » البشرية المؤذية في مجال ثالث لها كان ولا يزال يدور حول الحبشة ،

كما كان ولايزال منتشراً في كل مكان يوجد فيه رجل واحد او وكيل واحد من جمعية مستعمريها .

هذا المجال الثالث في بحثنا الحبشي يؤلفه المزيج الكبير المتباين مـن اهالي الحبشة وشعوب افريقيا الشرقية ودول اوروبا المستعمرة جميعاً . لقد كانت الحبشة تعيش فيه منذ نصف قرن كما لاتزال تعيش فيه اليوم . كان الخطر الاول على وجودها كما انـه اساس مشكلتها الحاضرة مع ايطاليا الفاشستية هذه المشكلة التي تهدد العالم بكارثة مروعة لاحاجة لاحد بهـا الا اسياد المال المستعمرين ، والتي لم يكن النظام الرأسمالي ومديروه رجال الاستعمار الانكليزي الكاتالايزريون، ودتكتاتوريوه وملوكه وامراؤه ومجالسه السخيفة في جميع قارات الارض ، موجودين لما كانت بالتالي هي المشكلة التاعسة موجودة . والان ، لنروي سيرة الكاتالايز واصحابه في اوسع مجالاته هـذا ، الذي يشمل ممثلين واتجاهات وقوى من كل صنف حاصل في نطاق الحقبة الاستعمارية في عصرنا الحديث .

* * *

لما رأت بريطانيا — وهي المساهم الاكبر والمدير المدبر

لجوقة نظام الاستعمار — لما رأت (وهذا حوالي ١٨٨٥ — ١٩٠٠) من اختباراتها في حملتها على « ما كدالا » صعوبة فتح الحبشة عليها وحدها من جهة ، ثم لما شعرت من جهة ثانية بان ثورة اتباع المهدي ودراويش السودان التي كانت تستثمرها غدت أضخم مما يعجبها فاحتاجت في هذه الناحية الى معظم جهودها لتخرج بغنيمتها ، ولما وجدت من جهة ثالثة ان دول الاستعمار الاخرى فتحت عيونها واخـــذت تلحق بها الى الحبشة وتتهافت وتتهاجم على بقية الاراضي الافريقية لتؤمن لانفسها حصصاً منها ، سارعت الى التسوية بين هذه الحالات والتناقضات ، مكتفية بان تظفر بحصة الاسد طالما ان ابتلاع الكل يستحيل حصوله . ثم انها كانت ، فوق كل ما تقدم ، قد علقت او اصطدمت بعقبات ومشاكل في معظم انحاء قارات العالم القديم من جراء توسعها السريع ، اهمها كمثل حادثة « بنجدة » التي وقعت بينها وبين الامبراطورية الروسية في معرض نزاعهما على افغانستان ، والتي كانت تهدد باندلاع حرب اخرى بينهما .

على ذلك أمسكت بريطانيا بكل قوتها وحيلها الأراضي التي استطاعت أن تركز فيهـــا قدمهـا : مصر ، السودان ،

الصومال الخ ... وغضت الطرف عن سواها برهة . وقد كانت هذه الاراضي أيسر حصولا عليها من الحبشة واقل تكليفاً لاستثمار رأسماليها . اما ما بقي ، فقد كان صعباً وموحشاً ، متماسكاً نوعاً ويحتاج تمهيداً مضنياً ، ومن هذا الذي بقي كانت الحبشة . فما عاد لبريطانيا إلا ان تخاطب الدول الهاجة (وقلبها يتفطر حزناً ويلغي تصرفات لسانها) بما يقال في المعنى التالي : « دونكم ودونها من لقمة سائغة ، فافعلوا ما تشاؤن وتشاء « المروءة » ، « الاحسان » ، و « المدنية » ! وهذه الالفاظ ، كما تذكر ، هي دائماً بهار الكلام عند جماعتنا . هي السكر الذي يمزجون به شربة ملحهم لتخفيف حدة طعمه ! يكون كل منهم ناوياً اغتيال صاحبه اثناء ما يتخاطبون بقولهم : لولانا لما سادت الارض المحبة ! ... »

كانت بداية أو نتيجة ذلك الاتجاه السياسي الحادث في طريق بريطانيا « عهدة برلين » التي سبق ذكرها في الفصل الماضي . ثم تبعها طلق رشاشي من ملفات المعاهدات ، الاتفاقات ، البروتوكولات ، المراسلات ، ومعها طبعاً طلق مقابل لها من المنازعات والاختلافات حول الاتفاقات وتفسير الاتفاقات . الا ان انكلترا كانت دائماً تحاول الابتلاع

بالمهادنة في هذا الوقت ، وتساوم على ما لم تمتلك من الاراضي كالصياد الماهر الذي يصيد الشارين ليبيعهم السمك في بحره ! والنكاية ان كثيرين كانوا يشترون منها !...

في يوليو ١٨٩٠ انتهت شبكة المناورات والمصارعات بين المانيا وانكلترا على الاراضي شرق افريقيا بتراض واتفاق على تحديد مناطق النفوذ وتقسيم السلائب . كان من جملة مكتسبات الاخيرة منطقة « اوجاندا » التي بادرت « الشركة الامبراطورية البريطانية للشرق الافريقي » في الحال الى استلامها ، والدولة وكيلة الشركات كما لا يخفاك . ثم ان اتفاقات كهذا ، وفي مثل نتائجه ، عقدت بينها وبين بلجيكا ، وبينها وبين فرنسا بخصوص الاراضي الواقعة حوالي الحبشة جنوباً ، جهة منابع النيل الابيض ، وغيرهـــا مما هو نواح اخرى من افريقيا . وكنتيجة لتراشق لطيف ، قام في ذلك الزمان بين انكلترا وفرنسا . استطاعت الاخيرة ان تضيف ، برضى الاولى ، الى ممتلكاتها الصغيرة التي اخذتها من المرحوم « آجاو » وسواها مما على الساحل قبالة عدن ، عدة جزر اخرى وقطع اراضي حبشية انتهت بان دخلها ثغر جيبوتي وتلاحمت تحت اسم « الصومال الفرنسي » .
ولما جاءت نهاية القرن الماضي كانت انكلترا قـــد استطاعت

توجيه فرنسا من مزاحمتها لها في مناطق النيلين الى القيام بمغامرات طفيفة جهة ساحل البحر على حساب الحبشة . بيد ان ذلك الكرم من بريطانيا لم يصدر الا بعد حادثة بسيطة كادت الحرب تشتعل بينهما بسببها لتنقلب عالمية قبل « العالمية » بعقدين من السنين .

هذه الحادثة هي مشكلة « فاشودا » (كودوك) الشهيرة، التي حصلت على النيل الابيض يوم التقى فيها كل من سعادة السردار كتشنر ، الذي كانت اوامره في ان يضم الى بريطانيا كل ما تصل اليه يده ، وحضرة المسيو « مارشاند » الذي كان مزوداً بتعليمات تقول « بمد النفوذ الفرنسي حتى النيل » . لقد تنازعا كديكين في من يرفع العلم على فاشودا ، لكنهما تصالحا ان ترفعه بريطانيا وتأخذ فرنسا بضع شرحات حبشية اخرى كعطل وضرر .

كان الكاتالايزر البريطاني اكثر ما يخشى ويحسب له الحسابات العميقة مزاحمة زميله الاستعمار الالماني . ولذلك نجده ، وهو يخابر بيوتات الدول في شأن الحبشة او يغمض عنها قليلا ، يعمل على سد جميع السبل اليها، امام المانيا ، بل الى اية منطقة اخرى لم يكن قد وضع يده عليها ورسخ فيها .

كانت المانيا « حتى » الاستعمار في قلوب ماليي الامبراطورية وساستها في ذلك الوقت . لقـــد أرعبها بسمارك ، والوف المعـــامل والمصارف ومئات الوف الجنود « البروسيين » ينبتون بسرعة عجيبة تحت ظله الوحشي المديد . ولذلك ، فان ما قلناه عن دعوة « الكاتالانز » لبقية دول الاستعمار الى الوليمه الحبشية ، قد يصح على كل دولة الا المانيا . حتى فرنسا في جيبوتي ، على طريق الهند ، الى جانبه ، لم تكن في وساوس حدسه شيئاً هاماً بالنسبة لخيال المانيا التي شرعت لاتنطق بغير « الحديد والنار والدم » ، ناسية ان هناك الفاظ « السلام والمحبة والرقي الخ . » التي تستعملها بريطانيا وتحب ان تشنف آذان الجميع بها وتملأ جيوبها من درها !

ومع ذلك ، ففرنسا لا يجب ان تأخذ اكثر مما قبضت عليه ، لانها هي الاخرى ليست بالتي تقبض وتعود فتعطي . انها لم تمهد ولن تمهد ارض الحبشة لبريطانيا . ذلك واضح ، لانها لا تمهد الارض لغير رأسماليها واصحاب القروض والمال الموظف فيها . لكن الحبشة لا يجب ان تبقى على طول حصناً حصيناً . إن فيها ذهباً يهجم عليه وإن فيها دولة قد تبعث حية ، حية رابضة في كمين خطر بين دروب الامبراطورية التي لا

تغيب عنهـا الشمس . اذن ، ما العمل ؟ ان مصر والهاب نيران الفتن الداخلية واستعمال الدراويش والقيام بالحملات المباشرة — ان جميع ذلك لم يأت بنتيجة حاسمة . ما العمل ؟ هذا هو السؤال !

هناك « الرجل المريض » . انه مريض ولا خوف منه . لقد خدم بريطانيا كثيراً ، وكان يدفع لبريطانيا اجور خدماته لها ! لكن المريض ، البعيد ، المنهوك ، المسلوب ، الذي لا يكاد يستطيع دفاعاً عن نفسه وحياته ، الذي لا يعيش إلا منة، بل الا لانه يفيد سواه — هذا « الرجل » هل يستطيع عملا ؟ هل يمكنه ان يطفئ جذوة الدراويش في السودان بعد خروجها عما يفيد بريطانيا ، ويعبد الطريق الى قلب الحبشة بعد امتناعها علىها ، ويلاشي نفسه اكثر مما هو ملاشى ليكون هو والدراويش والسودان والحبشة وكل شيء في النهاية لحى « مجتمعة » في قبضة الكاتالايزر ؟ كلا ، انه لا يستطيع .

فمنذ خمسين سنة ، في اول مايو عام ١٨٨٥ ، قال سياسي تركي في حديث له مع مكاتب « التيمس » الباريزي : «لقد طلبت منا انكلترا ان نذهب الى السودان » . ثم في ١٨ منه قالت «الاهرام» المصرية : « يؤكدون ان الدولة العلية أبت احتلال سواكن

(بلدة على الساحل السوداني ، وهي من مفاتيح شرقي افريقيا) لما وجدته في شروط انكلترا من امور يأباها شرف الدولة العسكري والمدني الخ . . . » (« والشرف » معناه في لغة السياسة عدم المقدرة على الاستعمار بسبب التأخر الصناعي ووضعية القرون الوسطى الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة وقتئذ في حياة الدولة العثمانية) . وهكذا « فالرجل » الذي لا يمكنه الذهاب الى السودان لايمكنه بالتالي ان يغامر في الحبشة .

لكن قبل ١٨ منه بثلاثة ايام كانت نفس الجريدة قد نشرت ما يلي : « يؤكدون ان الدولة العثمانية أبت ان تحتل سواكن . . . وانه بناء على ذلك ستحتل ايطاليا هذا الثغر ! » ثم قبل ذلك باسبوعين او ثلاثة أصدرت ايطاليا اوامرها ، بناء على سابق مخابرات مع بريطانيا ورضى منها ، الى الكولونيل ساليفا باحتلال « جميع المواقع الحربية بين مصوع وعصب ، والمواقع الداخلية التي لا تبعد اكثر من خمسة كيلو مترات عن البحر او عن النقط التي تحتلها الجنود الايطالية ! . . »

نعم سيدي ، ان ايطاليا قد دخلت الميدان الذي ابتدأت فيه « بعدوى » وانتهت منه الى « وال وال » . ان الكانالايزر

رضي عنها ووجد فيها آلة من آلات مشاريعه . انها افضل وآمن مـن يوكل اليه القيام بعمل مزعج ، مكلف ، زلج ، كفتح الحبشة . لماذ؟ لان الدولة والاستعمار الايطاليين اخذا يولدان في النصف الاخير من القرن الماضي كمرافق خاص للاستعمار البريطاني. كانا كالمرافق الموكل بخدمة سيده ،المتعرض لتذبذب جراياته حسب تذبذب السوق الاستعماري والدولي والحاجة اليه ،فيه المستهدف لهدايا هذا السيد ، الكاتالايزري ، وصفعاته على السواء .

كانت ايطاليا وليدة حديثـة في اوروبا، قامت تجاهها انكلترا بوظيفة القابلة القانونية لتوازن بها سياستها الاوروبية . وكانت — لحداثتها كدولة موحدة — لاتزال ضعيفة ، ناقصة الخبرة ، لايخاف شرها بقدر سواها مـن القويات المحنكات ، ولايخاف الخسران معها ايضاً بقدر ما ينتظر من فوائد التلاعب بها واستعمالها من كل جانب ومنفذ في كيانها الناعم . لهذا افسح لها الكاتالايزر ميداناً وسيعاً في الحبشة . كان ميداناً تتكلف ايطاليا بتسهيله بالمال والرجال ، لتأتي مربيتها البريطانية عند نهاية الطبخة وتلتهم اطيب ما فيه واعظم شطر منه بارخص ثمن : هو التشجيع وفتح مصكات ابواب المرور فحسب ! . .

وهكذا نجد من كل ما تقدم اذا ما اعترضت الاستعمار الواحد أكلة صعبة الهضم، شارك فيها استعمارات اخرى في ذات الوقت الذي يتزاحم وإياها عليها . تقوم دائماً بين هذه الاستعمارات اتفاقات جديدة، دائماً مساومات جديدة، دائماً منازعات جديـــدة، تتلو الواحدة الاخرى الى ان يتم هضم البلاد المستهدفة جميعاً. عند ذلك لايعود من مجال لاكتساب الزيادة الابان تحارب بعضها بعضاً على ما في بطن كل منها وفمه.

هكذا ابتدأت وانتهت الحوادث والمطامع المتطاحنة التي ولدت الحرب الكبرى . هكذا ابتدأت انكلترا وايطاليا في العقد الاخير من القرن الماضي، وهكذا يوشكان ان ينتهيا اليوم . انها اليوم دول ناهشة، لا يسد بطونها شيء، اساسها نظام يفترض البشر حيوانـــات ناهشة! والذي يبكي أبرد الصابرين من كل هذه الفوضى وهذا التذابح، هو ان ارباب النظام يريدون ان يخلقوا الانسان على صورتهم خلقاً ابدياً!

* * *

أول الامر وضعت شركة ايطالية يدها على مرفأ عصب في الطريق الشمالي مـــن مضيق باب المندب . ثم اشترته الحكومة الايطالية من الشركة، فكأنما الحكومة اشترت من

نفسها أو كأنما الشركة باعت الى نفسها — ولكن من مال غير مالها ! من عرق مساكين ايطاليا . بعد ذلك اخذت ايطاليا توسع حول هذه النواة بان تلحق بها المناطق التي تسكت عنها انكلترا لها . وكان ذلك على النحو التالي :

كانت بريطانيا قد وضعت يدها ، بصفتها صاحبة الحماية في مصر ، بعد ١٨٨٢ ، على جميع الممتلكات التركية — المصرية التي على ساحل البحر الاحمر . ثم بعد حوادث الدراويش في السودان ، واستخدامها لجنود من مصر على اخضاعهم ، عادت فأجبرت هؤلاء بالقوة وبالحيلة وبمجاذبة الرؤساء على اخلاء السودان والساحل المذكور . وكما استخدم « الكاتالايزر » المصريين ضد المهدي وخلفائه ، وهؤلاء ضد المصريين ، كذلك استخدم الملك حنا الحبشي ، هذه المرة ، على طرد المصريين من اماكنهم . وفي النهاية تبرع بمساعدة الطليان على رفس من بقي منهم ، وعلى امتلاك ذلك القسم من من الساحل الواقع في شمالي غرب الحبشة ، المبتدئ من قبل عصب قليلا جنوباً ، الداخلة فيه « بالول » و« مصوع » و« اسمرة » و« زولا » ، ومدينات وأشاكل اخرى ، والمضموم جميعاً في باقة عمدت باسم « شعري » هو : الاريتريا !

لكن في عام الخير ١٨٩١ قال الكاتالايزر لايطاليا «قفي !» لقد أراد التربص ليضع خططه بدقة . « فشد الفرام » على صاحبته . عقد معها بروتوكولات تعين مناطق نفوذها وحدود مستعمراتها الجديدة . لكنه مالبث ، على اثر اشتداد جديد في حدة الانتفاضات السودانية (وقد كان اهتياج الاهالي التعساء هذه المرة ضد فظائع وتشويش ومظالم بريطانيا مباشرة ، لاضد دروعها ومجناتها الا لا عيب) ان عاد يهمس في قلب « السنيورا » معشوقته بان لها ان تتوغل الى ما بعد حدودها « الاريترية » ، داخل المناطق السودانية المتاخمة . قصد الكاتالايزر بذلك تأديب « العصاة » من الاهالي بخنجر دولة الناشئين من الرأسماليين الايطاليين الرعن . وهذه طبيعة الكاتالايزر .

منذ ذلك الوقت اصبح واضحاً ان ايطاليا اخذت تعجل في غزل مطامعها . راحت تحاول بكل جهودها ان تقولب توسعها في شكل استعماري اكبر واسرع ، ان تؤمن مطالب صناعتها وتجارتها وماليتها الاخذة في النمو واللحوق بسابقاتها . اخذت تكد وتقلق نفسها من شدة الكد لاستعمال ممتلكاتها الجديدة كقاعدة تنشر منها امبراطورية واسعة في شرق افريقيا .

لقد تضخمت احلامها ، احلام ساداتها ، مع تضخم ثرواتهم الجديدة . ولما كان قد خاب أملهم في ابتلاع تونس ، اذ سبقت فرنسا الى تحقيق هذه العملية ، فقد حصرت دولتهم همها في الحبشة ، متوقعة بسط ظل قياصرتها الصغار عليها .

خفضت ايطاليا الظن كثيراً بمناعة الحبشة . ظنتها برغشة سهلة العلوق بعنكبها . اما الكا تالا يزر ، فقد كان يدرك تماماً اين تنتهي ايطاليا واين تبتدئ غريمتها . ومن نحس ايطاليا ان هدية ذلك الخبيث لها ، الأريتريا ، كانت شعرية الاسم ، غير شعرية الجسم . ذلك ان الساحل الأريتري لهاب الحرارة ، قتال الصحة ، استوائي المناخ بكل معنى الكلمة وأعدى أعداء المزاج الاوروبي . تكبدت فيه ايطاليا خسارات عظيمة من مال ومن ارواح أشباه الارقاء من ابنائها بسبب الامراض الكثيرة والحروب مع أهاليه الاشاوس المضطهدين . لقد كانت الامراض الاقليمية تختلط بالاوباء المريعة ، المنبعثة من تهري أكوام جثث الاهلين الذين لم تكن بنادق المستعمرين ومدافعهم ترتاح من حصدهم عن وجه أرضهم ، وكان هذا المزيج من مرض ووباء يرتد على المستعمرين لتجديد الحصاد منهم . لكن كل هذا لم يردع الظالم عن طغيانه ، بل هيج قابليته

وحمس رغبته الاكتساحية . حبب اليه جداً ما تمتاز به الحبشة من مناخ النجود وثروات الجبال والبطاح . ان ايطاليا أخرت فتحها سابقاً ، انما الان ، تجاه كل هذه العوامل واهمها عطف الكاتالايزر ، وطدت العزم واعلنته .

لكن من زيادة النحس في حظ ايطاليا انه كان هناك عامل هام لم تحسبه ، مع ان سلوك انكلترا كان قميناً بان يفتح عينها عليه . ذلك ان الحبشة ، كما يقول مؤرخ في تلك الايام ، « لم تكن تنظر الى نفسها كاحدى المقاطعات غير المتمدنة او المتشرجة في نزعها ، ولا كونه من الضرورة ان يبسط الاوروبيون حمايتهم عليها ! » والان . هاك بعض التفاصيل لهذه « الالياذة » الجديدة

اخذت ايطاليا تنظم حملاتها نحو الداخل واحدة تتلو الاخرى ، فيعقب كلا منها الحاق شرحة من الحبشة بالاريتريا. في كل من هذه الحملات كانت « السنيورا » تكنس الاهالي كناسة الهواء الاصفر ، تحرق عدداً كبيراً من المدن والقرى ، تقتل عدداً بعد اكبر من الزعماء ، تنفي من لا خوف منهم ، وتسخو بالريالات والعاهرات وفاسق العيش على الخونة البياعين. ذلك دائماً ديدن المستعمرين ، اتقنته « السنيورا » بسرعة.

لكن في هذه الاثناء كان الملك منيليك يشتد ساعده يوماً بعد يوم، يثبت سلطته داخلياً بادخال الرؤوس والنبلاء المتمردين، الفوضوي النزعات، العميق الاقطاعية في الاوضاع والنفسية، تحت سلطته القوية وسياسته الحكيمة بالنسبة لبلاده ودرجة تطورها. كان زمن حكمه اول محاولة تقوم في الحبشة لادخالها في الطور القومي بالمعنى الحديث، اي في دور النشوء البورجوازي الوطني، المتجسد في سيادة واحدة ضمن دولة موحدة ذات قوة عسكرية وتنظيم اداري وديواني (١) محبوك الحلقات. كان عصر منيليك بداية عصر نهضة يعقب الانحطاط والفوضى والتلاشي الذي كانت الحبشة تسير اليه في اواخر عهد توادروس وبعد موته.

لكن منيليك صدمته انكلترا بايطاليا. رأي بلاده معرض كل تلك التحولات التي كان يستهدفها الكاتالايزر بها. فكان يجد انه يبني جداراً ليهدم له الاستعمار جدارين. كان تخوفه على بنائه وبلاده يستفحل مع مر تلك الحوادث التي قدمنا صورة ساذجة لها. وإذ رأى ان ايطاليا لن تتوقف، إن

---

(١) ترجمة لكلمة Bureaucratique ويصح استعمالها في العربية بلفظها الفرنجي لدوليتها من جهة، ولانها شاعت في اوساط كثيرة حيث يقال «بيروقراطي» و«بيروقراطية» الخ... من جهة

استطاعت ، عن ازدراد البلاد كلها ، وان لا بد من حرب آتية بينهما ، اخذ يعد عدته بتنظيم جنوده وا كثار التسلح برغم لانهاية من العراقيل تقام في طريقه . في اوائل ١٨٨٧ بدأت المناوشات الجدية .

في تلك الايام ايضاً ارسل الايطاليون الى الحبشة عصابة جواسيس بقيادة كونت مغامر يدعى « سالمبيني » . كان اللقب « الرسمي » لهذه العصابة : « بعثة علمية » ، وفي ذلك دليل على ان الايطاليين اخذوا يقتفون باتقان خطوات استاذهم الكاتالايزر ، خصوصاً من جهة تسمية الامور بمعكوساتها . إلا ان عصابة « البعثة » وقعت بيد منيليك ، اي انه لم يتورع عن القاء القبض عليها . وبعد ذلك اسرع يشد الشدات على الفلول الايطالية التي كانت تتقدم في اراضيه ، فدحرها واجبرها على اخلاء كثير من المدن والقرى التي كانت الحقتها كما يلحق اللص امتعة سواه بخزانة مسروقاته . وبذلك اعاد منيليك الى الاهالي المرتاعين في تلك الارضي بعض طمأنينتهم .

غضبت روما وثارت عصبيتها لهذا الانكسار تفرضه عليها امة « همجية » ، في رأيها ، على دولة « متمدنة » مثلها . غضبت وأرسلت جيشاً من ٢٥٠٠٠ جندياً لتنفيذ احلام غزواتها .

اما الكا تالا يزر الانكليزي ، فكان يواصل اساليبه في استفزاز روما المهانة من جهة ، ومــن الجهة التالية يغتنم فرصة رغاء ايطاليا الزابدة للتهويل على منيليك . قالت بريطانيا لمنيليك : «خير لك ان اصلح بينك وبين الطليان . وما تخسر بذلك الا قطعة ارض صغيرة تلقمهم اياها و . . . قطعة صغيرة لي ايضاً . اني احتاجها لادفع بها عنك شر هؤلاء المغتالين ! . . » لكن منيليك اعتقد بجزم ان مخاطبيه اطفال — اطفال خطرين جداً ، اخطر من المغتالين !

في ذات الوقت كان الطليان ، واطفال الكا تالا يزر من خلفهم ، الذين لم يحصلوا سواء ببكاء او بدون بكاء على حليبهم من الحبشة ، يظهرون حباً لئيماً للاسلام . يحاولون ابداً اثارة الفتن الدينية في البلاد . عملوا من قبل على استخدام المهدي ، ومــن بعد حاولوا استغلال تعصب تابعيه . ثم علم الاطفال « وابناء الذئبة » كيف يعملون للتفريق بــين حنا ومنيليك وجعلهما ديكين متقاتلين ، وقد سبقت الاشارة الى اخفاق هذه الدسيسة باتفاق العاهلين . ولكــن الدسيسة تواصلت ، وظلت تنفتح حلقة عن حلقة ، حتي انتهت بمقتل حنا على يد قوم المهدي ، بعد ان يئس المستعمرون من خيره وأملوا في

ان ينبثق مكانه معارض قوي لشكيمة منيليك . وعلى اثر مقتل حنا لم يعدموا فرصة لزج البلاد في ما اشرنا اليه من حالة الاضطراب والذعر ،لمضاعفة المؤامرات والالغامات المتنوعة ، المدفونة في انفاق السياسة الاستعمارية الخفية الدموية .

رأى الايطاليون فرصتهم . لاشك في ذلك . لم يستطيعوا الاخذ بالحرب ، فليجربوا غير الحرب . وإذ البلاد في هذه الحالة ، ومنيليك احوج ما يكون الى مسالمة جيرانه الذئاب ، جاؤه باسم السلام والتحابب لعقد معاهدة كادوا يصورونها له ، بالفاظهم الغرامية ، الناعمة ، شيئاً شبيهاً بعقود الزواج بين الملائكة . عقدت المعاهداة ، فكان لها قصة اية قصة !

(معاهدات اوتشالي — ايار ١٨٨٩) . والقصة هي في ان نص المعاهدة الموقع عليه كتب في اللغة الأمهرية ، حيث جاء في حرفيته ان الملك منيليك « يمكنه ان يستعمل » الايطاليين كوسطاء مع بقية الدول . غير ان الايطاليين ترجموا العبارة تزويراً على الشكل التالي : « مجبور على استعمال الخ ... » ولا لزوم للقول بان ترجمتهم ، التي جعلت الحبشة بهذه العبارة بلاداً محمية بكل معنى الكلمة ، لم يكن عليها غير امضائهم الشريف !

وعملوا ، فوق هذا ، على استغلال ضيق منيليك المالي

بدغدغة ذقنه وخشخشة كيسهم . أقرضوه اربعة ملايين فرنكاً ، ولكن لقاء استلامهم جمرك « هرر » كضمان على ايفائها وبشرط ان يمتلكوا كل مقاطعة « هرر » فيما اذا تأخر بوفاء المبلغ . كانوا يعتقدون بانه لايستطيع ذلك ، ناسين ان في الزاوية عيوناً انكليزية واسعة الاحداق ، وان للكاتالايزر جيوباً مملوءة لوقت الحاجة ، وانه لم تعجبه كثيراً الطريقة التي يترجمون بها المعاهدات وينسونه خارجها . في الواقع ، ان الانكليز اخذوا يفكرون بان هذا المجرى في الامور يجب ان يتحول قليلا . لقد ظهر لهم كرن ايطاليا أساءت الفهم قليلا إذ أزدءوتهم لها لم يكن يعني بانهم « تركوا لها وحدها النعجة الحبشيه المسكينة » اذلك كثير جداً على ذقن خادمتهم التي اخذ الغش تجاه سيدها يخرج من قلبها الى يدها !

غير ان الانكليز كتموا حرقتهم ، وراحوا ينظرون كالمتفرج المسرور الى الملك هومبرت وهو يهدي منيليك ، كعربون صداقة ايطاليا ، مجموعة بنادق ومدافع ، ويتأملون كيف يعلن في نفس الساعة امام محتشد الدول بان الحبشة اصبحت تحت حماية ايطاليا ، وبان هذه تبرعت بالحماية لا لشيء الا المدنية والسلام والنور والعطف وغير ذلك من الوان هذه الحلويات التي اعتاد الكاتالايزر علكها قبله بزمان . ولذا ،

لم يمض على معاهدة « اوتشالي » وغزليات هومبرت وقت قليل حتى خلقت بريطانيا ملكاً من شخص اسمه الرأس « منغاشا »، فاعلن هذا الثورة ونصب نفسه على نسخة ثانية لعرش الحبشة بصفته حبيب الانكليز والابن الطبيعي للمرحوم الملك حنا . لكن منيليك تغلب عليه وضمه اليه . ثم لما اراد الايطاليون ان يطبقوا تفسيرهم العبقري لمعاهدتهم هزأ بهم ، واختار عمداً ان يخابر بقية الدول رأساً على امور مختلفة مما اختص بمصالح مملكته . تلك المملكة التي اصبحت غارقة في مئة فخ وفخ من احابيل الدول الناهشة ، ولكـــن التي كان التنافس وثوران التناهش فيما بينها نفسها على الفريسة واستعمال منيليك لهذا التنافس بدراية ، السبب الاول لبقائها على الخريطة . لقد كان الكا تالا يزر داهية الخبائث والفتن والاستلاب . ولكن شدة طمعه كان يصطدم مع اطماع من يستعملهم . وكانت السنيورا الايطالية كذابة متسرعة بحيث اصدمت بشهوة سيدها لضرتها. اما منيليك الحبشي ، المستخف به ، فقد استطاع ان يطبق على ذينك الوحشين اسلوباً دقيقاً مـن اساليب الحياة في الادغال البشرية . استطاع ان يتناول مـــن الكا تالايزر لساعة دور السعدان الذي وكل اليه تقسيم الجبنة بين الهرين . غير ان

الفرق بين رمز الخرافة وحقيقة السياسة كان في ان الهرين هنا ارادا تقسيم جبنـة السعدان نفسه ، لاما سلباه من سواه ، وكان همه هو الاحتفاظ بجبنتـه !

الا ان اللعبة على الكا تالا يزر ، على ملك جميع السعادين السياسيين الاذكياء ، لم تكن سهلة . لقد اراد ايطاليا على محاربة الحبشة واضعافها ، ليعود فيكر عليها او لتستجير به استجارة من لاذمن الرمضاء بالنار ، وماساير منيليك، الذي عرف كيف يستفيد من هـــذه المسايرة ، الا قصاصاً لايطاليا على قلة ما انتبهت الى مقاصده . لكنه ما ان فهم بان السنيورا المتراخية فهمته ، انها يئست من المعاهدات والحماية وادركت وظيفتها ومبلغ غنيمتها المحسوبة لها من القيام بهذه الوظيفة ، حتى عاد يدفع في ظهرها دفعاً مشجعاً ويعمد الى تخليص منيليك دور السعدان ليلعبه هو . وبذلك عادت ايطاليا ايضاً الى سياسة المناوشات والمعاكسات والتعديات والمغامرات ، وعاد الجبار الاسود منيليك الى المدافعة واتقاء النبال المصوبة الى شعبه من هؤلاء القردة البيض .

وهكـــذا دواليك استمرت المناقشة والمناوشة ، والغارة ورد الغارة ، والاخذ والعطاء بالبنادق والمدافع والسيوف ،

دائراً بين الحبشة وايطاليا ، بينما عيون الكاتالايزر تراقب بسكون وطمأنينة ، وبينما اظفارها واظفار ايطاليا معاً تتحرك كالمناجذ (جمع قنفذة) ، على حد تشبيه منيليك للفعالية الاستعمارية ، في باطن اراضي بلاده الى ان اقبل عام ١٨٩٦ . في ذلك العام انفجرت دفعة واحدة جميع هذه الملغمات المدفونة والاحتكاكات الحادة . انفجرت كل هذه الحروب الصغيرة ، الكلامية والسلاحية ، المستمرة ، المملة ، المخربة ، في حرب واحدة كانت في الحقيقة معركة واحدة .

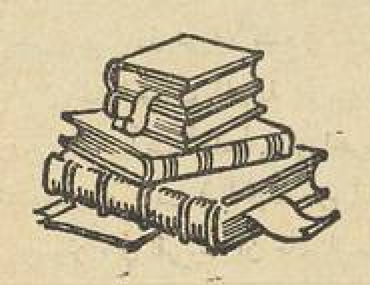
هي معركة « عدوى » الشهيرة التي تحطم فيها الجيش الايطالي تحطيماً امام صلابة الشعب الحبشي وبطولته ، امام غرامه باستقلاله وارضه وكرهه للمستعمر الابيض ، للوحش الخبيث ، للدموي المطامع .

لقد أجفلت ايطاليا بعد هذه المعركة اجفال اللص الجبان. وجد توسعها حداً يقف عنده بحنية رأس أدخل فيه الاحباش قليلا من الاحترام — لكن لوقت ...

اما الكاتالايزر البري فقد سكت ليفكر بهدوء . بيد ان مناجذه لم تقف عن الحفر في بطن الارض ، ولم تمض بضعة اسابيع على « عدوى » حتى اخذ يكفكف دموع ايطاليا

ويعرض عليها كل « المساعدة » المطلوبة لاجل نشر النور و « ارجاع الدنيا الى العـــادات السلمية » ، كما قال اللورد « كاسترليغ » في ذلك الزمان . فاخذت السنيورا القبلات ، هذه المرة، وتركت كستنا، الحضارة والعادات السلمية في النار !..

وذلك لان شواء الاصابع لا يشتهى قبل ان يذهب ألم الشواء السابق !



قوى واساليب ومعاهدات وعبر (١)

لا مكان في هذا الكتاب الصغير للدوران واللف حول ما لانهاية له من المداورات والمناورات ، والكرات والفرات، والمحاولات العجيبة الغريبة ، واللطمات الخلفية المتوالية ، المتنوعة ، التي كانت الدول الحائمة حول الحبشة تقذفها عليها في سيل لاينقطع . ان هذه لكثيرة ، طويلة الاخبار ، مملة ، ذات نغم واحد من الدس والخيانه والخلو من جملة الفضائل الادبية والميزات الانسانية النبيلة . حبكها حبك مؤامرات شطرنجية تدور على بيادق بشرية لا يشبع اللاعبون بها من اللعب .

أجل ! ان الحبشة صدت الهجمة الاستعمارية المسلحة في معركة « عدوى » صداً عنيفاً دامياً . لكن الحرب بين الاستعمار وفريسته لم تقف ، وكانت في الحبشة من أبلغ البراهين على صدق « كلوسوتز » في تقريره ان حالة السلم (في النظام

(١) في القاموس : العبرة هي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد (بعد) والاعتبار هو قياس ما غاب على ما ظهر . وهذا المعنى عينا نقصده من استعمال اللفظة .

الاجتماعي القائم طبعاً !) ليست الا حرباً بغير سلاح . لقد حمي وطيس التلاكم الاستعماري بعد « عدوى » اكثر مما كان حامياً ، وكل ما تبدل في الميدان انه اصبح ملاكمة اقتصادية ودبلوماسية ، تبرعات بالخدمات المعكوسة لقاء امتيازات طاعنة، وتنقيلات في حجارة السياسة الاستعمارية بدهائية ودقة ونعومة. لم يردع الدول ، التي تتعاطى مهنة استعباد الشعوب عن اكتساح مجال لاطماعها ، انكسار جيش زملائهم الايطاليين فيه. لم يردعهم الا عن المغامرة في اتباع اسلوب اللطمة المدوخة ، الا عن التفكير بان اللقمة الحبشية قد يسهل عليهم ازدرادها دون تقطيع وطبخ . لذا عادت شركة المستعمرين بعد « عدوى » ، وعلى رأسها الكاتالايزر البريطاني ، الذي تعلم درساً ثانياً بعد امثولة حملة « نابير » عن ثبات الحبشة ، الى التقطيع والطبخ والاناة لحم خروفهم بمواصلة حقنها انواع أدويتهم المهرئة .

وهكذا فان المعركة التي عقلت التقدم السريع للاستعمار الايطالي لم تكن فاصلة ، كما ان كل معركة ضمن النطاق الاجتماعي الماضي والحالي وفي سبيله ليست بفاصلة . ان تلك المعركة ، وان كانت قد ارجعت المعتدين من تلابيبهم عن متابعة الهجمة العلنية الوقحة ، الا انها لم تطوق الحبشة بسور

منيع لا تتسلقه بقية الدول درجةً درجة . لقد قلل نصر الاحباش استهتار المستعمرين بهم. جعلهم يدخلون على سلوكهم تجاهم شيئاًمن الاحترم ومراعاة قواعد التأدب ، وان يحولوا — على الاقل — طريقة تنفيذ خططهم . حولوها من الامتهان الارغامي ، من دق الحنق وموالاة الصفات باكف وحشية غليظة الى الاختراق باساليب شبكية ناعمة : اساليب الاستملاك الاقتصادي المتعمق ، تقديم مساعـــدات ملفقة واحسانات مزعومة ، تشديد قبضتهم على مرافق البلاد وتوسيع استثمار شعبها بواسطة ألعاب الحقوقية البرجوازية ، تحويط البلاد بقوى ومواقع حربية ، سد جميع المنافذ الى الخارج في وجهها ، بث الدعايات الرجعية والاستعمارية العديدة المتباينة ، استغلال الاوضاع والاحقاد الاقطاعية وشراء الكثيرين من الزعماء الذين يدفع المستعمرون اجورهم من حياة شعبهم . اما الزعماء هؤلاء — الذين يبيعون وطنهم واهله بصفقات اغتيالية متهكمة الأنانية ، كما يبيع التجار السياسيون مــــن زعماء الاقطاعية والبورجوازية العربية اوطانهم ، كما يساوم اضراب شكيب ارسلان عن حياة ستين مليون عربياً مظلوماً في اسواق المزاد الدولي — أما هؤلاء ، فان في الحبشة ، كما في كل بلاد ،

عدداً لا بأس به .

كل هذه الروايات التي كانت تمثل على المسرح الحبشي بعد « عدوى » هامة للغاية ، وفي كل منها درس بليغ للشعوب المقهورة التي تستهدفها ، ولا عداء الظالمين . بيد اننا ، كما أشرنا ، لا نستطيع في هذه صفحات المعدودة ، بالنسبة لاتساع الموضوع وكثرة دقائقه وتفاصيله ، ان نسرد حتى القليل منها . الوقت لايحتملنا على الاطالة في رسالة كهذه نريد ان نسابق بها الحوادث . ومثل تلك الروايات ونتائجها معروفة ومشهورة ومحسوسة من قبل الملايين الذين يستهدفون لها . لكن ما قد يكون مبهماً او خافياً او غير مفهوم اومنتبه اليه تماماً من امرها ، هو الاساليب والكيفيات الموضعية التي تجري بحسبها ، القوى الحقيقية ، المعينة ، المحدودة ، التي تلعب ادوارها ، واهمية كل لاعب ودرجة تأثيره وعمله . لا يمكننا ، لذلك ، إلا ان نحصر البحث في استعراض مجمل لما نراه ابرز الوقائع من هذه الناحية ، لا من ناحية شهرتها او دعاية المستعمرين او خيال الساذجين . إلا ان نفهمها فهماً واقعياً صحيحاً ، إلا ان نستخلص العبرة العامة منها والكيفية الشاملة التي تتحرك بها والنتائج التي تصلها في حقبتها التاريخية ، حقبة النمو الاستعماري

لذي تستمر فيــه مآسية وتتضخم ، الذي يرمي الى اغتيال الشعوب برمتها لمصلحة أركانه المتنافسين والمتحدين مــن رأسماليين العالم .

بهذا العمل الموجز يعرف، على الاقل ، من العدو البشري واين هي مواقعــه . به تفهم بالتعيين القوى الحية العاملة في الاستعمار ، ودرجات عملها وأشكاله . وبه ، اخيراً ، يستطيع ضحاياه وكارهوه ان يستفيدوا ويقووا ، مما يعجل في شيخوخة الاستعمار ونظامه ، ينهكه ويقضي عليه بتسديد الضربات اليه بدقة واصابة بعزم المعرفة للهدف والاتحادفي يد رمايته. وليجلب نظرنا في الدرجة الاولى أدهى واشد ممثليه ومديريه ، لانه ، كما اشرت في بعض مـــا سبق مما كتبته ، اذا ما تهشم رأس الثعبان مات لا محـــالة . اذا تخلصت الانسانية من بواعث المصيبة لم تعد من مصيبة موجودة . ولا يهمنا . طبعاً من امر تلك القوى والممثلين التغزل بحلاوة عيونهم وجمال عضلاتهم ، بل ادراك الطرق التي يتبعونها ، ونتائج تلك الطرق ، وقواعدها، لاجل اجادة مقاومتها .

***

كلا ! لا نستطيع ان نرافق تطور المزاحمة الاستعمارية المريعة

التي كانت تتعمق قبل الحرب مرحلة بعد مرحلة في كل العالم ولا كيف كانت تتشكل في الحبشة وتنفجر بعواصف من الفتن والدسائس الدائمة بين المتزاحمين، ضد بعضهم البعض عليها وبينهم جميعاً ضدها في آن واحد. كذلك ليس من مجالنا في كثير او قليل، رغم اهمية الموضوع، ان نفصل في امر تطور هذه المزاحمة بين اسياد الدول حتى لم يعد امامهم شيء خال يتصارعون من اجله، فراحوا يتخاطفون من بعضهم بعضاً ما يقبضون عليه، ويأكلون شعوب بعضهم بعضاً في كارثة الحرب الكبرى، ولا في كيف تجلت هذه المحاربة المجرمة المجنونة على المسرح الحبشي في اجتهاد كل جبهة من جانبها — الالمان والحلفاء — على جر فريسة تكالبهم الى بالوعة المجزرة.
ولا تتعرض بغير التلميح الى وصف او تحليل الصور المخزية التي تبلور فيها ذلك التجاذب بين الجبهتين: كيف كان الالمان يستعملون الاسلام مطية لمآربهم، وكيف كان الحلفاء، ورأسهم بريطانيا، يركبون النعرة المسيحية ليشركوا معهم الاحباش في المهرجان القرمزي، فيقعوا في النهاية صيدة منهوكة للاستعمار الغالب، الذي من عادته ان يصيب عصافير كثيرة بحجر واحد. وليس ايضاً بالمقدور، في هذه السرعة

ان نقف اكثر من لحظة لاقتفاء آثار التأثيرات التي احدثها ذلك الاحتكاك والتعدي الدائم على الاحباش : كيف تحركت فيهم نعرة وطنية حقة تحركاً ثورياً قوياً . كيف تعلمت الزبدة من شبابهم وقوادهم المفكرين ، وئيداً وئيداً وبأثمان باهظة ، ان المستعمرين لا يمكن محاربتهم بغير سلاحهم وآلاتهم وتكنيكهم . كيف كرهوا بريطانيا وحلفاءها الى حد ان سرت في قسم منهم ، وعلى رأسهم امبراطورهم المتهور « ليدج ياسو » ، الرغبة بان ينقلبوا مسلمين نكايةً بانكلترا المسيحية ، ايام لمعت اثناء الحرب بارقة امل بان مثل هذه الخطوة الخنفشارية قد تخلصهم دفعة واحدة من مخالب اعدائهم . كيف تلاعب الاستعمار الالماني بهذا الأمل ، وكيف وقف الاستعمار البريطاني منها الوقفة التي تنطق بها السطور التالية من كتاب تبرير ضميره « التاريخ الشعبي للحرب الكبرى » ، حيث جاء فيه :

« كانت متاعب إخماد حركة مقاومة السيطرة البريطانية أخف في الحبشة منها في غيرها . فان الذين كانوا حول الامبراطور الشاب دفع بهم جنون التحمس لاخبار النصر التركي على الدجلة الى التطرف حتى الى ما لا يحتمله شعبهم نفسه ، اذ اقترحوا بمفاجأة وعنف تحويل الحبشة من دولة

مسيحية الى دولة اسلاميـــة . لقد اقترح عليهم هذه الخطة الفريدة وكلاء الامبراطورية الالمانية ، التي كانت قبل الحرب قد تآمرت ضد مسلميها ذاتهم في افريقيا الشرقية ، وحاولت ان تستعمل ضدهم تربية الخنازير كسلاح لاخراجهم عن دينهم ! . . . الخ » (ص ٦٦ — مجلد ثالث) .

. . . واخيراً ، كيف انتهت جميع هذه المهازل الدينية التي كانت تتستر خلفها مطامع الدول الى فوز بريطانيا في خلع الامبراطور ، ومن ثم الى صيرورة ما كان من احوال الحبشة الى شر مما كان عليه .

كل هذه الروايات والتطورات والتقلبات ، وما تخرج من عبر وما يقدم العلم بها وتذكرها من استفادات عملية ، يصعب علينا حتى طرقها الان . اذن ، هيا نتقدم الى مطلبنا الذي بيناه ، وبالتالي الى معرفة ما هو :

اولاً — رئيس شركة المستعمرين الذي هو صـــاحب الحصص والارباح الكبرى فيهم ، والذي يكوّن وجوده حجر الزاوية في نظام الاستعمار اينما كان ، وبالتالي في ميدان الحبشة موضوع بحثنا . ثم عـــلاقته ببقية الشركاء ودرجات عملهم وتأثيرهم بالنسبة لبعضهم البعض ؟ وهذه هي القوى .

ثانياً — ابرز الأساليب التي تتبعها هذه الشركة جمع المكاسب ومحق الحياة او قهقرتها ، اي في التوصل الى عقد المعاهدات التي تشبه علامات الطريق المشيرة الى مبلغ ما يصير اليه اعضاء الشركة من مراحل نموهم او تقلصهم ؟ ويمكن اتخاذ اعمال رئيسهم الفحل كأتقن «مثل أعلى» راهن على اعمال البقية .

ثالثاً — العبرة التاريخية الشاملة لكل ما تقدم في السؤالين السابقين، اي التوصل من معرفة الكيفية العامة المشاهدة لحركة الاستعمار الى ما يمكن ان تكون عليه نتائج سيره في الحبشة بالنسبة اليها والى شعوب دوله نفسه ، وبالتالي للعالم جميعاً ؟

ان الجواب على السؤال الأول يكاد لا يحتاج الذكر . فبريطانيا العظمى ، بريطانيا الكاتالايزرية ، مملوكة ديمونة وأنبغ حاشية متمولة ، ذات البقاع التي لاتغيب عنها الشمس، وأشباه العبيد الذين يعدون بمئات الملايين ويعيش أغلبهم كالميكروبات — لها شرف الرئاسة . وليس ذلك فيما يختص بالمشروع الحبشي فقط . أما بقية الأعضاء فيحسن أن نخصص بهم الفقرتين التاليتين :

لقد سبقت الاشارة الى محاولة اعادة ايطاليا الى الميدان بعد «عدوى» ، فأنشأ سياسيو بريطانيا يصيغون لها جملهم

الخلابة التي لم تؤثر كثيراً هـــذه المرة ، لان المستعمرين الايطاليين ايضاً بارعون في التعبير الشعري اللطيف . (١) وعلى ذلك ، لما لم يتجرأ الايطاليون ان يطوحوا بانفسهم في مغامرة تعلموا ثمنها ، ولما كانت بقية الدول لاتزال حائمة حول الحبشة بشدة ومطالبةً « بحقوق » واتعاب فيها ، ولما ظلت الحبشة ذات مناعة ضد « اغتيال » استعماري مفاجيء ، فقد رأت بريطانيا نفسها مجبرة على التسامح مع الدول الاخرى بان تتقدم معها وتسبقها ممهدة الى الساحة . واهم تلك الدول المانيا وفرنسا ، وخلفهما رهط من الصغار الذين لايخاف شرهم امثال بلجكا واسوج روسيا الخ . . . كذلك ايطاليا ، فانه بقي لها دور ، انما غير الدور « العدوي » الا انه عندما استفحل جداً الاستعمار الالماني ، فاصبح شبحاً مخيفاً قائماً في وجه بريطانيا ، عمدت الى تمييز فرنسا على امبراطورية غليوم ، عرقلت على هـــذه السبيل بقدر ما استطاعت ، وشدت أزر تلك ، واخذت تحسب ألف حساب لطغمة نسيبها القيصر المزعج ،

(١) يقول لسان حال انكلترا « السر هارولد ما كميكل : في ١٨٩٦ ... اذ كانت » اي بريطانيا « شديدة الأثر بحاجة تقديم المساعدة الايطاليين الذين كسرهم الاحباش يوم ٢٩ شباط الخ . . . » من كتابه السودان الانكليزي المصري « — ص ٥٧

الى ان حطمته في الحرب الكبرى واخرجته من دفتر حسابها في الحبشة الى حين . . .

كانت العلاقة بين هذه الدول دائماً كما سبق وكانت : تنافس مستديم وتحالف مستديم على — الحبشة . الاوروبي الابيض ضد الاوروبي الابيض وعدوه . لكن الاثنين معاً عدوا الاسود. انا واخي على ابن عمي ، انا وابن عمي على الغريب . المستعمر الافرنسي والايطالي اولاد « بدون شرف » في نظر الاستعمار الانكليزي ، والعكس بالعكس . اما الحبشي ، فهو في نظرهم جميعاً ابن سعدان وقحبة همجية . لكن جميع الدول التي ترافق و بريطانيا الى ميدان الفتح وحصاد الغنائم كن دوماً مغبونات بالنسبة لاستاذهن رئيس جوقتهن . جميعها تخسر كثر منها ، وهي تربح اكثر من الجميع ا قسمتها تنتهي في الغالب الى تطبيق اقتراح الغني البخيل على جاره الفقير عندما خطر له ان يأكل الحلوى :

منك الدقيق ، ومني النار أضرمها

والماء مني ، ومنك السمن والعسل ! . .

وبعدذلك يأكل الاثنان بقدر القابلية وطول الباع وما في البطن من اتساع . بيد انه كثيراً ما كانت الخسارة كلها تكون من

جيب ودماء ابناء تلك الدول ، والربح كله من نصيب بريطانيا ، كما حدث في حرب « عدوى » . هذا ، ومـــن المشهور عند الناس ان النفوذ الفرنسي اليوم اقوى نفوذ استعماري في الحبشة . والحقيقة ان فرنسا كانت طوال اواخر القرن الماضي وما فات من هـذا القرن المبارك تحفر اقنيتها واوكارها في تلك البلاد ، تتغلغل كالبراغيث في جسم البدوي وعباءته . لكن الدوائر المطلعة جميعها تعلم ، ياعزيزي ، بان الحبشة مورد غنائم للانكليز من أغزر مواردهم ، وان ما يمتص منها رأسماليوهم اقتصادياً وما يستفيدون سياسياً يربو أضعافاً على ما تمتص بقية الاستعمارات وتستفيد مجتمعة . ان منابع النيل ، مراعي الاوغادين ، تأمين قلب الامبراطورية البريطانية من رسوخ قدم قوية فيه ، تجارة السودان والصومال الانكليزي ومختلف الامتيازات ، لأمور تكفي وحـــدها لاثبات القول . ان الانكليز يحاولون القاء الأقنعة على مثل هـــذه الحقائق التافهة . انما عمالهم انفسهم يقرون بها ، ومنهم عربي ذكي قضى في الحبشة سبعة عشر عاماً ، أقصد به السيد ابرهيم حسون الذي عاد منها مؤخراً ونشر سلسلة مقالات في « الاهرام » جاء فيها مثل هـذه الاعترافات

التي لاتخفى على عليم (١) .

والان ، اظن هذا القدر يكفي هنا بخصوص السؤال الاول، لانه سيبقى من محاور الكتاب حتى نهايته فينجلي ويثبت اكثر فاكثر للقارئ مع استطراد البحث .

* * *

بخصوص الاساليب ، فاننا كما قلنا سنجتزئ ببعض ما تتبعه رئاسة الشركة منها ، لكونها المثل الاعلى للجميع في هذا الباب . والان تفضل وتمعن في بعض الطرف والتحف :

في عام ١٩١٦ لم يجد « شرف » انكلترا الشهير سلاحاً لمقاومة عدوها الالأرعن ، الملك « ليدج ياسو » ، خيراً من استغلال النعرة الدينية وتبليغها حدود الهسترة التي تقطف اثمارها بسهولة . كان هذا الملك كثير الميل والتذوق للعادات والامور العربية ، حتى انه اخذ يظهر بين صحبه من العرب في كامل قيافتهم. وكانت النتيجة ان صوره بعضهم وهو في هذا اللباس ، وان طبعت منها مئات الوف النسخ في الخرطوم . ثم وزعت في طول الحبشة وعرضها كدليل على ثبوت اتهامه بانقلابه مسلماً ،

---

(١) راجع له سلسلة مقالات نشرت في «الاهرام» في اعداد مختلفة من شهر نيسان ١٩٣٥

وبذلك كانت نهايته . ويروي الصحفي الهنغاري « لاديسلاس فارغو » في كتابه « الحبشة عند مسائها » ان الذي لعب الدور الاول في رواية الثعالب هذه كان الجاسوس الانكليزي المعروف الكولونيل لورانس . يقول ان لورانس المذكور زار الحبشة تلك الاثناء وقضى فيها بضعة اسابيع ، حيث قبع يغزل غزله (١).

وهكذا نجد ان من آثار فتنة الأحباش على ملكهم باسم المسيحية وبغضاً بالاسلامية هو ذات الذي لعب بالعرب باسم الاسلامية وغراماً بالعربية . هو رسول اسياد بريطانيا الذين خرجوا رابحين في كلا الصفقتين المشينتين . ولنا بهذه المناسبة ان تذكر كيف استعمل الانكليز نفس طريقتهم هذه مع ليدج ياسو ضد أمان الله ، ملك الافغان المصلح ، وكيف يتبعون امثالهـا في كل أرض تطلب التحرر ولقدمهم فيها مكان يدوس . لنا ان نتذكر مناشيرهم التي يلقون بها من طياراتهم في الهند ضد الهنود الشيوعيين . لنا ان نفكر بكونهم حماة جميع الملل الدينية ، مشجيعها ، مناصري مجامعهـا ورجالها وجرائدها ، للتفرقة بين الشعوب . لكي يجنوا الشعوب فيسهل

(١) Abyssinia On The Eve - ص ٦١

عليهم استثمارها .الى آخره ! هذا وتحسن الملاحظة بان طغمات الجواسيس والدساسين والمحركين في خفاء السراديب غير المنظورة من امثال لورانس ابن الأركان الركينة في الامبراطورية . هناك جيوش منهم موزعة في كل ارض ، يلبس افرادها كل قناع معروف ومجهول . لكن المعروف غير المجهول من أمر « الانتليجنس سرفيس » ولواحقها ، هذه المنظمة المريبة التي لا تأنف يدها من شيء ما تغمسها فيه ، كثير ولا يحتاج الذكر . انه يحتاج التنبيه فقط .

في آذار ١٩٢١ تذرعت الحكومة ذات الجلالة بغارات قبائلية وقعت جنوبي الحبشة على حواشي « كينيا » والسودان ، ولم تكن اسبابها معلومة (١) لوضع قنصل بريطاني محاط بالجند والشرطة كأنه دولة قائمة بذاتها ، في بلدة « ماجي » الواقعة في جنوب غربي الحبشة . حجتها كانت في انها تريد التعاون مع الحبشة على ايقاف هذه الغارات ! ولما أخفق هذا المسعى للاستيلاء على شرحة ما ، راح كتابها الاذكياء يقولون بان السلطات الحبشية تعرقل اعمال بريطانيا السلمية في قمع الغارات الحبشية .

أما رحلات المحسنين وبعثاتهم فطريقة لابأس بها . ومن

الامثال الجميلة على هذه الارساليات باخرة باسم «السيدة بايكر» سيرت في اعالي النيل ونهر «الصوبات» عام ١٩٢٢. جعلوها مستشفىً عامــاً لتطبيب الاهالي مجاناً، «لاكتساب وداد المتوحشين المحليين» كما يقولون، وربما لتحويل وداد المساكين الى بذرة حرب اهلية تذهب هباء بالبلاد والمتوحشين وحب المحسنين جميعاً — في لهب منير.

السودان بريطانية طبعاً. لكن حكومتها تلقب «بحكومة السودان». اما هذا الاستقلال باللقب، فالمراد الحقيقي منه ان يكون الدفع والعمل مــن اهالي القطر، والمسؤولية المادية والادبية في شذوذ التصرفات واقعة على عاتق دولة وهمية اخترع لها اسم «كوندومينيوم»، بينما قبض رصيد الغنائم يكون مـــن وظيفة اللوردات واصحاب الفبارك والشركات والمصارف والاسهم في حي «السِتي» في لندن. السودان هذه، طريقة لها ميزاتها في الاقتناص من جاراتها، وخصوصاً الحبشة. عام ١٩٢٨، مثلاً، شنت فرق من جنود الدولة الوهمية غارات على الحبشة. لماذا؟ لان القبائل الحبشية على الحدود كانت تغزو، باسم الحبشة ولكن بدافع اسباب علمها عند اصحاب العلم، القبائل التي تنسب الى السودان. هذا، وقد وضعنا

لفظة « مثلاً » في سياق الكلام ، لان هـــذه التفاعـــلات والمصادمات المبهمة تبقى قائمة على قدم وساق كالحركة الدائمة حيث يوجد للكاتالايزر قدم وساق . هي لا تختص بعام دون عام ، ولا حتى بشهر دون شهر .

مثل آخر نزعج به القارئ لزيادة التنوير . في ربيع ١٩٢٩ كان وجود الكاتالايزر (ولا يجب ان ننسى ابداً بان اهم صفة للاستعمار البريطاني مقترنة مع طبيعة هذه المادة) باعثاً لاندفاع قسم من قبائل « التوركانا » ، التي تقطن مستعمرته في كينيا ، الى التعارك مع بطون من « الموريلي » و « الدونيرو » الحبشية . ارادت بريطانيا (اي السودان) ان تتخذ هذه المعارك حجة على التدخل . لكن الحكومة الحبشية أسكتت صوت الفتنة بعزم ، فكتب بعد ذلك احد « شعراء » الامبرطورية يقول : بنادق الملك (يقصد جلالة الملك جورج الخامس الذي احيي له يوبيل فضي في عام ١٩٣٥ ب . م .) - بنادق الملك الافريقية والقنصل المقيم في « ماجي » ، بمساعدة (فقط !) السلطات الحبشية ، قد حسنوا (فقط ! على امل قيام « بنادق الملك الافريقية » بزيارة التحسين !) الموقف » (١) .

(١) كل ما بين الهلالين من التعليقات والتفسيرات للمولف وذلك ظاهر لكونها ليست مصبوغة بطابع « شاعر الامبراطورية » المستشهد بكلامه .

هذا، وحتى الساعة لايزال عاهل « ماجي » الصغير يشكل نواة تلتف ،حولهامشاكل لاتنقطع ، فيرفع من بعدها كتاب وشعراء الانوار الاستعمارية عقائرهم ليطالبوا من تشع هذه الانوارعن وجوههم بان « يضعوا الحدود لتلك المآسي » ! ــ المآسي الموجودة الان في العالم مواد كاتالايزرية منشورة في سبيل ما لايؤدي الى الفضيلة والخير والمحبة بين البشر . مثل حوادث الحدود الحبشية تجري الامور في معظم المستعمرات البريطانية المتاخمة لاراض غير مستعمرة بعد ، حيث لا تهدأ اصابعها عن طلب الاختفاء في اعشاش الاجمات الضائعة . وعلى ذكر الحدود المفقودة ، الشبيهة « بالرمال المتنقلة » التي تبتلع الناس، لا نظن بان هناك بأساً من ان نذكر ايضاً بانه كلما فوتحت بريطانيا بمسائل الحدود ، لكي تتعين بذلك المسؤوليات فيما تزعمه وتثيره مع « جيرانهــــا » ، عمدت الى المراوغة والتملص . حاولت الاختفاء بخفة الارنب وتواري الثعلب . وذلك لان لا حدود للامبراطوريات التي تعيش على حياة الشعوب ، لان الابهام والظلام خير مساعدين على مدها اليد الى ملك الملايين وحريتهم ، ولانهما يؤلفان أروع جو تستمرض فيه احلام امتلاك العالم وتطبق فيه ، متفشية كالاوبئة التاريخية المجتاحة ،

التي لا تقف ولا ترحم ولا تسمع انين قتلاها .

من غرائب البراعة المنتشرة حيث ينتشر الاستعمار ، ان بريطانيا توصلت مرةً (مرة كمثل) الى جعل الحبشة تضع في ناحية من الحدود حامية قوية تكون هي مسؤولة عن اعمالها وتسديد نفقاتها ، لالشيء الا لحراسة المصالح البريطانية وتمهيد توسعها ! على رأس هـــذه الحامية وضع قائد يصفه « ماكميكل » وممن يزينون الوجه ببراقع جلدية بالقول عنه انه « قـدير » . ولاشك بان اقوال مثـــل هؤلاء هي ايضاً مقدرة حق قدرها . فان واحدهم لايلبث ان يعلق بالاطراء على شيء حتى يكون اطراؤه الاشارة الخفية التي يفهمها اللبيب، فتهتك رغم براعة التستر .

ومن هذا القبيل في استعمال الاشارات تعليق « ماكميكل » على قضية تلك الحامية وقائدها بقوله : « ان الحادثة تبشر خيراً للمستقبل ، لكن التوصل الى التأمين الثابت (الأمـــن والتأمين، الضمان والتضمين ، وهلم جراً هي « بريمات » الالعاب الاستعمارية في كل مكان) ليس ممكناً بدون شي من التعديل يدخل على الحدود ، فتنتقل جميع المستنقعات (مستنقعات — شيء تافه !) مـــن تحت حكم مقسم الى موحد ! » (١)

---

(١) « السودان الانكليزي المصري » ص ١٨٥ — ١٨٦

(وتفسيراً : من الوضع المبهم لتعدي بريطانيا على أراضي الحبشة الى قبضة استعمارها « الموحد » !) (١)

يقول الكاتب المذكور ايضاً : « قد يكون لوحظ بانه منذ ١٩٢٧ اخذت الفعالية العسكرية لحكومة السودان تقوم على الحواشي الحبشية » (٢) . اجل ، ان فعاليات « حكومة السودان » تستهدف الحبشة ، تشن الغارات ، تعكر صفو الأمن وطمأنينة الاهالي المسالمين . هي فعاليات تتخذ من جملة حججها مقاومة تجارة الرقيق ، بينما اسياد الرق البشري نواصع الجبهات . وتتخذ ايضاً حجةً في القول بوفرة السلاح عند القبائل وفي الواجب (يا مسكين !) الملقى على عاتق اصحاب المدافع والطيارات وبقية قائمة هذه الأشياء بنزعه.هذا ، بينما السلاح الذي في يد ابناء تلك القبائل ما هو الا احداثين : اما عتيق بالي يرجع الى ايام الدراويش واما — (لا تضحك، كما يقول قائد عظيم) جديد' بديع ، ماركة « ريمينغتون »

---

(١) من طريقتنا في الكتابة ، ادانة المذنب من فمه ، لذلك فانا نمسك في الغالب واحداً من نفس المذنبين للمناقشة دون التجاء الى الشهود ، وهم كثر . وبهذا لا يمكن ان يقال باننا لم ننظر الا من جانب واحد، جانب ما يقوله الخصوم او المحايدين الذين يمكن ان لا تكون نظراتهم صدقتهم . بذلك لا نكون قد اخذنا الافادة من احد غير الذي هو صاحب المصلحة في التلاعب بها

(٢) « السودان الانكليزي المصري » ص — ١٨٦

الاصلية (١)! .. هذا حقاً اسلوب جميل . لكنه معروف غير جديد .

°°°

تلك هي الأساليب . اما المعاهدات ، نتيجة الاساليب ، فهاك نظرة عليها :

جاء في معاهدة ١٩٠٢ التي عقدت بين الامبراطور منيليك والكولونيل « هارينغتون » ، بالنيابة ، عن حكومة ذات الجلالة ، كون على الحبشة :

« أن لاتبني او تسمح ببناء أي إنشاء عبر النيل الأزرق وبحيرة تسانا (منبع النيل الأزرق) ونهر الصوبات ، مما قد يؤخر جريان مياهها الى النيل ، الا بموافقة حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان » .

أن « لايجري أي تدخل في مياه النيل الازرق وبحيرة تسانا الا بعد استشارة حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان . انه في حالة حصول شيء من هذا التدخل ، وكل الشروط الاخرى فيه معتبرة ، يكون التقدم فيه لاقتراحات حكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان . وان جلالته

---

(١) « السودان الانكليزي المصري » ص — ١٨٦

الامبراطور منيليك لا يخطر له بان يعطي اي امتياز بالنظر الى النيل الأزرق وبحيرة تسانا الا لحكومة جلالته البريطانية وحكومة السودان او لاحد رعاياهما ».

ثم، بالاضافة على هذه المعاهدة التي وضعت الاساس العملي والعلني والحجة والوسيلة الكبرى بيد الاستعمار الانكليزي، أعطي للانكليز ايضاً باسم « حكومة السودان! » دوائر نفوذ حول المناطق المذكورة في المعاهدة وسواها تحت لقب مضحك هو: « محطات تجارية »! وانتزعوا ايضاً، على ذمة كتابهم، حق بناء سكة حديدية عبر الاراضي الحبشية لوصل السودان بمستعمرتهم « اوجاندا ». وهذا اذا تمّ. يقصم ظهر الحبشة مقطعين. ومن يعيش بظهر مقصوم؟

وفي ١٩٠٦ تبرع الايطاليون، من « حقوقهم » التي اغتصبوها او « نصبوها » من منيليك (١) لاحبابهم اولياء نعمتهم الانكليز، بما جاء في تصريح الدولة الايطالية التالي في ذلك العام، من انها: « وهي محتفظة بحقوقها في مياه نهر

---

١) كان الايطاليون بعد اذ احتلوا الساحل الاريتري ولم يعد في الامكان اخراجهم خصوصاً وبريطانيا تابعة فيه قد قطعوا الحبشة باحتلالهم هذا عن منفذ الى البحر ولقاء هذه الضربة اعطوا منيليك مبلغاً من المال. فلم يعد امامه الا ان يرضى او يحارب. لكنه رضي، باعتباره ذلك اخف الشرين.

« الغاش » المارة بالاراضي الايطالية ، تقوم ايضاً بتعديل مجراه فيما يختص بنظام المياه بالاتفاق مع حكومة السودان وبوحي مبادئ الجيرة الطيبة ! » هـذا ، ولا حاجة الى القول بان هدية ايطاليا هذه لسيدتها الكاتالايزرية ، التي قدمتها لها كثمن على ما تكبدته هي (اي ايطاليا) مـن اعباء الفتح في الحبشة ، تترك لها الأريتريا ، وهي لاتملك سوى « الحق » الاسمي في مثل مياه نهر «الغاش»، كشيء لم يكن في ذلك الوقت وحتى هذا الوقت إلا رمالاً صفراء وشمساً وهاجة مذيبة ، بعض مدينات وقرى ناعسة حولها بعض قبائل متنقلة تائهة .

منك الدقيق ومني النار اضرمها ! .. « مـن » انكلترا الغنيمة ومن ايطاليا الثمن اموالاً وارواحاً ! الى آخره ...

ثم ، عدا هـذا التصريح وتلك المعاهدة واتفاقات كثيرة اخرى لامجال لذكرها ، نجد ان بريطانيا وضعت بيدها حجر الاساس في الاتفاق الثلاثي الشهير الذي عقد في ديسمبر ١٩٠٦ بينها وبين فرنسا وايطاليا ، والذي لم يكن اكثر او اقل مـن محالفة ثلاثية على اقتسام الحبشة ، بعد ان تأكد لكل من هذه الدول — وأبعدها نظراً انكلترا طبعاً — استحالة هضمها على واحدة منها بمفردها فحسب ، بـل حتى صعوبة ذلك عليهم

مجتمعين بدون تنافس، الامر الذي هو الاخر يصعب حصوله.
وكانت تقسيمات الغنائم المنتظرة لهذه المعاهدة تابعة للقاعدة :
ابريطانيا لقمة الاسد، وللاخرين ما يفضل، يوزع عليهم
بصفتهم حلفاء اشبه بأمناء الخاصات الملكية . أمناء يشاغبون
على سيدهم، مع ذلك، ويضجون حول رأسه ان لم يبذل
لهم الاجرة والبخشيش . بل وقد يتحمسون حتى ليعمدوا الى
عرقلة تنفيذها، كما فعلت فرنسا . ولكن رغم كل شيء تبقى
بريطانيا اكثر الشركاء أسهماً وارباحاً . هي في معاهدة ١٩٠٦
مثلها في اتفاقات قناة السويس، مثلها في اتفاقات « سايكس -
بيكو » السري اللئيم الذي فضحه اصدقاء الشعوب المظلومة
من البلاشفة، مثلها في عقود اراضي النفط العالمية، مثلها في
درجات النفوذ الاستعماري في مختلف بلدان الشرق من
الصين حتى الجزيرة العربية الخ . . . لها الغنيمة الكبرى اللينة
بأقل التكليف الممكن . لسواها البلغة الصغرى القاسية بابهظ
تكليف ممكن ! . .

في معاهدة ١٩٠٦ تلك تعهدت فرنسا وايطاليا بان تضمنا
بنفسيهما «مصالح بريطانيا العظمى ومصر (خذ بالك : «مصر»،
مثل « السودان »، لفظة مرادفة لبريطانيا في قاموس الاستعمار)

في صحن النيل الخ ... » . مقابل ذلك وعدت بريطانيا ببعض المساعدات . والنتيجة كانت ان بريطانيا ضمنت صحن النيل ، بل ملكته ، ان ايطاليا ربما نالت بعض الفوائد ولكنها غير معروفة لضآلتها ، وان فرنسا اخذت بعض امتيازات وهمية لم يكد يتم منها سوى تسهيل تكميل امتيازها القديم الذي اخذته من منيليك والمتعلق بالسكة الحديدية الممدودة من جيبوتي الى اديس ابابا . ولو لم تكن الحبشة « جلدة » أي جلدة سميكة ، لانتجت معاهدة المتمدنات الثلاث اكثر الله من ذلك طبعاً .

بعد فترة ١٩٠٦ جاء دور من التراخي ، رجوع التحاسد والتنافس فيما بين الدول الثلاث ، مناوشات صغيرة ومؤامرات جزئية لم تنته الى اتفاقات ذوات بال . ثم جاءت الحرب الكبرى ومعها مؤامرات كبرى ايضاً سبق ذكر شيء منها في فترة الحرب حاول كل الطرفين جر الحبشة معه ، ولكن الدور الحكيم الذي لعبته تركها على الحياد . لعب احسن ما في ذلك الدور ولي العهد الرأس « تفري ما كونن » ، وهو اليوم الامبراطور « هيلاسيلاسي الاول » . هذا الرجل يذكرنا برجل شرقي قوي آخر عاند وعاكس في انحدار بلاده الى بالوعة المجزرة العالمية . هو مصطفى كمال الذي لم ينجح كرميله

في صد تيار المطامع الصغيرة، التي كانت لحكام تركيا، عن كب شعبهم البائس الشجاع في الثورة . غير ان الحوادث لم تترك الحبشة في اطمئنان انعزالها . بل أنزلتها في فخ معاهدة اخرى لم تكن تدري شيئاً منها .

هي معاهدة لندن السرية، عام ١٩١٥، التي اقصد . باعت بها ايطاليا حليفتها المانيا واشترت الحلفاء الاخرين . اوقل اشتروها، ومن جملة الاثمان التي دفعت لها فيها كانت الحبشة. دفعت لها، بلى . ولكن عليها ان تقبضها ان ايطاليا الفتاة، المستعمرة الفتاة، لما تزال غرة ساذجة بالنسبة الى القوادات الشائخات . لقد ارادت ان تغازل بريطانيا بانضمامها الى المانيا، وقالت: ربما فازت الاخيرة . لكن ما عتمت ان دخل قلبها الرعب، فخانت الحبيب الجديد راجعة الى الحبيب القديم. وهذا نقدها على مغازلاتها دراهم ورق، قصاصات ورق على حد تعبير الوزير الذكي « بيتمان هو لفيغ » قصاصات معاهدة لندن . ظنت ايطاليا انها ملكت الحبشة بها .

ثم راحت الحرب وجاء مؤتمر الصلح جاءت معاهدات جديدة كلها ملفوفة باعتناء ومربوطة بشرائط حمراء وخضراء وزرقاء كشهادات الطلبة المزهويين . وكان ما كان من

رويات. كان ما كان من التهامات عب فيها المؤتمرون كالخنازير في الزبالة . وكان ان ايطاليا لم يسمح لهـا بالاشتراك في ولیمتهم، فكانما عادت في نظرهم حرف علة او فعلا ناقصاً . لم ينتبهوا حتى الى انهـا وجدت في يوم ما، الا حيث يدور مندوبوها معهم في حلقة الذكر حول موائد المؤتمر . ومن ذا الذي يمنع احداً عن حب الله؟ غير ان رقصة الدراويش وحدها لم تكن تكفي احلام رأسماليهـا . لذلك فقد جرت بين المجتمعين حول الطاولة الخضراء التي أعدت في « فرساي » لتقسيم الشعوب هذه المحاورة الصغيرة :

قالت السنيورا : الحبشة !

فانشأت بريطانيا وفرنسا (وقد جلستا في شخصي لويد جورج وكليمانسو عن جانبي اميركا في شخص ولسون ، كصاحبي موسى يرفعان يديه المبتهلتين على الطور) — انشأتا تقولان :

— شأنك وشأن الحبشة . وما دخلنا نحن ؟ وما تخصنا هذه المسألة ؟ ولم التكلم في موضوع بعيد غير حيوي ؟

لم تقولا « كلا » ، لئلا يحصل لحس امضاء ، مع ان هذ التعبير وما قالا يعنيان بالنتيجة شيئاً واحداً . الا ان ايطاليا

ذكرتها بالامضاء:

— والمعاهدة؟ ها هي في الجيب ايها الحبايب!

فاجابتا: اجتمعنا للصلح والسلام لا للحرب والخصام. ومن يأمرك ايتها السنيورا بان لا تذهبي وتمدني الحبشة؟ اتظنين اننا نتناول سوريا والعراق وتركيا والسار والتعويضات بتوقيعنا الشريف فحسب؟

فسكت السنيور الذي يمثل ايطاليا. ولما كان توقيع هذا السنيور شريفاً لا غبار عليه، ولما كانت الحبشة تحتاج ثلاث دول كايطاليا المنهوكة يومئذ، ومايزيد على خمسين وزيراً محنكاً «كاورلاندو» و«جيوليتي» وشبهها، فقد بقيت المعاهدة حبراً على ورق في متحف الانتيكات الاستعمارية، وبقيت الحبشة على الخريطة بلونها الخاص، والتهى بقية الشرفاء في استذواق طعامهم في كل مكان غير الحبشة. كان لهذه في حسابهم وقت غير ذلك الوقت. وحسابهم لاريب، دقيق.

إلا ان لهذه الرواية نكتة تنتهي بها. ذلك ان بريطانيا، التي كانت ممن وعدوا ايطاليا بالحبشة في معاهدة لندن، اخذت منها لقاء هذه الهدية الخيالية السرية هبة علنية ملموسة تستطيع ان تقبض عليها بشيء من الجهد والتضحية واغتنام الظروف اخذت هذه الهبة ساعة كانت تماطل ايطاليا في فرساي وحواليها،

عندما راح كل كلب يطلب عظيمته . في ذلك الوقت ، في ١٩١٩ ، صرحت ايطاليا بمذكرة رسمية انها تعترف بالسيطرة الاولية للمصالح البريطانية على مياه « تسانا » ، وانها تقدم ، عند ما تطلب « حكومة السودان » ذلك ، المساعدة اللازمة لاقامة خزان عنـد تلك البحيرة . وبهذه التصريح أضاف الكاتالايزر الى أوراقه وحقوقه التي اخذهـا من « منيليك » بخصوص مياه تسانا (فضلا عن تصريحات ايطاليا السابقة بخصوص مياه واشياء اخرى في الحبشة والاريتريا) ورقة جديدة وحقاً جديداً أخذهما من ايطاليا . أعطت ايطاليا هذه الهبة لانها لم تكلفها شيئاً من جهة ، وأملا بان « تسهل لهـا انكلترا الحصول على بعض مطالبها » ، اي على تحقيق نص معاهدة لندن بشأن الحبشة ، من جهة . لكن المعاهدة لم تتحقق ويصعب ان تتحقق . اما غنيمة الكاتالايزر فتكاد تكون في اليد .

بعد ذلك جاء الى ايطاليـا دورها الاستعماري المتطور ، الملتهب ، المتعطش الى الدرهم والدم ، بمجيء النقمات الفاشيستية الصياحة ، المجسمة في شخص رئيس لها كان انساناً قد باع شعب بـلاده لاسياد فتـاكين يدعى « بنيتو موسوليني » ويلقب بالدوتشه وبالديكتاتور وبما على هذا الوزن الالهي من

الاسماء . وكان من جملة تلك النقمات التي لاتحصى واحدة ضد انكلترا من أجل الحبشة ، واخرى ضد فرنسا من اجل مقاطعات كثيرة ضمن قائمة وهمية طويلة من الاحلام الرسمية.
وهنا نصل الى موقف أصرح نوعاً من كل ما سبق . موقف تميل الكفة فيه بالدول الثلاث المحيطة بالحبشة الى التنافس على غريمتهم اكثر مما تميل الى الاتفاق عليها وتقسيمها . هذا ، وإن كان التذبذب بين ذينك القطبين هو ، كما نردد ، أبداًشأن الاستعمار في كل دور حديث من ادواره وتجاه كل منطقة يسيل لمنظرها لعابه ، حتى انك لا تدري متى ينفجر تحابب اصحابه تذبيحاً وتدميراً ، أو في أيةدقيقة يفتل تحاربهم فتلة يبدون بعدها كانهم اصبحوا عشاقاً لا تجنهم في بعضهم الا العيون .

منذ ذلك الوقت (١٩٢٠ - ١٩٢٢) حتى اليوم والدول المحيطة بالحبشة كالكلابات بالعنق لم تتفق مرة واحدة عليها اتفاقاً ثابتاً ، اميناً ، طويل الأمد نوعاً . كانت لاتلبث ان تبدو كانها انفقت فيما بينها حتى ينشب الاختلاف ، فالتشاتم في اجمل القوالب . ألا أن الذي وضع « بانتوميم المائدة الخضراء » قد صور جماعتنا هذه تصويراً عبقرياً للاجيال القادمة من بيننا الذين سيبقون بعد خراب عصر الرأسمالية

والاستعمار (١)

والان لنقرر بان هذا الميلان نحو التنافس على الحبشة هو العبرة التاريخية الكبيرة التي نصل اليها في هذا الفصل. فلنتبعها قليلا بعد اذ عرفنا شيئاً عن القوى ودرجاتها، عن الاساليب، عن المعاهدات ونتائجها.

*
***

اذا كانت البلاد التي يستهدفها المستعمرون شديدة ومنيعة، محنكة وذات موارد اقتصادية واسعة، ويستند الحاكمون فيها على محبة الشعب وشعور وطني قوي عنده وإرادة مخاصة لترقيته، فان تلك البـــلاد لايستطيع ان يتفق عليها المستعمرون. لايستطيعون ان يقتسموها ايضاً، كما لا يمكن لاحدى الدول المستعمرة ان تلحق باملاكها جملة تلك البلاد وان جزت منها بعض التخوم والاطراف. وذلك لسببين:

اولاً — لتناقض مصالح تلك الدول وعدم قابليتها الائتلاف الا عرضاً وسطحياً. مثلا: يمكن اليوم لانكلترا وايطاليا ان

(١) البانتوميم، تعني الرواية الصامتة التي يتكلم الممثلون فيها بالرموز والاشارات امامهم التي نذكرها فهي قطعة لم ار اروع منها في مثل هذا الفن، وقد شاهدتها في «الكازينو دي باري» في عاصمة الكومون». موضوعها كان يدور حول موتمرات السلام ونزع السلاح التي تبتدي، بالخطابات وتنتهي بملايين الاموات تهكمها المحزن المرير كان من اسمى نوع وقد نالت جائزة دولية كبيرة

تتفقا على تقسيم الحبشة حباً ببعض الغنيمة طالما لا يمكن لاحداهن الحصول عليها كلها . ولكن ما ان تتفقا حتى تصطدما ، لان انكلترا تجد ايطاليا الاستعمارية الجديدة توشك ان تربض، بقسمتها الجديدة المضافة الى املاكهـا الشاطئية السابقة ، في قلب امبراطوريتها ربضاً مزعجاً جداً . كما ان ايطاليا بطبيعتها التوسعية ما ان تظن انها ضمنت القسم الذي اخذته حتى تأخذ في الاتجاه نحو البلاد المجاورة التي تخص انكلترا ، فترسل دعايتها بين اهاليها وتحضر فيها مؤامرات من كل الانواع ، مما يعني انها اصبحت تناصب حليفتها العداء بسرعة ، حتى قبل ان يتم الاستيلاء على الغنيمة . وهكذا . . .

ثانياً — لان البلاد . المحنكة ، الشديدة البأس والمراس والروح القومية ، ذات الموارد الواسعة والتي يستعد حكامها للسير بها في سبيل الاصلاح السريع ، تاخذ عند اول بادرة تبدو لاتفاق الدول المستعمرة عليها بالتلويح لاحداهن (او لبعضهن) بشيء من مواردها التي لا يؤثر عليها اعطاؤها ، بل التي قد يفيدها ويأتيها بمبادلة منافع جيدة اذا عرفت كيف تستعمل هذا الاعطاء . فتكون النتيجة ان الدولة (او الدول) التي عرضت عليها المغانم تغتر بها ، اظنها بانها سترجع الربح

منفردة ، وبانها ستحرم زميلاتها من اي شيء فيبقين دونها في الميزان الاستعماري . لذلك لاتلبث ان تخرج من عصابتهن خروجاً مقاوماً لهن ، مؤدياً الى استقرار التنافس فيما بينهن بعد ان كان بينهن جميعاً وبين البلاد المستهدفة . وفي الغالب تنتهي المسألة الى ان لاتعطي هذه الاخيرة شيئاً ، بل وقد تأخذ. وفي باب التلويح بالغنائم لواحدة من الدول المتفقة (أو لبعضهن) تهديدها اياها ايضاً بان تعطي سواها . وهكذا نجد البلاد المستهدفة تتملص من بين مخالب الدول المتعدية ، فتوجه خنجرهن المسموم الى قلبهن بعد ان كان موجهاً الى قلبها .

هذا الأمر الذي يمكن ان يعتبر كقاعدة في علم السياسة وفنها قد أيده الواقع العملي تأييداً لايقبل المناقشة الكثيرة . فان بلاد السوفيات، تركيا الحديثة ايران الحديثة والحبشة استطاعت حتى اليوم ان تعدي الدول الرأسمالية عنها لكونها حازت على تلك الشروط من شدة مراس وحنكة في قوادها وشعبها ، من موارد واسعة ومواقع مفتاحيـــة « ستراتيجية » او سياسية دولية وطبيعية « طوبوغرافية » (١) ، واخيراً من حب الشعب لمن

---

(١) الموقع المفتاحي « الستراتجيي » (اي من وجه الفن الحربي) هو المكان الذي يعطي المستولى عليه قدرة او ما

يسمونه « افانتاجاً Advantage على العدو لسد الطريق امامه ؛ او لفتحها امام ذلك المستولي ؛ بقوة اقل من قوى ذلك العدو . مثلا : جبل طارق وحصونها ؛ مضايق الدردنيل ، العقبة والسويس ، فلاديفوستوك وطياراتها التي تستطيع ان تمحق قلب اليابان وتعطل دماغها الاداري والصناعي قبل ان تستطيع هذه الدولة العسكرية السخيفة حتى التحرك في حواشي بلاد السوفيات ،خط السد البحري الجزائري الذي يمتد من جنوبي ايطاليا عبر صقليه حتى خليج تونس والذي تستطيع حتى دولة محطمة منحطة كايطاليا ان تلغمه وتحصنه وتسلط حواليه اسرابا من الطائرات بحيث تقطع به الطريق بين بريطانيا وامبرطوريتها الاسيوية الافريقية قطعا قتالا لها . هذا وهناك اماكن كثيرة يظنها الناس مفاتيح هامة ؛ بينما هي في الواقع اوهام وخيالات مرصوصة ،والمثل على هذا تجده في قواعد « سنغافوره » الهائلة التي ليس لها فائدة عملية كبيرة تتناسب مع ضخامتها والقصد منها حتى ولو كان القصد دفاعيا لا هجومياً .

اما الموقع المفتاحي من الوجهة السياسية الدولية فمن خير الامثال الموضحة له موقع تركيا وايران الملاصق لبلاد السوفيات .فهذه البلاد التي لاتعيش من اسلاب الامم المظلومة في الخارج بل من انتاج النظام الاشتراكي في الداخل لا تحتاج الاستعمار وتكرهه

يحكمونه على الاصلاح الانقلابي السريع في مصلحة الشعب . ان اجتماع كل هذا او معظمه قد انتج في تلك البلدان تلاعباً بالدول الاستعمارية يعطل تلاعب هذه بها . ولا يفل الحديد الا الفولاذ !

اما كيف تتجلى لنا تلك القاعدة الاستعمارية بالاقتران مع الحبشة ، فبنظرة صحيحة بسيطة نلقيها على تنقلات خطى انكلترا وايطاليا وفرنسا من حولها ، منذ الهدنة حتى اليوم ، يلبس تلك القاعدة تشكلها الحي ويبرز ثبوتها القوي بجلاء ومحسوسية

وتساعد الشعوب المظلومة ضده . وقد ساعدت تركيا وايران فاستتب تحرر هاتين الدولتين وطعنت المستعمرين ، وفي طليعتهم بريطانيا ، الطعنة النجلاء بذلك .

واما الموقع الطبيعي « الطبوغرافي » للبلاد فهو صفاتها الجغرافية الخاصة ، كالجبال والامطار والصحراوات الحبشية مثلاً ، التي تجعل فتحها من اجل الصعوبات ، وكالمسافات الشاسعة التي يتألف منها اتحاد الجمهوريات السوفياتية والتي تكفل ، بالاضافة الى جميع العوامل الاخرى ، استحالة التغلب عليها ، وبالتالي استحالة القضاء على اساس النظام الشيوعي وبذرته المولدة مع امكان القضاء السريع على النظام الراسمالي واصحابه وديكتاتوريه وحالبي شعوبه

رائعة في تفكيرنا .

بعد الهدنة غرقت الرأسمالية الايطالية في خضم من مشاكلها وفخاخ صنعها حتى خلقت وسلطت الفاشستية سلاحاً لها تخلصها (١) ، هذه الفاشستية المدمرة الرعناء التي تلقت مساعدة لا يستهان بها من الرأسمالية البريطانية نفسها . والرأسماليتان البريطانية والفرنسية من جهتهما كانتا منشغلتين بجعل دولتيهما توطدان استعمارهما في ممتلكاتهما الجديدة ، في استغلال معاهدة فرساي واستحلاب المانيا بكل ما عندهم من جهود ، في الانهماك بتوسيع الاسواق الموجودة وجناء الارباح الهائلة . لكن ما ان ارتاح بال الرأسمالية الايطالية قليلا ، واطمأنت تتنفس الصعداء الى نعومة فراشها الفاشستي الوثير ، وما ان تسهلت حركة دواليب الاستعمارين البريطاني والفرنسي من جديد وانغمست آلاتهما تدوران بتوطد وقوة استمرارية ، حتى رجعت قابليات الثلاث الى ضجيعتهن الافريقية المنشودة

---

(١) انظر الكتاب الثاني من الجزء الاول من «حميات في العرب» ، حيث الفصول المعقودة على ايطاليا الفاشستية . وانظر كذلك كتاب «بالم خطه» البديع «الفاشستية والثورة الاجتماعية» .

تنبض وتتوقد . رجعن يحرقن التفكير بها ويقسمن في جداولهن اخماساً على اسداس لعل النتيجة تكون بدون كسر . تارة يحاولن ادارة المربع وتارات يجربن تربيع الدائرة !

كان الخوف في ذلك الوقت على الحبشة من بريطانية اكثر منه عليها من زميلتيها الاخريين . وكان خوف الزميلتين عليها شديداً لانه كان يصعب عليهما ان تقتحما الحبشة فيما اذا سارعت بريطانيا الى ذلك ، أومدت يدها الى قطعة سمينة منها . وكانت ايطاليا اشد اهتماماً بالامر من فرنسا لان تحمسها الفاشستي الاستعماري المشتعل اشتعالا ، وما سبق من غمط « حقها » بعدم فرز حصة لها من سلائب الحرب ، وانسداد جميع بقاع الارض في وجهها (لانها جميعاً اما مستعمرة ومنتهية الحساب ، واما اقوى منها ، واما بعيدة جداً عن متناولها) ، ومركز الحبشة من حيث لصوقها بمستعمرتيها في الاريتريا والصومال ، ومغريات الوان الثراء الطبيعي المكنوز في ارضها — جميع ذلك دعاها الى ان تعمل على إحاطة الحبشة بسياج لئلا تقع لغيرها . واذا قيل : لماذا لم تعمد اليها بالالتهام وا كتفت بان تعمل للمحافظة عليها من مخالب سواها ، كان الجواب المحكم على هذا السؤال بأن ايطاليا ، وان كانت قد

استطاعت بعد استتبابها الفاشستي ان تفكر في الحبشة وتحيطها بالمداراة والمراقبة ، الا ان جميع الظروف من داخلية وخارجية ،من مادية ومن معنوية،لم تكن تواتيها بعد على ابتلاع جارتها الافريقية .

في ذلك الوقت كانت أمور الحبشة وحياتها السياسية تتمركز شيئاً فشيئاً حول الشخص البصير الفذ ، الراس « تفري ما كونن » الذي سبق ذكره . والخطوة الاولى الميسورة التي رغبها ورأى فيها فائدة ودعامة لاستقلال بلاد شعبه ، كانت في ادخالها كعضو الى عصبه النفاق الاعظم يومذاك ، عصبة الامم . ولما تقدمت الحبشة بطلب ذلك الى عصبة الامم في عام ١٩٢٣ ، رأت ايطاليا ان قبولها مفيد لها ايضاً وان العصبة تكون ذلك السياج الذي تحفظ فيه نعجتها من اسد « البيون » وضبع فرنسا وبقية الثعالب الصغار . فشدت ايطاليا أزر الحبشة في طلبها . ولم تكتف بتأييد الطلب فحسب ، بل تقدمت هي نفسها بطلب ادخال الحبشة في حديقة الحيوانات الشهيرة بجمال انواعها وندرتها في جنيف . ثم أيدت فرنسا ايطاليا والحبشة معاً ، برغم العداوة التي كانت محتدمة وقتذاك بينها وبين الاولى بسبب

المطالب والعوايات الموسولينية لاراض ومستعمرات فرنسية، خوفاً من ان يلتهم النعجة برمتها ذلك الاسد الخبيث الذي كان يسبقها الى كل ما لذ وطاب من جسم العالم . ومن الطبيعي ان يكون ذلك الاسد قد عاكس المسألة كل المعاكسة اجل ، وكانت « زعيمة المدنية » في ذلك المشهد تلطم خدها حسرة على اجلاسها بجانب الحبشة في الحديقة ، بجانب هذه البربرية التي تأكل اللحم البشري لان بريطانيا لاتستطيع ان تأكلها بمحبة وسلام وبركة الله . اجل ، كانت انكلترا يومذاك هي التي « تبوق » وتصيح ضد ادخال الحبشة الى الجمعية بحجج انها بلاد همجية ، يسود فيها الرق ، لاتتمتع حكومتها بسيادة مركزية عصرية ، لاسلطة لهاولا أمناً ولا نظاماً ولاروحاً مسيحية ولا ثقافة ولا رأسماليين فيها . لكن ايطاليا بدعم عدوتها فرنسا لها غلبت « صديقتها » ومعلمة رأسماليتها ومموّنة فاشستيتها .

وهكذا دخلت الحبشة العصبة ، فكانت هي الكاسبة بقوتها ومناعتها على ايطاليا ، وبحنكة المتكلمين بلسانها والعاملين لمصلحتها ضد مصلحة اللوردات في لندن . هكذا كانت الدول الثلاث خاسرات . وهكذا نجد ان « العداوة »

« والصداقة » الفاظ واوهام في قاموس الاستعمار ، وان الطمع الأشعبي في المصلحة القريبة ، هذا الطمع الغريزي المنغرس في طبيعة الاستعمار نفسه ، محتم له ان يعمي ابصار المتكالبين الراضخين ، شعروا او لم يشعروا ، لتلك الغريزة الضيقة بمجرد وجودها واستفحال اسبابها .

ثم هكذا ايضاً نجد ان الاستعمار في دوره الحالي (الحادث بعد الحرب) من امتداده وتشابكه ، من تداخله واحتكاكه وتعاكسه في جبهات عديدة في آن واحد ، من انتشاره العالمي الكثيف ورضوخه لعوامل كثيرة جديدة سيأتي تبيان اهمها — هكذا نجدمن كل ماتقدم انه يجعل الدول تشقق وتختلط متحاربةً ومتحالفةً في آن واحد بحيث تتشكل بينها عدة جبهات ، بحيث تحارب الدولة منها في جبهة ضد حليفة لها في جبهةاخرى ، وتصادق في مكان او مسألة اومصلحة اخرى . (مثلا : فرنسا عدوة ايطاليا في اوروبا وصديقتها في الحبشة . انكلترا صديقة ايطاليا ضد فرنسا في اوروبا وعدوة لها في الحبشة وهلم جراً . . .)

ولو قيل لماذا تحمست ايطاليا لادخال الحبشة عصبة الامم وذلك يقوم عقبة بينها وبين الحبشة كما يقوم بين انكلترا وبين الحبشة ايضاً

لو قيل ذلك لكان الجواب الواضح المفهوم عليه ان ايطاليا الفاشستية في عام ١٩٢٣ ، وهي تفكر بحفظ الحبشة من غلمة سواها بواسطة ميثاق عصبة الامم وهي وراءه ، لم تكن تظن كثيراً ان هذا الميثاق نفسه يحفظها منها وسواها وراءه ! لقد فكر ساسة ايطاليا (موسوليني ونسخه) بانها حين تصل الى حالة من الاستطاعة المادية ومواتاة شتى الظروف تبتلع الحبشة ملفوفة بميثاق او بدون ميثاق ، وذلك طبقاً لروح المبادىء الموسولينية ، طبقاً لتعاليم الفاشستية التي تصرح بكل سذاجة بان القوة حاكم والضعف حمرنة وجرم .

وطبعاً ، مثل هذه الغلطة الاساسية البسيطة المظهر ، مثل هذه الخطوة التي تقع على ارض غير متماسكة ثابتة ، هي التي ترقد تحت طيات وطيات من بسط الحوادث وحصر الاوارق وسجاجيد السطحيات البراقة والثرثرات الفصيحة والمناورات الذكية ، لتلغمها جميعاً في ساعة آتية تنضج فيها الامور . تلغمها باسرها ، من اولها الى آخرها ، وتبقى وحدها الحقيقة البسيطة ، القوية ، العارية عن كل سخف وزينة . وتبق وحدها ليسقط فوقها كالبرد المنهمر اولئك المتجبرون الذين يركبون البشر باسرجة من الاكاذيب والاخطاء . انهم يستغلون هذه

الاكاذيب والاخطاء اسلحة ضد سواهم لفرط ما يسيل من لعابهم المسموم امام منظر غنائمها السرابية القريبة . انهم لا يرونها شيئاً يستعمل ضدهم ايضاً . بل لا يرون بانها ضدهم بمحض وجودها ، بمجرد ارتكابهم اياها . بانها لابد من ان تنقلب الى أفعل عوامل القضاء عليهم ، ساعة يحين الحين بتضخم ما زرعوا بايديهم من شرورهم المجنونة تضخماً انفجارياً لاتحتمل الحياة وقواعدها بقاء اسبابها واصحابها . انني اشبه مثل تلك الخطوة القلقة بغلط تافه لايكاد يبين ، او لا يؤبه له وينتظر له أثراً ، او تحول النظر عن رؤياه خيالات ضخمة ، شامخة ، غاوية ، تقع في اساس بناء كبير . فيذهب صاحب البناء بعد ذلك يرفع صرحه ويرفعه مفتوناً بسحره حتى ينتهي منه . فلا يجد عند ذاك الا والشقوق والتفتت آخذاً بالسريان في بنائه من اعماقه حتى اعاليه . مبشرة بانهياره او بوجوب هدمه من قبل مهندس عاقل يدرك اسرار التدمير والتعمير .

° ° °

بعد حوادث ١٩٢٣ وعبرها (وكلها ضمن العبرة الرئيسية التي نوضحها ومن متفرعاتها) ، نامت المسألة الحبشية في الظاهر حتى عام ١٩٢٥ . اقول « في الظاهر » لان الضجة

والتنافس الحاد الملتهب لم يكن متجلياً على مسرح السياسة الدولية. غيران الميكروبات كانت تعمل كانت الدول ترقص رقصتها الافريقية الممتازة بتلويات البطن الكثيرة، بفتلات السيقان والظهور والعيون وكل عضو من الاعضاء تسري فيه دماء الشهوات المتوحشة عند ارباب الاستعمار الابيض.

وكانت اخبث فعاليات تلك الميكروبات حركة الكاتالايزر الساكنة. فانه، بما في يده من الاوراق والمعاهدات وبما هو متمتع من التغلغل حتى النخاع في كل جسم دولي، راح يلوح باوراقه ويهزهزها في كل جانب، يعمق تغلغله السري والعلني، المادي والمعنوي. كان تارة يهدد هذه الجهة بما في يده، وتارة يغرر تلك الجهة بها، وفي جميع «التارات» يمطر بالوعود ويطيل المساومات على العمولة. اما أنفق دور تصوره فكر لعب في هذا الفصل الحبشي، فقد كان المسؤول عنه والقائم به سكرتير مجلس الملك اليوم، الاستاذ رامسي ماكدونالد، الذي كان في ١٩٢٤ رئيس وزارة سماها سادة الانكليز من قبيل التهكم والتعزية «بوزارة العمال»!

في عام ١٩٢٥ عادة المسألة الى اليقظة وظهر من جديد تفتقات دمامل ميكروبات الزهري الاستعماري على وجوه

اصحابنا الفرسان الثلاث . في ذلك الزمان كانت بعض آمال مستعمري الدول الثلاث معقودة بمحالفة ثلاث في سبيل التقسيم. كانت ايطاليا راضية بهذا التقسيم . تتأمل الحصول على الحصة الكبرى من الاراضي ، لانها كانت راضيـــة بترقيع امورها الداخلية ، وحشو فم رأسماليها الملحاحين بشيء ، وتنفيذ ولو بنداً واحداً ضئيلاً من الالوف التي بنت عليها الفاشستية مجد ايطاليا « الحديثة » في عقول المغرورين من ابنائها ، وأمارة كل صعلوك ومتشرد وجائع في جوعهم الجرارة . ثم كانت انكلترا راضية لانها ارادت الحصول على مياه الحبشة بأية طريقة كانت حصولا مقبوضاً عليه ، وذلك لاستعمالها كمركز لتوسع احتلالي صريح في البلاد ، كضمان ومهيج لمشاريعهـــا الاستعمارية الواسعة في مصر والسودان ، واخيراً لارغام هذا الأنف الحبشي الافطس الذي اتعبها جداً لطمه وقرصه وعضه من دون ان يرغم .

اما فرنسا ، فقد سكتت . وبسكوتها بانت نهاية الامل البارق بالتحالف الثلاثي .

تغنجت اللعوبة قليلا في البدء ، ظانه ان ذلك يجيء اليهـا بحصة تستأهل الاشتراك في الوليمة . لكن لم تلبث ان ادركت

كون تلك الحصة الدسمة لم تكن لها . ثم لم يلبث ان ظهر ايضاً انها غير راضية — بل معادية ! وعلى الاثر جاءت اتفاقيات ١٩٢٥ بين بريطانيا وايطاليا كحركة قد تجعل فرنسا تقبل بالدخول كطرف ثالث كيفما كان الامر ، وبعد ذلك كضربة تنتهي بها المشكلة بوضع الحبشة في الجيوب والخزائن ، بتحويل ارضها وسكانها الى اموال اصحاب رؤوس الاموال .

في ديسمبر تبودلت المذكرات بين الاعيب السنيور والاعيب اللوردات (اي من يسمونهم « رجال الديبلوماسيا » في سياسة العالم الرأسمالي . في هذه المذكرات المتقابلة المقبولة جاءت امثال هذه البنود :

١ — بالنظر للمصالح الحيوية التي لبريطانيا العظمى بما يتعلق بمياه بحيرة تانا (اوتسانا) ، تؤيد ايطاليا مطالب انكلترا في بناء سد على هذه البحيرة ضمن دائرة « منطقة النفوذ الايطالي » كما هو محدد في معاهدة ١٩٠٦ .

٢ — تؤيد ايطاليا مع حكومة الحبشة (كذا ! حكومة الحبشة اصبحت بشطحة في سطر تعني انكلترا وايطاليا) مطالب بريطانيا بشق وبناء طريق سيارات بين بحيرة تانا والسودان .

٣ ــ لقاء هذا يجب ان تؤيد بريطانيا العظمى ايطاليا في بناء وتشغيل خط حديد من حدود الاريتريا الى حدود الصومال الايطالي ، مخترقاً بلاد الحبشة غربي أديس ابابا .

٤ ــ تطلب ايطاليا ايضاً سيادة اقتصادية مستقلة في غربي الحبشة ، وفي كل المناطق التي يمر بها خط سكة الحديد المذكور اعلاه . هذا الطلب تؤيده بريطانيا .(١)

اجل ، بريطانيا تؤيد كل ما يعطى لهــا ، وكل ما تعطي لسواها من دون قبض ، وكل ما اذا أعطي لسواها كان كأ نها هي التي اخذت ما أعطيت ! غير ان القوة تسد القوة . وفرنسا ، منافستها الثقيلة في اوربا ، رفعت عقيرتها بالتصويت والاحتجاج على قلة حياء زميلتيها ، متمسكة في شدة باذيال الحق والحقوق ، وحرية الشعوب وشعوب الحرية ، وعظمة الحبشة ورقيها ، وصداقة فرنسا لها وغرامها ، قائلة بان كل ما اقترفته انكلترا وايطاليا ينافي ماجاء في معاهدة ١٩٠٦ . هذا ، وبالمناسبة ، لابأس من ايراد نكتة ، هي ان تلك المعاهدة لم تنفها بنود اتفاق ١٩٢٥ فحسب ، بل وانها نفسها تتناقض حيث تعترف باستقلال الحبشة من جهة وتحصر تقسيمها بين الثلاثة المعترفين به من جهة!

---

(١) وفي الاتفاقات وفروعها امور امتيازية اخرى كثيرة ، كالمحطات والطرق والاحتكارات المتباينة الخ . .

اما الحبشة ، فانها لما علمت بما يدور عليها ما استطاعت عملا الا ان تواصل ارسال كلمات رقيقة واحتجاجات صارمة الى عصبة الامم ، عصبة انكلترا وفرنسا وايطاليا في ذلك الوقت. لانها كانت تعتمد على قوتها الداخلية في ردع انكلترا وايطاليا عن تحقيق الاحلام ، وعلى مقاومة فرنسا في الخارج . ولذلك لم تلبث القضية ان انتهت الى تراجع المتآمرتين . أعلنت حكومتا الجلالتين البريطانية والايطالية بكل انسانية ولطف سكري ان ليس في نيتهما سوى الخير والفضيلة والاحسان ، ان اتفاقات ثنائية لاتوجب ربط طرف ثالث وما اشبه ، مع ان الاتفاقات الثنائية التي تكلمنا عنها كانت تستعير لسان حكومة الحبشة كانها عبارة عن والد متوف ترك وصيته لوارثيه في نصوص تلك الاتفاقات .

ثم سكتت انكلترا عن هذه الاتفاقيات كأنها لم تكن ، وسكتت عن ما تم من استرضاء فرنسا بحشو فمها بلقمة مقتطعة من جسم الشعب ، لتعود في ١٩٢٦ الى محاولة اكتساب ود الحبشة ولطم فرنسا بتقديمها للاولى منفذاً الى البحر عبر الصومال الانكليزي في مرفأ « زيلع » — الامر الذي لو تم لكان وخزة في قلب فرنسا ، لان ميناءها « جيبوتي » عند ذاك يفقد

امتيازه الاحتكاري بصفة كونه الطريق التجاري الوحيد بين الحبشة وبين العالم (باستثناء الدروب الثانوية الضئيلة بينها وبين السودان) . لكن الحبشة رفضت هدية انكلترا يومذاك لان « جيبوتي » كانت تكفيها ، ولان هدايا الاستعمار الانكليزي لاتكون عادة لوجه الله ، والاكثار من المنافذ الى دنيا موبوءة بجراثيم الاستعمار ليس بالعملية الصحية المرغوبة .

***

ومرت الايام والحوادث على هذا الشكل من تفرق كلمة اعداء الحبشة كما بدا كأنها تأتلف ، هذا التفرق الذي كان يسببه ما ضبطناه عن مناعة تلك البلاد وحرارة الاطماع في صدور « صديقاتها » . لذلك لما جاءت سنة ١٩٢٨ فكر السنيور موسوليني بان احسن ما يفعله امام الحبشة ان يعقد معها ما سماه « محالفة صداقة » كانت في الحقيقة وفي روحها أشبه بهدنة حرب او بقواعد موضوعة لتنظيم العداوة في ايام السلم . ولكن الشعب الحبشي ، الذي أحب ان يتقي شر الوحوش المحيطة به كيفما بدا له شكل هذا الاتقاء ، رضي بالمعاهدة . حتى اذا لم تفده فيما يأتي من الايام بنتيجة ملموسة ، كانت على الاقل سجلا لكلمة ينقضها صاحبها بالسهولة التي

كتبها فيها . (١) وسلوك كهذا السلوك المنتظر من « الرجل الشريف » الذي يري العالم كيف يكون الادمان على التدمير وتمزيق كل شيء حتى اقواله وافعاله ونفسه (٢) ، من

---

(١) فيما يلي ملخص لاهم نقاط هذه المعاهدة :

١ — الصداقة الدائمة بين الدولتين .

٢ — تحديد الحدود بين الحبشة والاملاك الايطالية على بعد ١٨٠ كيلو متراً عن البحر جهة الحبشة .

٣ — انشاء الحبشة طريقاً بين « دينيه » فيها الى « عصب » في الاريتريا .

٤ — حل كل اختلاف يقع بين الحكومتين بالمفاوضات المباشرة . وان لم يحصل اتفاق يصير الالتجاء الى التحكيم ، ولا يكون الحق لاي من الدولتين باستعمال القوة في اثناء سير التحكيم.

هذه النقطة الرابعة موضحة في البند الخامس من المعاهدة ، التي تبين الطرق الواجب اتخاذها عند فشل المفاوضات .

(٢) جاء في الجرائد : قابل صحافي فرنسي ضابطاً بحرياً ايطاليا كبيراً ، فقال له : « أدرك موسوليني انهم نصبوا له فخاً ، ويعترف بانه سقط في هذا الفخ ... وسيرى العالم متى آن الاوان كيف يموت الرجل الشريف » . (جريدة «فلسطين» — يافا — ١٧ ت ٢ ٩٣٥) .

صاحب تلك الكلمة الممضاة باسم « الصداقة » ، قد ينقلب سلاحاً ضده . وكل هذا التوقع حصل فعلا في ١٩٣٥ . لقد صح في هـــذه الايام الفائزة ، ايام الاختلافات والمحالفات الدهليزية والمفاوضات اللولبية المبرومة، تحقدها دول الاستعمار العالمي على روح الحبشة ، ايام الاستعدادات والهجمات الحربية الوقحة التي قام بها فاشسيتو ايطاليا لغزو الحبشة راكبين صهوة معاهدة صداقتهم ، التي قام فيها بقية « العالم المتمدن » لردعهم عنها ، والتي أعدت الحبشة المناضلة اثناءها قبراً لهم فيها أسود عميقاً .

والان لنلاحظ مـــن كل ما تقدم بلاغة الصدق في عبارة الكاتب الثوري الكبير « بالمخط ، » حيث أجمل تاريخ الحبشة السياسي المعاصر بقوله : « نجحت الحبشة حتى الوقت الحاضر في ملاعبة دولة ضد دولة » .

غير ان المستعمرين الاذكياء يدركون ان الحبشة خصم عنيد ، كما يدركون ان اطماعهم وتحاسدهم وتخوفهم مـن بعضهم البعض تسببها تلك المناعة وتزيدها في آن واحد . لذلك نجدهم ـ وهم يرمقون بعضهم البعض بأعين ثعابين شديدة الرقابة ، وكل واحد منهم يمنع الاخر عن مد اليد اليها كلما هم بالامر ـ لذلك

نجدهم دائماً ، وفي كل فرصة ، وفي كل ناحية ، يجتهدون لعرقلة الحبشة عن الارتقاء ومنعها عن ان تضاعف قوتها . يدال على هذا ببروز واتقان تحالف الدول الثلاث عليها لمنع السلاح عنها . وكم أشبه هذه الدول خاطبي « بينيلوبي » في « الاوذيسة » ، اولئك السادة الاشراف الذين كان يطلب كل واحد منهم يد السيدة الجميلة الامينة ، ويحول كل واحد منهم دون حصول الاخر عليها ، ويحاذر الجميع معاً لئلا تفلت من يدهم او يداهمهم زوجها البطل الغائب .

في ٢١ اغسطوس ، ١٩٣٠ ، عقدت بين انكلترا وفرنسا وايطاليا معاهـــدة « تضع نظاماً خاصاً للحبشة بصفتها دولة مستوردة للسلاح » ، كما جاء في كلام المستر إيدن في مجلس العموم البريطاني ، رداً على سؤال للمستر ماندر في جلسة ٢٧ ايار ، ١٩٣٥ . بهذا النظام الخاص ظن الخاطبون ان الحبشة تأكدت لامحالة لواحد منهم فيما اذا لم يتسامحوا في الاشتراك بها على اسلوب الجاهلية واهل « التيبت » في زواج الضمد ! كان مـــن جملة مواد هذه المعاهدة حظر ارسال الاسلحة الى حدود الحبشة ، والغايات من ذلك تجدها في هذين الخوفين :

١ — خوف كل دولة من ان تجري الاخرى تعبئة على

حدود الحبشة ، فاكتساحها منفردة .

٢ — الخوف من ان تتسلح الحبشة ، فتقذف بهم جميعاً في البحرين : الاحمر والهندي .

بيد انه يجب ان لا يغيب عن بالنا ، ونحن نكاد نضيع في شبكات من « اشتراكات » الامراض الاستعمارية وتلوياتها المعقدة ، حقيقة واحدة عجيبة الصراحة ، لامعة كالجمرة الكبيرة خلف عتمة المحروقات . تلك الحقيقة هي : اذا كانت من نتيجة مقبوضة او شبه مقبوضة خرجت من جميع هذه الدورات لاحد ، فهي كسب صريح للكاتالايزر البريطاني . هي كسب له وان كان أقل كثيراً مما أمل وعمل له ، مما يأمل ويعمل له أبداً أبداً .

لقد توصلت بريطانيا العظمى بعد مراوغات السنين الدامية المملة الى اخذ الامتياز ببناء خزان تسانا . لهذه البحيرة وامتيازها قصة طويلة جداً لاتسع هذه الصفحات شيئاً منها ، كما ان لهما اهمية عظمى في تاريخ استعمار شرق افريقيا ، بحيث ان رسل المانيا لما شرفوا ببلاط الامبراطور منيليك فتحوا عينيه بدون حسن نية بشكل فهم منه ان هذه البحيرة وحدها كافية لجلب حرب على بلاد شعبه .

يكفينا الان من تلك القصة الطويلة لاظهار غرضنا الاستنتاجي ان نعلم ان امر البحيرة انتهى بعد الصولات والحولات التي يصعب احصاؤها ، وبعد حوادث واحاديث ومؤامرات استمرت بصورة مشتدة عقب تدخل الاستعمار الاميركي بواسطة شركة « ج . ج . وايت » ، ومحاولة الحكومة الحبشية قذفها في وجه بريطانيا — الى عقد مؤتمر حاسم في اديس ابابا في غضون ١٩٣٣ . كان اعضاء المؤتمر ممثلي السودان وشركة « وايت » ، والحبشة و — مصر ! وكانت نتيجته تعاقدهم على بناء الخزان بقبول الحبشة . والمشروع لا يزال على الورق الى اليوم ، محفوظ في جيب بريطانيا كرأسمال نائم .

اذا كان في المشروع ضرر ما باعتباره خطوة من خطوات الرأسمالية الاجنبية في البلاد ، فان ما يدره على حكومة الحبشة من المال الذى تحتاجه بشدة لتسهل به تقدم الشعب قد يوازي الضرر ، وقد يزيد عليه اذا كانت الحبشة تعرف كيف تستعمله بدل ان يستعملها . اما حكومة السودان ، اي فرع « المكتب الاجنبي » ، ووزارة المستعمرات وبيوتات المال في لندن ، فان المشروع ليس الا امنية بديعة من امانيها القديمة . والشركة الاميركانية كذلك لم تخرج منه فارغة اليدين . بقيت اختنا

العربية مصر ، التي ترادف بريطانيا كالسودان حيث يكون الدفع فتدفع عنها ، وترادفها حيث يكون القبض ، فتقبض بريطانيا بالنيابة عنها ! وهذا ما جاء بخصوصها في عقد خزان تسانا : « ان هذا الخزان تبنيه مصر وتدفع المصروف عليه في الدرجة الاولى ... »

والان نرجع الى العبرة فنقول : نجد الاستعمار يتنافس فيما بينه (شركة « وايت » وبريطانيا في هذه الحالة) ، فيخرج هدفه القوي المحنك من المعمعة إما رابحاً وإما ، على الاقل ، سليماً من توالي لطماته ، بل وربما مستفيداً منها حسب فكرة « نيتشه » في « الايكي هومو » ، التي تقول بان كل فرصة تصيبه ولا تقضي عليه تزيده طلابة . نجده يتصرف باموال الشعوب الضعيفة التي يحكمها ، فان لم يربح من هدفه القوي رجع الى خادماته يغترف من كيسهن ، وخرج لذلك ولكثرة تلك الخادمات وتحكمه بمواردهن رابحاً كيفما كان الامر (بريطانيا ومصر حيث تدفع الاخيرة عشرات الملايين في سبيل الاستثمار الانكليزي للخزان) . ثم نجد ان ركن الاستعمار الركين و « ذخيرته » ، كما يسميها ستالين بدقة في كتابه الكلاسيكي « المسائل اللينينية » ، التي يمد يده اليها كما

انسد امامها الطريق الى جيب هدفه القوي (الحبشة مثلا)، هي البلدان الضعيفة التي يتسلط عليها بقبضة حديدية (كمصر في هذه الحالة). بعد ذلك نستنتج بانه طالما كان الاستعمار قابضاً على هــذه « الذخائر » بقي حياً قائماً على رجليه، وانه لا ينحل ويسهل تصويب الضربة اليه التي تعدمه وجوده الا اذا خلصت منــه فريساته وعاشت مستقلةً بامورها كما تعيش اهدافه القوية. واخيراً: نجد ان انكلترا ربحت شيئاً برغم القاعدة فيها (التي تقصد منها ان تطبق عـلى الكل لا على الجزء، على الحبشة كلها، لا على مشروع « تسانا » وحده). هـذا، مــع ان فرنسا لم تكد تضع شيئاً في جيبها، وبينما ايطاليا التي اخذت تحلم بالحبشة منذ ما وصل باباواتها الوسطيين عــلم بوجودها لم تقبض غير معاهدة الصداقة، وغير مراكز جيش من القناصل والجواسيس تزرعهم في ابعد اعماق البلاد، لا لشيء الا ليستفيد منهم الاحباش ببنايات جميلة تقـل في ايطاليا مثيلاتها ومحطات لاسلكية من الطراز الاول لقاء ما يدفعونه لهم مــن الاخبار العتيقة والعبارات الرقيقة عـلى مآدب الامبراطور. (١)

---

(١) محطة اللاسلكي في اديس ابابا، مثلا بناها الايطاليون كنقطة من

هـذا ، والان بعد ان غدت منابع النيل باجمعها وشك الدخول في قبضة بريطانيا العظمى ، فللعالم ان لا يستبعد — فيما اذا توفقت الى السيطرة المطلقة على هذه المياه بحراب احتلالها وسدودها وأقنيتها — ان تنقلب الخرافة القديمة عن قطع مجرى النيل الى حقيقة ممكنة .

* * *

الخلاصة ، نكتب هـذه الصفحات لنستخلص الدروس ونعممها علينا اجمعين ، لنشدد على ضرورة الاستفادة العملية منها في سيرة الحبشة وسيرتنا جميعاً ونحن نقاوم الاستعمار ، عدو جميع شعوبنا الشرقية والذي رأيناه حتى الان وان كان بسيطاً، سريعاً وناقصاً من وجوه كثيرة ، يكفي بالاشتراك مع كثرة الحوادث المحلية والعالمية الحاضرة ، ومع بلاغة معانيها الموافقة

نقاط توغلهم الاستعماري . لـكن الامبراطور هيلاسيلاسي لم يلبث ان صادرها منهم معوضاً عليهم بما هو الثمن الحق لها وبما توازيه قيمة المحطة في نفس الوقت اضعافاً بالنسبة الى حاجة الحبشة بها . ومثل هذه الحاجة الحيوية لبلاد تريد ان تتحرر يعرقل الغربيون واليابانيون المستعمرون كل طريق الى سدها

حسب ما يتراءى لنا لكل ما ندعيه — نقول : يكفي كل هذا لايقاظنا ، لتنوير سبيلنا ، لتنبيهنا ليس فحسب الى ما يحصل في هذه الساعة الرهيبة في التاريخ من محاولات لتجديد الهجمة لاجل ابتلاع الحبشة ، بل والى ما يضمره ويحفظه الاستعمار لجميع الشعوب المقهورة ، بل لجميع شعوب الارض ، من مصير تاعس مشؤوم فيما اذا اطلقت له اليد ولم تبتر ويقض على اصحابها قبل سيرهم بنا حثيثاً في طريقهم المخطوط المحتوم ، طريق الحرب العالمية لاجل تقسيم العالم ، واستعباد جميع من لم يستعبد بعد ، وتعطيل التقدم والراحة والحرية البشرية تعطيلاً مؤخراً لنموها ، مجرماً بحق حياة وطمأنينة مئات الملايين .

ان الموضوع الحبشي هو موضوع الساعة . من حوله يدور عراك عظيم قد تكون نهايته العراك النهائي الذي يقع في هذه الحرب الطويلة ، الهائلة ، القائمة بين الاستعمار والرأسمالية من جهة ، وبين حريات جميع الشعوب المقهورة (وفي طليعتها شعوب الهند والصين والبلاد العربية الآسية العظيمة) وجميع الطبقات العاملة (وفي طليعتها جمهوريات السوفيات) ، من جهة .

لم يكد يبقى من مجال مفتوح تتزاحم عليه دول الاستعباد الا الحبشة . تتزاحم عليه مجتمعة ومتنافسة بالتبعية لاسلوبها

القديم الذي شرحناه في ذلك . تكاد الحبشة تكون الحوض الفارغ . الضعيف نوعاً ، الوحيدالباقي الذي يتسع بعدلانسكاب مطالب الاستثمار والتجارب الرأسمالي فيه ، وبالتالي لكل ما يمتاز به من فوضى وشقاء . وهذا الحوض يمتلئ الان بكل ذلك دقيقة بعد دقيقة . واذا ما امتلا لابد من ان يقع الانفجار . كما يمكن جداً ايضاً ان يقع هذا الانفجار الان وقبل ان يمتلئ بل كما يمكن جداً ان يقع حتى فيما اذا لم يمتلئ بفضل مناعة الحبشة كوطن قوي يدحر الهجمة عليها . ولكن كيفما يكن الحال ، فالحبشة تبدو الان لجميع من يترقبون الحوادث ويرقبون سيرها ويتوقعون نتائجها ، مفتاح « ايو ليس » لفك اسار رياح التطـــاحن الهوجاء بين المستعمرين ، فيأكلون بعضهم بعضاً ، ويأكلون شعوبهم ، لانـــه لم يعد لهم ضمن حدود نظامهم الفوضوي ، الضيق ، المحصور ضمن جدر ارباح الافراد وشركات الاحتكارات ، شيئاً آخر يأكلونه .

قد يقع الانفجار اليوم او غـداً . كل امارة وعلامة تدل على قرب الساعة التي يتخبط فيها الرسماليون (أملا بتخليص انفسهم من الشباك التي يتخبط فيها عالمهم ونظامهم هذا التخبط الحاضر الذي يريع رؤياه والشعور به كل انسان عاقل) الى

اشعال فتيلة الالغام تحت أركان مجتمعهم . اما كيف يحصل هذا الاشعال، او حتى هل ينجحون في احداثه، فامر مبهم له عدة احتمالات .

من الاحتمالات انهم قد يضرمون الحرب على بعضهم البعض . منها أنهم قد يكونون ابعد نظراً من ان يتزحموا فيما بينهم في هذا الوقت الحرج ، فيجتمعون من كل نواحي عالمهم ويسوقون جيوشهم الى اكتساح جنكيز خاني ضد اعداء مشتركين . هناك دلائل كثيرة تشير الى محاولة واسعة لتجميع دول الرأسمالية ، من اليابان في الشرق ، عبر الباسيفيكي والاتلنتكي ، حتى بولندا في الغرب ، في جبهة متحدة ، جبهة غايتها محق الجمهوريات السوفياتية ، اعداء نظامهم الطبيعيين ، وتحقيق الاستعباد والاستثمار الاقصى في مئات الملايين من سكان المستعمرات وطبقات بلادهم العاملة . ثم هناك احتمال ثالث في ان يسبقهم هؤلاء الاعداء فيقتلون حربهم في مهدها ، او حتى وهي جنين في الرحم ، وهي فكرة في دور التنظيم ، بواسطة الثورات التي لاتدع لهم مجالا للتحارب قبل اخمادها وترتيب امورهم بعدها، والتي تنتهي في الغالب الى قلبهم عن عروشهم قلباً نهائياً ، كما ترينا بوضوح وصدق كلمات رومان رولان

الخالدة في كتابه « السلم بواسطة الثورة » . واخيراً ؛ هناك احتمال رابع ولا يدركه أو ينتبه اليه ، كما اظن ، الاعداد ضئيل جداً من افذاذ مفكري العالم الانسانيين . هو احتمال لايبدو قريباً من الواقع ، بل يخيل الى متأمله اقرب الى الحلم . ولكن كم من حلم سبق الواقع ، وكم مما بدا واقعاً لم يكن الا مظاهر سطحية لا تدع مجالا لتبين الواقع الاكبر ، الأعم ، الاقرب الى الحدوث .

هذا الاحتمال الرابع هو فرع لفكرة « السلم بواسطة الثورة » او اخت لها . ونستطيع تلخيصه في الكلمات التالية :

تكون المعامع الهائلة الفاصلة بين جبهة الاستعمار والرجعية من جهة ، وجبهة التحرر والتقدم من جهة ، قد انقضت في ساحات بلاد السوفيات وميادين الصين . ينسد السبيل امام المستعمرين — بعد انتصار الاشتراكية العظيم في الاولى والظفر الحربي المنتظر « لجبهة الجهاد الوطني » في الثانية — الى هذه البلدان . كلما بدا شبح الحرب في مكان هرب الى مكان بسبب مهارة ، بل عبقرية ، السياسة السوفياتية في ادارة دفة التوازن العالمي ، هذه السياسة الحكيمة التي يرجع اليها والى مجرد وجود السوفيات القوي الناجح الفضل في عدم نشوب الحرب في

السنوات الاخيرة الماضية ، التي لم ير العالم في كل تاريخه مثلها غلياناً وتجهماً واستعداداً لوقوع اروع ما يتصوره العقل من الانفجارات . تتقذف دول الرأسماليين بسبب هذا الانسداد في سبل الترقيع امامها الى معاركة مشاكلها الداخلية المستزيدة ، المهددة بالانقلابات في بلدانها ومستعمراتها ، المتضخمة دقيقة بعد دقيقة بفضل توالي الأزمات وتسارعها وتعمقها وتضخم تناقضاتها وشرورهـــا ، وخروج اسواق السوفيات والصين واسواق بعضها البعض من يد استثمار رأسماليات بعضها البعض المشتتة . تضعف هذه الرأسماليات بنتيجة هذه الاحوال شيئاً فشيئاً ، سائرة نحو الانحلال والتضاؤل (١) ، حتى لايعود في

---

(١) وهذا ما هو حادث بالواقع والاحصاء في كل مكان في العالم . فالاغنياء يقلون اكثر فاكثر . المليونيريون يقلون يوماً بعد يوم ، مشكلة بعد مشكلة . مليونات المليونيريين تقل عدداً وتأخذ ارقامها واصفارها بالهبوط . كل شيء يهبط قيمة و كمية في العالم الرأسمالي ماعدا الدعاية والجيوش التي يرجى من تضخيمها ان توازي كل ما يحصل من التناقص في بقية النواحي جميعاً . وهكذا نلاحظ ان الرأسمالية لاتقضي بنظامها الفردي على جميع الطبقات بالهبوط فحسب ، بل يجرها هي ايضاً نحو التضاؤل .

يد كل منها غير جهاز بحالتها المنهوكة ، المتوترة ، المفقودة الدماغ الصحيح والدعامة الشعبية اللازمة وغير نظام واساس اقتصادي محطم . اخيراً ، تسقط الرأسماليات المختلفة ، المتباعدة ، المتعادية بسبب اشتداد تنافسها الملازم لتلك الاحوال ، امام شعوبها المنهوكة المهتاجة بتدبير وتنظيم احزابها الثورية المختلفة ، بضربات انتفاضية ، فتتعتعها بسهولة كما تنقر الفرخة قشرة البيضة فتكسرها وتخرج مولودة للحياة والشمس من جوها المظلوم الضيق . اقول « بسهولة » ، لان نهاية على هذه الصورة ، مهما صحبها من المناوشات والاضطرابات او حتى من الثورات الداخلية ، ليست بشيء ذي بال فيما اذا قيست بحرب تقع بعد هذا التقدم المشاهد في اجادة مخترعاتها « الابادية » . بهذه النهاية لا يعرو العالم انفجار رأسمالي استعماري مريع على قياس ووزن الحرب التي سبقت ، تلك « الحرب العظمى » التي غرست في اعماق النفس البشرية كرهاً ونقمةً شديدةً ضد اي شي جنوني يشبهها .

هذا هو الاحتمال الرابع الذي يتراءى لي امكان حدوثه . الذي اعتقد بوجوب السعي اليه اذا امكن السعي وظهر الامر لمن هم اعمق اطلاعاً على حقائق الامور وبواطنها ميسوراً

لادارة الدفة اليه .

***

كل هذه الاحتمالات المدهشة ، القضايا الجبارة التي تهز العالم من اساساته وتتدافع افكاره وحياته وقواعده مدافعة اوقيانوس هادر عاصف لمركب يائس ضل ربانه المسير ، تخطر في البال على اثر تطور قضية الحبشة التي رافقناها في هذه الصفحات تطورها الراهن المريع . كلها ، سواها ايضاً مما هو ليس الا فرضيات مخلطين واوهام خائفين على مقاعدهم ، فوقها جميعاً جبال من الكلام ، الكتابة ، الثرثرة ، البحث ، التكهن ، التداول ، التآمر ، التفلسف والتناقش ، تثيرها ما وصل اليه في هذه السنة (١٩٣٥) تنافس الدول المستعمرة على الحبشة ، ما يرافق ذلك التنافس من صعوبة هضمها ، انسداد سبل التوسع امامها في كل مكان آخر ، تضخم ازماتها ومشاكلها وتمركزها من حول الجبشة اكثر من كل مكان آخر ايضاً ، واخيراً وصولها في جميع ذلك الى هذا الحد الذي نشاهده والذي يشم العالم منه رائحة البارود والغاز تتصاعد فوق اشلاء الابرياء المحروقة العفنة .

والآن ، لنتقدم من حيث وصلنا في الكلام عن طبائع

الاستعمار وماضيه وجولاته حول المملكة الافريقية العريقة منذ أبعد اوقاته — لنتقدم من ذلك نحو اكمال تمحيص امور هذا الاستعمار ، اسراره ، الاسباب المباشرة لأزمته الحاضرة امام هدفه الشديد المراس ، اقواله واساليبه ، حقائقه ومدعياته، مظاهره وفضائحـــه ، قواه وقوى اضداده ، نحن وهو ، وفي النهاية : مستقبله !



الدكتور جيكل والديكتاتور هايد

« ذات عصر بارد ، حزين ، من يناير ظهرت في شوارع لندن الاعلانات الاولى عن الحبشة . « حادثة دموية في الحبشة» كانت واحدة تقول . « موت ١٣٥ » ، قالت الاخرى . كانت جميع اخباريات الصحافة موجزة نوعاً ، وجميعها جاءت من روما . المراسلون الذين كانوا في « أيس أبابا » لم يكونوا بعد قد علموا شيئاً عن حادثة وال وال . وكنت مارّاً في لندن فحسب ، وكانت المدينة تهمني اكثر من أنباء الحبشة . في لندن، ايضاً كانت معركة تحتدم في ذلك الوقت — حول منارات « بليشا » . لقد وجدت هذا القتال أجذب لي ، ونسيت الحبشة التي كانت أبعدها مما يجلب الانتباه .

« إلا ان الحبشة لم تكن تقبل الاهمال بسهولة . فالاخباريات راحت ترد أكثر فأكثر ، وتلك البلاد صار ذكرها يتردد اكثر فاكثر في البيانات الجديدة ، حتى اصبحت الامبراطورية المجهولة موضوع الاحاديث اليومية . كان الاهتمام الشعبي ينمو، فلم تعد الحبشة بلاداً مجهولة ... أخذت انباؤها تظهر على

الصفحات الاولى في جرائد القارة ...» اه .

كانت الحـــادثة واسمها الغريب ، وال وال ، بادئ بدء ، شيئين بعيدين عن اذهاننا وشعورنا وتوقعاتها بعد « واق الواق » نفسها عنا . ثم رأيناهما يزدادان ولولة كلما تطورت الواقع حتى اصبحا كانهما يبلعان كل الانظار . والحبشة ، البلاد شبه الخياليـــة التي كانت اقليماً مبهماً كعوالم الفلك الديني وفكرة غير محسوسة في رؤوس معظم البشر ، برزت في وقت قليل ، وقت صاعق التقلبات مسرحي المفاجآت ، حقيقة صارخة ، خطيرة ، يطن بها دماغ العالم ، يدق لها قلبه دق خفوت وهبوب ، وتلاش وتواثب ، كأنها الضربة القاضية على كيان متهدم نخرته الامراض . في اثناء شهر او شهرين او ثلاثة من النصف الاول مـن هـذه السنة بدا كأن مشكلة القرن العشرين ، مشكلة الاستعمار ، بجميع تفرعاتها وقضاياها واشتباكاتها ومصائبها ، بكل مالهـا من ماض هو كل ماضي التاريخ ومن آت هو كل المستقبل ، قد تكتلت وتحلقت حول الحادثـة الشاذة ، التافهة ، غير المنتظرة ، تكتل الماء المتطاير حول محور هوجاء مزوبعة ان أبهم نقطة وأقصى بقعة عن بصر العالم المتلاصق المتناقض وعن سمعه ظهر كأقرب شيء اليه . بل اصبحت الحبشة الدولة

الافريقية السوداء الوحيدة المستقلة ، المجموعة الاقطاعية ، المتأخرة ، الجامعة بين أحوال بداية الانسان الاجتماعية الاولى واوضاعه الوسطية والقديمة ، حجراً اساسياً في مستقبل الانسان ، وشراعاً منفوخاً للمركب المسرع به نحو المجتمع الاشتراكي .

لكن ما هي هذه الواقعة ؟

إنها شيئان . هي نهاية بداية أولاً . وهي ، ثانياً ، بداية نهاية . وهذا ، ولا شك ، كلام مبهم ينطبق على جميع ما تضمه الحياة والكون . فلنفسر ، اذن ، معناه في هذا القسم من الحياة والكون ، قسم الحبشة والعالم في سنة ١٩٣٥ .

كلنا نعلم علم السمع والبصر والتجربة بان من يريد أن ياخذ من غيره بالقوة ما لا يريد أن يعطيه اياه ذلك الغير ، ينتهي معه الى الاعتداء عليه . كلنا نعلم من سيرة الاستعمار في شرقي أفريقيا أنه كان أبداً يمد اليد الى ملك الغير وينتهي معه ابداً الى حادثة محزنة من عديد حادثات التوسع الاستعماري . في كل مكان يدخله كان ينتهي الى الاشتباك بالمقاومة المادية المسلحة مع اهل البلاد اللذين يريد امتلاكها ، ان لم ينته أيضاً بالملاكمة الحربية تقع بين مختلف قواه ودوله وعصاباته . وما وال وال الا نهاية واحدة لبداية ذلك التوسع الاستعماري حول

الحبشة وتجاهها ، وقد نتج عنه فيها نوعا تضاربه : بينه وبين هدفه من جهة ، وبينه وبين بعضه من جهة . ان سيرته القديمة ، المتشابهة الخطوط والقواعد والاسباب والتشكلات ، انتهت في والوال كما كانت تنتهي دائماً ، اي الابتداء بالتعدي والاغتصاب والانتهاء بالقتال . غير أن وال وال نهاية كبيرة ضمت ، اولا ، كل بدايات الاستعمار في افريقيا الشرقية ، ثم ما لبثت ان تطورت وتوسعت كما رأينا حتى شملت بدايات جميع العالم الاستعماري وأضداده في الدنيا ، حتى اصبحت النمسا معلقة بها كما تتعلق تركيا ، واميركا كما فرنسا ، وسوريا ومصر كما الهند وأوستراليا ، الصين كما اليابان ، المانيا واليمن كما بلاد السوفيات والجزر الاسكاندينافية او الاندونيزية .

أما كون وال وال بداية نهاية ، فمعناه أنها بداية واسعة تضم بدايات فرعية كثيرة ، موزعة في كل مكان على وجه البسيطة ، وتتجه كلها نحو نهاية الاستعمار . ان المعركة التي بها يبتدئ دوره النزعي الاخير . من ثورة ١٩١٧ الروسية الى وال وال ، من « الزحف على روما » في ١٩٢٢ واليها ، من ثورة ١٩٢٧ في الصين نحوها ، ومن بداية الازمة الاقتصادية في ١٩٢٩ ، ومن قيام هتلر في المانيا ، ومن جميع

اهتزازات الحرب العظمى ، بل من يوم أتجه أول مبشر اوروبي الى الحبشة ؛ بل ومن ساعة دشن « ولسن » جمعية الامم ، بل ومن اول حجر وضع في بناء الامبراطورية البريطانية حتى آخر حجر — نجد التيار آخذاً بيد الاستعمار الى نهايته عن طريق الابتداء بوال وال . ان هـــذا الاسم الافريقي يشبه حديدة عظيمة ممغنطة جذبت اليها كل قطع المعدن الاستعماري والمعدن المقاوم له . تظهر في ناحية اخرى من العالم ، وباسم آخر ، حديدة أعظم وأقوى مغناطيسية لتجمع كل هذه القطع اليها . لكن وال وال تبق أول قطب إلتقط أخيراً خيوط التنافر والتناقض في حياة كل العالم ، ليتحارب عنه سلبيها مع ايجابيها في الساحات التي انفجرت عنه ، ولينتهي أمرها جميعاً أخيراً ، في هـذه الساحات او في سواها ، الى اندماج السلبي بالايجابي اندماجاً متناسقاً ، متآلفاً ، « هارمونياً » ، تخلص الدنيا به من حالات التنافس والحرب القديمة الراهنة .

في جميع الفصول التي سبقت من هذا الكتاب شرحنا بدايات النهاية الاستعمارية . وفيما يـــلي منه نجتهد أن نصور شيئاً من نهاية الابتداء .

***

في الحياة الاجتماعية بعض القوانين والقواعد الابتدائية التي يصرح كل انسان موزون العقل بانها يجب ان تتبع ، بانها « حق » ، وبانها اذا أهملت تصبح الامور مشوشة اكثر مما هي . طبعاً ، لايتبع كل انسان هذه القوانين والقواعد ، ولكن كل واحد يقبلها « نظرياً » ولا يتجرأ أن ينكرها صراحة (الابشواذ من فقدوا عقلهم السليم او من بالغوا في الوقاحة والغرور والاعتماد على مقدرتهم السفسطائية) . من أول وأهم تلك القواعد ثنتان :

١ — احترام الامضاء .

٢ — الاستنكاف عن الاغتصاب العلني والتباهي العلني به.

والان ، ماذا حصل في وال وال وماذا أظهرت الحوادث التي تلتها . انها أظهرت ايطاليا الفاشستية تقترف « الخطايا » الثلاث معاً : انكار وجرب ولو الاحترام الكلامي لاية قاعدة ، لحس الامضاء بصراحة قوية ، اقتراف الاغتصاب والتفاخر به الى درجة الاعتراف بانه هو « الحق » ، مع ان صورة الحق العالقة في عقول كل البشر تنكر ذلك . أظهرت انكلترا الاستعمارية تحاول كل جهدها ان تصل الى اغراضها تحت ستار احترام ما انكرته زميلتها وربيبتها ، واخيراً غيرها سائرة على

نفس اسلوب بريطانيا ، ولكن في طريق اكثر وعورة وافضح لها . غير ان المثل الأعلى لكلتي الشريفتين هو ايطاليا . انهما لاتفضلانها ، بل نتيجتهما في اغلب الاحيان اكثر وبالا على المستعبدين والمستثمرين . ومع ذلك ، فهما في الحين الحاضر يودان من كل القلب لو يستطيعان تطبيق مبدأ الفاشستية الايطالية وقاعدتها في عدم احترام اي مبدأ وقاعدة ، فتقل بذلك المزعجات التي تفرضها عليهما محاولات التستر والتلاعب والسلوك « الديموقراطي » الذي يكرهونه .

يخبرنا السيد ابراهيم حسون (وربما يكون حضرته الشخص الوحيد الذي حضر الحادثة في قرب نسبي منها وأعلنها بصفته الشخصية ، أي غير مدفوع من جانب الاجانب عواطفه ومشاهداته الخاصة) في مقال له في « الاهرام » (عدد ١١ نيسان) : بان لجنة من الاحباش والبريطانيين كانت مجتمعة في مقاطعة « الأوجدين » ، الواقعة في الجنوب الحبشي ، قرب « جرجيوبي » على حدود الصومال البريطاني وبالمحازاة للصومال الايطالي . لقد اجتمعوا هناك باسم لجنة مشتركة لدرس مشكلة الحدود ، المشكلة « الابدية » او قصة « ابريق الزيت » ، التي لا يملها المستعمرون .

ثم يستطرد السيد حسون بالحرف :

« بعد أن أتمت (اي اللجنة) ... عملها طرأت مسألة المراعي ، واتفقت الدولتان على ان ترخص لهم (يقصد لرعاة الصومال البريطاني) بريطانيا (؟ كذا) بانتجاع الكلا في بلاد الحبشة بدون معارض وبغير دفع أي أتاوة ما ... ولما وصلت لجنة المراعي الى وال وال وجدت الايطاليين منتشرين فيها ، فدنا رئيس اللجنة الحبشي « الفتوراري لتسمى باتي » من الاستحكامات الايطالية مسالماً ، فقابلوه بأفواه البنادق . فرجع الى المعسكر واطلع مستشاره القضائي ، وهو حبشي نبيه اسمه « الافوكاتو تازارلو رنزو » على الامر ، وطلبا من الكولونيل كليفورد ، رئيس اللجنة البريطانية ، ان يذهب مع المستشار لاستطلاع افكار الايطاليين . وبعد ساعة رجعا غير راضين . فحينئذ نقلت اللجنتان مضاربهما الى « عادو » التي تبعد نحو ٣٥ كيلو متراً عن تلك النقطة . وفي ٤ ديسمبر نشبت واقعة وال وال ، وتقهقرت الجنود الحبشية الى « عادو » وعسكروا فيها . وفي غدو وصولهم لحقتهم الطيارات الايطالية وامطرت معسكرهم وابلاً من القنابل . ثم طارت احداها وق المعسكر البريطاني الذي كان يبعد نحو كيلو متراً عن

الحبشي . فالبريطانيون نشروا عليهم لتراه وسلطوا رشاشتين معهم لصدها اذا تعدت عليهم ، فحامت نحو ثلاث مرات فوقهم وقفلت راجعة . ولما أعادت الكرة في اليوم التالي ارسلت اللجنة الى قائد قوات الصومال البريطاني طالبة منه ان يرسل فرقة من الهجانة لتحميهم . اما هذه ، فلم تدخل الحبشه (اباء وشمم والله !) ، بل رابطت على الحدود . وما قاله المستر كيرل والكابتن تيلر وغيرهما كما جاء بالتلغرافات يكفي » اه .

اما « لاديسلاس فارغو » ، فيروي الحادثة كما يلي :

يقول بانه استقى معلوماته من ممثل احدى الدول الكبيرة المحايدة ، لانه وجد شاهدي عيان الحادثة من الاحباش والايطاليين يروونها كل طرف منهم بتحيز . والقصة بحسب ذلك السفير او الوزير تتلخص في انه : عند ابتداء ديسمبر إنتهت اللجنة من وضع آخر حجر على خط الحدود بين الصومال البريطاني والحبشة بعد عمل سنتين ، وكان هذا الحجر الاخير عند ملتقى الحدودين بحد" الصومال الايطالي ، وقد حضر وضعه واقره بالنيابة عن حكومته الكابتن « سيموارتي » الذي قاد فيما بعد جنوده الى حادثة وال وال . ولما كانت اللجنة في طريق عودتها الى « اديس ابابا » مروا بيئر وال وال ، وهو

بئر شهير في تلك النواحي لخلو الاراضي الواسعة من حوله من الماء. (١) هناك وجدت جنوداً ايطالية معسكرة، فأمرها الرئيس الحبشي بمغادرة ارض دولته في الحال. ولكن قائد تلك الجنود رفض وخابر «الماجور سيموروتي» لاسلكياً، فلم يلبث ان ظهر هذا بقوة كبيرة من الجند الأهلي. ثم رفض كل تحكيم مدعياً بان الجنود الايطالية انما كانت موجودة هناك لحماية الصوماليين الذين سمح لهم بموجب معاهدة ١٩٢٨ بالاستقاء من البئر.

لم تقبل اللجنة الحبشية هذا التفسير طبعاً، خصوصاً وقد رات سيموراتي يظهر حالا بثلاثته الجديدة التي يستحيل جلبها من الصومال بهذه السرعة لبعد الحدود لا اقل من مئة ميلا، مما دلّ على انها هي ايضاً كانت داخل الحدود قرب وال وال. من المستحيل معرفة من كان اول من اطلق النار، والغالب انهم الاحباش الذين لم يهضموا هذا الاحتلال الصريح «والجرم المشهود»، والاخلال بحقوق سيادتهم وحرمة بلادهم. لكن

(١) لاهمية هذه البئر في تلك النواحي وبسبب النيات المنطوية في خطط الاستعمار الايطالي ادخلت في معاهدة ١٩٢٨ فقره بخصوصه، تنص على السماح لاهالي الصومال الايطالي بسحب المياه منه. وهذا اعتراف صريح من ايطاليا بكون وال وال ارض حبشية وفي الوقت نفسه نقطة التلاعب والاستغلال.

المعركة ابتدأت عند ذاك . لم تفــد الايطاليين فيها دباباتهم وطياراتهم حتى امام سلاح الاحباش الأبيض ، لان غضبهم كان عظيماً من جراء التعدي عليهم . فأخلى الايطاليين وال وال بعد ان خسروا ٢٣٠٠ قتيلا جعلتم صحافة روما ١٣٥ !..
وفوق ذلك ثار الجنود الصوماليون في الفرق الايطالية ، فقتلوا قائدألهم وهم يقولون : « نريد ان نكون رعايا احراراً ! » (١)

هذه خلاصة الروايه التي استقاها الكاتب المذكور من بحث الاقوال المتضاربة ومعلومات السفير المحايد الذي لم يذكر من هو . وهي عــلى العموم تشبه الرواية الاولى . غير انني شخصياً اميل الى تصديقها على علاتها ، لانني اجد كل حرف فيها يكاد ينطبق على كل ما تعلمناه وجربناه من حياة الاستعمار ، ولأن صحافة روما كلهــا في اثناء وقوع الحادثة هي نفسها كانت بمجرد اعترافهــا بوجود الجند الايطالي في ارض حبشية معترفة بانها متعدية ، عاملة على خرق كل قاعدة جهاراً ، جاعلة نياتها ومبادئها الفاشستية الشهيرة حقيقة مطبقة بجعل فكرة خرق القواعد والحق والقانون من اولها الى آخرها هي ممثلة القانون والحق والقاعدة في حياة المجتمع البشري .

---

(١) صفحات ١٩٨ الى ٢٠١ من كتاب « الحبشة عند مسائها » لفاراغو .

منذ حادثة وال وال والعالم ، والراي العام ، وكل انسان تقريباً ليست له مصلحة خاصة مباشرة بالقضية يتنكر لايطاليا الفاشستية ويعطف على الحبشة ان لم يعمل لها — على الشعب المسكين الذي كان لايكاد يدري بوجوده قبل مدة يسيرة فقط . ولقد حصل ذلك لان الناس وجدوا « الحق على موسوليني »!

ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم والمعركة الاستعمارية القديمة آخذة بالدوران حول الحبشة بسرعة ابداً مستزيدة رغم كل محاولة لتخفيفها . لقد كانت تجري أكثر فأكثر كنطاير دولاب مجنون السرعة . ولم تلبث حتى أصبحت ميدان المعركة العالمية ، يطحن الاستعمار بعضه البعض فيه ، وفيه يهاجمة باندفاعية الكراهية المكبوتة المتفجرة جميع من ينشدون التحرر من أربطة تعاساته .

منذ ذلك الوقت وسنة ١٩٣٥ تشاهد من الحوادث الماثلة التي تضخمت فيها نتائج النظام السائد ، التي تطور اليها ماضي الاستعمار بأجمعه ، التي تكتلت مع تناقضات الأول ومصائبه ومع جميع مظاهر الثاني وهمجياته حول القضية الحبشية ، ما سيجعلها عاماً رائعاً في تاريخ التقدم الانساني رغم الآكلاف المرعبة التي يتطلبها تنين الاستعمار البلوع لقاء خروجه من دور

انهياره الجديد . لقد ابتدات كل هذه النهاية ابتداء جدياً من
وال وال . ان هذا البئر الصحراوي « لامة » كيلو مترية »
عالية تدلنا على مرحلة جديدة من تاريخ الانسانية .

أمامنا وقائع هذه السنة وتطوراتها والتفاتاتها التي لاتحصى.
لا يمكننا ، وربما لا يمكن لاقلام كثيرة الان ، وسط
المعركة التي تجتذب اليها كل فرد ، أن يحصيها ، أو يطيل بحثها،
أو يجيد تحليل دقائقها تحليلا يصور ويثبت كل علاقاتها
وتأثيراتها على مجرى العالم . كل ما نرجوه هو أن نمر بشطحات
تجمل الامور وتضبط حقائقها ومعانيها واتجاهاتها العامة ، ان
نعدد بعض التفاصيل الرئيسية وأهم عوامل التشقق والتجمع
العجيب الذي كنا نشاهده يطرأ طوال هذه السنة على مراكز
القوى الدولية بالنسبة الى بعضها البعض ، وان نبين كل هذا
– وهو قليل مع ذلك – على ضوء الحقائق والاسس
والاستنتاجات التي تثبتها الواقع والتجارب ،والتي بسطناها فيما
سبق ببسط اقتضاب وتسهيل وتكبير بقدر المستطاع .

***

أول ما طالعنا واكثر ما جلب انتباهنا طوال العام
كان في الدرجة الاولى، موقف بريطانيا وفرنسا بالنسبة الى عمل

ايطاليا . ثم مواقف بقية الدول المستعمرة التي لم تخرج واحدة منها عن ورود الذكر بكثافة حول المشكلة . واخيراً ، موقف الحبشة وأعداء المستعمرين .

وأهم ما لوحظ بعد ذلك في امر المستعمرين كان روائع تقلباتهم ومباوراتهم ، إلتفافاتهم واختلافاتهم ، أهاجيهم وتغزلاتهم ، حتى ربما لم يمر يومان متتابعان والشعور السائد بين الناس يستطيع ان يطمئن الى شيء يشبه ما يسمونه استقراراً سياسياً ، وحتى تضاربت الاراء والتكهنات والحسابات والانتظارات بصورة أعجب من العجيب ! كانت التوقعات لاتعرف اي منطق تتبع ، والجميع ينتظرون أدهش التطورات ويحسبون للامر أقل الحسابات خطراً . كان المتتبعون يجزمون بشيء ويجزمون بضده في وقت واحد . كانت الصحف تتكلم كأنها مولعة ومختصة بتصفيف التناقضات وتكذيب نفسها بنفسها . وتطور الامر وتطور على ماعهدنا حتى باتت المسألة سيفاً مسلطاً فوق رأس العالم باجمعه . اصبحت الحالة كان كل شيء لايرى له من نهاية ومخرج الا ان يكون هوة مرعبة تمتلئ بالجماجم والعويل وما يماثل هذين كلما تضخمت الحوادث وراح الناس وارباب الأمر معاً يفكرون في حل لها ، كما بدا

كان ما من شيء إلا ويعاكس ذلك الحل مهما كان عبقرياً. اما حل الشيوعيين، فكان الشعور العميق به يزداد مع استفحال التعقد، لكن دون ان تعترف به الجمهرة الكبير من الناس وتضرب به ضربة الاسكندر بسيفه للعقدة « الغورديه » التي عجز عن فكهما كل صنديد داهية سواه. حلهم — ذلك الدواء الوحيد — كان ولا يزال الدواء الذي لايشفي المريض سواه، لكن الذي لايستطيب طعمه فم المر المريض، فيتلوى ألماً امامه مدة طويلة قبل ان يقتنع ويرى بان لابد له، ان اراد العيش، من تناوله. طوال العام لم تتبين الجمهرة الكبرى بان كل ما عداه عقاقير. لكن تالله من ذلك العام! انه اسرع بالبشرية، بالجمهرة الكبيرة من كل شعب، نحو ادراك هذه الحقيقة. الفرق عظيم بين العالم في اول السنة وبينه في آخرها.

الى ماذا يرجع ذلك الشعور التاعس الذي ساد الناس؟ لماذا وجمت اوروبا والاميركتان ومعظم الشرق مشدوهة عند سماعها صرير مفتاح المصائب الذي استعمله السنيور موسوليني؟ تلك المصائب الجديدة، المتراكمة الظلال، المجهولة البؤر والأجاحيم، المقدرة الفظاعات، التي رأت نفسها لديها فجأة

رؤيا العين واللمس والشم" والسمع .لا نظر وسماع الخطب والفلسفات،والخرافات والتعاليم الجوفاء الخرقاء،والاستعراضات المهرجانية والتهريجات المسرحية الصياحة . ان الشعوب ما كانت ، في الحقيقة ، تصدق شيئاً من هذه التخليطات أو تأخذها في يوم من الايام مأخذ أمور جدية وتدابير غير وقتية. كانت ، وهذا فحسب ، ترى بان لا محيد لها من الرضوخ ، بان سبيل الخلاص لم تصل اليه بعد ، وبأن الأحوال لم تكن او الدوافع معدودة متآلفة . وهذا الامر لا يزال هو ايضاً العائق الأكبر عن اتباع حل الشيوعيين ايضاً ، لان معظم البشر هم في أعماقهم شيوعيون يتوقعون الى التسامي ومحبة بعضهم البعض . كل انسان يكره الاستبداد به او استثماره . اما الاستبداد بالغير واستثماره ، فالاقتناع الاجتماعي بليغ الاساس في ان « الأنا » و « الغير » لا يتجزآن .

نرجع الى سؤالنا : الى ماذا يرجع ذلك الشعور التاعس الذي ساد الناس ؟

الجواب الاول ، طبعاً ، هو في سبب كل علة اجتماعية راهنة خارجة عن نطاق الطبيعة الانسانية . هو في نظام الرأسمالية الذي ولد الاستعمار ، الذي بدوره يولد الحروب

والتعاسات كما شاهدنا واقتنعنا من تجربة الحرب الكبرى ،فضلا عما رأيناه ورآه الجميع من الالوف وعشراتها من الحوادث الثانوية الاخرى ، حتى لم يعد بوسع أكثر كتاب البورجوازية مهارة أو أعمقهم عقلية اسطورية المشرب ان ينكر امام المعركة العامة كون تلك الحرب الكبرى كانت « كارثة الاستعمار الحديث » .(١)

* * *

بيد أن هذا « الاستعمار الحديث » أصبح بعد حربه شيئاً غيرما كان قبلها . لبثت جميع أسسه وعناصره التي عددناها فيما سبق حية موجودة بعد المجزرة التي تسبب بها ، لكن كلاً من هذه الاسس والعناصر غدا قائماً في صورة له أضخم وأخطر من ذي قبل . فمن قبل الحرب كان العاملان الرئيسيان فيه : اماذلك الاتفاق بين الدول والقوى المستعمرة على ضحاياها فتقسيمها ، واما ذلك التنافس عليها فالقتال من أجلها . ثم كان هناك عاملان مضادان ، وانما بصفة ثانوية ضعيفة حتى لم يكادا يجديان فتيلاً . غير انهما كانا أساس كل شيء بالنسبة

(١) هذا التعريف هو عنوان الفصل الثامن والعشرين من كتاب « ملخص التاريخ » لمؤلفه البريطاني الشهير ه . ج . ولز

الى مستقبل الاستعمار، اي بالنسبة لحقبة ربع القرن التي تلي الحرب. هاتان القوتان كانتا قوتي المعاكسة للاستعمار : الاولى مقاومة الشعوب الضعيفة التي يفترسها . والثانية نهضة الطبقات العاملة في الغرب وظهور احزابها الاشتراكية والثورية وتوسعها . تلك الطبقات التي لم تكن تستفيد من الاستعمار الارشوات مقبوضة من بلغ العيش والاجور المخدرة لتستثمر لقاءها حتى انطفاء جذوة النفس ، ثم لتساق الى محاربة بعضها البعض والى الاستعمال ضد الشعوب الضعيفة في سبيل السادة الكرام الذين يفرزون لها تلك الحصص الضئيلة الملطخة من منهوبات فتوحهم و « مدنيتهم » .

ضعف ذينك العاملين المقاومين قبل الحرب جعلهما لا يظهر منهما الا انقياد وخمود وانسياق تحت علم الاستعمار او نعله ، بصرف النظر عن بعض الشذوذ . من ذلك الشذوذ كانت الحركة « البولشفية » التي مثلها واحد من اعظم واشرف رجال التاريخ ، بل واحد ربما كان اعظم من تكلم بصوته واثر عليه تأثيراً مباشراً بقرة اخلاصه لخير الانسانية وفضيلة العلم والعدل ، بعدم انحيازه انحيازاً مخلا قيد شعرة واحدة عن خط الدفاع عن مصلحة وتكامل جميع المظلومين في الحاضر ، وجميع الناس على

الاطلاق فيما يلي وقته . وقد وجد ذلك الرجل ، لينين ، ان طريق الخير والعيش الاخوي العادل للجميع هو درب ثورة الشعوب المستعمرة والطبقات العاملة . فتقدم الى هذا الدرب الشاق ليقود البشر الى مستقبلهم .

ثم مالبثت تلك الحركة التي شذت ونشأت عن وهن وتقهقر أصلها ، أي عن ذينك العاملين ، التي بقيت أمينة كاملة الأمانة لروح العاملين وغايتهما ، لخير جماهيرهما المغرورة واستقامة نضالها ، التي مثلها ذلك الرجل وحزبه الفولاذي الكيان — ما لبثت أن تطورت بسرعة مدهشة . ما لبثت أن شملت القسم الاكبر من المظلومين واخوة المذبوحين أثر صدمات الحرب المريعة وخيباتها . لقد انبثقت الثورات والتمردات العنيفة ، إما تحت قيادتها وإما مستوحية من روحها ، تهاجم الاستعمار في كل مكان من القارات الخمس ، من المانيا حتى اميركا ، من الصين حتى تركيا ، من فنلندا حتى ايطاليا ، ومن الفيليبين والانيد ونيسيا حتى مراكش وسوريا . ولقد تجسد استفحال شأن هذين العاملين المقاومين للاستعمار في صورة الثورة الروسية الناجحة ، التي مثلت اتحاد نهضتي البلدان المستعمرة والطبقات العاملة ، لان الامبراطورية الروسية

السابقة كانت في قسم منها رأسمالية استعمارية (القسم الغربي والشمالي منها خصوصاً) ، وفي القسم الاخر (الشرقي والجنوبي) كانت شعوباً مذلولة، محرومة حرياتها الوطنية ومستعبدة لرأسمالية القسم الاول .

منذ ذلك الوقت دخلت القوتان اللتان كانتا في أواخر القرن الماضي جنينين يتكونان ، وفي أوائل هذا القرن طفلين ينميان ، دور الرجولة . لقد دخلتا الميدان الاستعماري لمحاربته والقضاء عليه . وهكذا تغيرت حسابات الاستعمار وموقفه عما قبل ، بعد اذ تجلى له المعول الاساسي في افنائه يواكبه العامل الاخر الذي هو تنافس قواه فيما بينها . وكل من العوامل الثلاث ، كما ترى ، خارجة من وجوده كما يخرج الدود من الزيتون وفيه .

ثم يجيئنا عامل خامس طلع وظهر ، طبعاً ، كأخواته من نظام الاستعمار الرأسمالي وفيه ، ونمى متضخماً مبتعداً عن قياس أصوله الصغيرة السابقة . وهذا هو الازمة الاقتصادية التي انفجرت من اميركا في سنة ١٩٢٩ لكي لا تنتهي ، أو لتنتهي الى أزمة أكبر منها بعد تحسن سطحي مصطنع لايجدي فتيلا ، لا يستأصل طبيعة الازمات الدورية في النظام الرأسمالي ، الطبيعة

التي تستولي عليه كما يستولي المرض أكثر فأكثر على صاحبه كما شاخ وخرف. هذا العامل هو الذي يخلقه تحارب الرأسماليين الاقتصادي فيما بين بعضهم البعض ، اتباعهم في ذلك طرق انتاجهم الفوضوية ، تدميرهم الانتاج ووسائله التي يمتلكونها بدون حق غير حق الاستثمار والتحايل ، وكل ذلك في سبيل تأمين أرباحهم وحدها مهما رافقها من الجرائم والتعطيل والشقاء الاجتماعي . هذا العامل الخامس هو « النظام » الاباحي الاعمى ، المتروك تدميره للاقدار ولتصرفات أناس جهلاء ونصابين وسفكة لا يرون أبعد من انوفهم وفلسهم الذي في يدهم ، ويتحكمون مع ذلك بالمجتمع تحكماً لا يراد منه الا مثل أعلى واحد هو مراكمة الاموال وحصرها واستخدامها في المراكمة والحصر واستعباد الانسانية بأسرها . ثم هو نفسه الذي يدهور مسببيه بالاشتراك مع بقية العومل ومن تلقاء نفسه ، اذ أنه بعد ان أعطاهم نظامهم ملايين وبلايين عادت ازمته تعطيهم افلاساً وتحوّل بلايينهم الى اوراق لاقيمة ، او لان هذه الاوراق ليست مع احد سواهم فلا يستطيع احد شراء شيء ، فلا يعودون ينتجون شيئاً ، ثم يدمرون المنتوج (١) ، وأخيراً لانه عندما

---

(١) حوادث رمي القهوة في البحر في البرازيل ، وحرق القمح في اميركا ، وذبح الماشيه في هولاندا ، وتحطيم السيارات في اميركا ، ومنع استخراج الكينا وشراء الاختراعات واتلافها ، والوف امثالها لم تعد خافية على احد . ان هذا الجنون يملأ الارض الرأسمالية طولا عرضاً

يتطاول رأسمالي على آخر ويتناطحان ويتضاربان كالديكة المخبولة تكون النتجة المباشرة ان كليهما يخسر ، وكثيراً ماتكون افلاس احدهما ان يفلس الاثنان امام مناطح اقوى ، فتغلق معامل احدهما او كليهما ، ويتشرد عمالهم الذين عاشا على امتصاصهم ، واخيراً تزداد بكل ذلك عرقلة دولاب النظام الذي تعود في النهاية نتائجه الوخيمة ايضاً على الجميع ، حتى على الذي خرج من التناقر رابحاً برغم خسارته الأولى .

هذا العامل هو الذي يخرج كاكليل غار لنظامه قبضة ضئيلة تبقى ملوك عالمنا الحاضر الغارق في بربريته ، قبضة تسلم عبر جميع اهتزازاته التي دهورت صغار « رؤوس » اولئك الملوك ، قبضة تعيث فساداً في مجتمع فاسد ، مخرب ، ثمرته هذه الملايين وعشرات ومئات الملايين من الجائعين والعاطلين واشباه العاطلين ، يموتون نفوساً وجسوماً وهم يعيشون عالة شقية ، كقطيع من الماشية البلهاء التي لا فائدة منها ، التي لا تصلح في نظر ارباب البشر لغير الكب في البحر لئلا لا تسعهم القبور فتفوح جراثيم تعفنهم — عالة لاترى الرأسمالية المستعمرة الباقية مهرباً من إعاشتهم في حالة السلم لئلا يموتون في الشوارع التي يجتازونها ، او لئلا يجنهم عظيم عذابهم ويتحول ضدّهم ،

بدل ان تعيش هي عالة عليهم ، الامر الذي يهدم الشرط الضروري لبقاء الرأسمالية . (١)

(١) يقول كارل ماركس وفريدريخ إنجلز في بيان ١٨٤٨ الشهير:

« ان العامل في العصر الحديث بدل ان يرتفع مع تقدم الصناعة يسقط اعمق فاعمق ، هاوياً تحت مستوى الشروط التي تؤمن الحياه لأهل طبقته . انه يصبح صعلوكاً ، والصعلكة تأخذ في النمو باسرع من نمو السكان والثروة . وهنا يصبح من الواضح بان البورجوازية «اي الرأسمالية ونظامها» لاتصلح ان تكون الطبقة الحاكمة في المجتمع او ان تفرض عليه شروطها للحياة كقانون منزل . انها لاتعود تصلح للحكم لانها تعجز عن تامين البقاء لعبدها ضمن نطاق عبوديته ، لانها لاتستطيع وقفه عن السقوط الى حالة يصبح عليها فيها ان تطعمه بدل ان يطعمها هو . ان المجتمع لايعود يمكنه الحياة تحت حكم هذه البورجوازية ، وفي كلمة اخرى يغدو بقاؤها غير متلائم مع بقاء المجتمع » .

هذا النطق النبوي بكل معنى الكلمة كتبه العالمان العظيمان والرفيقان الكريمان ، ماركس وانجلز ، منذ حوالي تسعين سنة. واليوم ماذا نرى ؟ ليفكر الانسان بالعشرين مليون عاطل الذين تشحذهم لقمات بقائهم راسمالية اميركا ، وفي بقية الملايين في بقية دول الاستعمار ، ليفكر بنصف البشرية باسرها كيف ترقد على اوساخها في مزابل الوجود في الهند والصين وسواها ، كيف تعيش

والان ، ها هي هذه العوامل الاستعمارية الخمس تتصادم وتتعقد حول الحبشة . أربعة منها تقاوم الاستعمار وواحدة تدافع عنه . فانشقاقاته الداخلية تحدث بين دوله ، ومقاومة الطبقات العاملة ، ومقاومة رفيقاتها الشعوب المظلومة ، صاحبات القضية المتحدة مع قضيتها ، والازمة الرأسمالية الاستعمارية — كلها في جبهة تهاجم ، بادراك او بعقوبة او بحتمية التطور الحاصل ، معاقل الانحطاط والهمجية الباقية في العالم ، بينما فكرة الاتحاد الرأسمالي تكاد تكون مستحيلة التحقق (والتي ان تحققت كان زيادة الخير خيراً أكثر من زيادة الشر شراً . . .) تعمل وحدها لبقاء تعاسة العصور المتراكمة واباحية النظام « القانونية » .

ها هي هذه العوامل الخمس تتصارع وتتشكل في ساحات الاستعمار متخذة لها مظاهر التقلبات الشاذة والتنقلات

الجماهير الجرارة منها على الاعشاب وقشور الاشجار . ليفكر كيف وقف نمو السكان والثروة بعد ذلك . واخيراً ، ليفكر بالانقلاب الاجتماعي المنتشر في طول العالم وعرضه بنتيجة هذه الاحوال المرعبة التي خلقتها الرسمالية ، والتي لم تعد تتلاءم مع الوجوب الطبيعي لبقاء المجتمع .

الفجائية الغربية ، التطوحات والمغامرات ، عصبية التوقعات المعقولة وغير المعقولة والانتظارات المقضوضة مضاجع اصحابها، البلبلة الفكرية والقلق العام وعدم الشعور بشيء من الاستقرار، عدم رؤية أي مخرج او حل مقبولين او باديين قابلين للتطبيق ضمن مخارج وحلول اصحاب النظام السائد ، حتى ولا رؤية شيء من ذلك في حروبهم الملطخة الطائشة ، التي إعتادوا أن يلتجئوا اليها لتسوية امورهم وتكثير ارباحهم بالقتل والنهب بامتلاك قيادة جماهير العبيد المذلولة عن طريق استخدام أسفل واخبث الوسائل ، بحقنها بنوبات هائلة من الجنون العام الوقتي، فظيعة البشاعة ، كريهة روائح الانحطاط والدماء .

ولكن اكبر عامل مباشر الفعالية في كل هذا التبلبل يعكر حاضر البشرية التي لاتزال تائهة ، لكن التي لا تزال ايضاً مستبشرة وذوات ايمان بالخلاص برغم كل شيء يرجع في الدرجة الاولى الى فرع يلتقي فيه الميل الاستعماري الى التشقق والميل المعاكس للاتفاق . بل قل ان هذا الفرع لهما هو في الواقع اصلهما يشعان كلاهما عنه . اعني بهذا الفرع او الاصل الجامع انقسام الرأسماليات المستعمرة انقساماً لا كوحدات وطنية ، بل كجماعات لاوطن لها كما ليس لهادين

او رابطة الا دين الربح القريب والمصلحة الانية .

كل متتبع اليوم يعلم بان الشركة التي يكون اسمها بلجيكيا قد تكون في الواقع هولاندية واميركية ، لان حاملي اسهمها هولانديون واميركان . رجال كالمفوضين السامين قد يعملون لمصلحة اية شركة لايملك شيئاً منها اهل بلادهم اكثر مما يتوكلون بالمحافظة على مصالح شركات بلادهم ، لان العواطف الوطنية في الجيوب هي التي توحي لرجال الحكومات جهات اعطاء الامتيازات والاحتكارات على حساب الشعوب التي يحكمونها بسلطاتهم الاقطاعية الحديثة . يخبرنا المؤلفان الدوليان زيتشكا وهاينجن ، مثلا ، في كتابهما « الحرب السرية في سبيل النفط » اشياء كثيرة من هذا القبيل . من ذلك ، على سبيل اللمح السريع فقط . كيف تدافع الحكومة الاميركية عن، وتعمل لمصلحة ، شركات « يتردينغ » الهولاندي الانكليزي ضد مصالح الشركات الاميركية فضلا عن البلاد الاميركية بأسرها ، بينما الحكومة البريطانية تذهب عكس الجهة تماماً . كلنا نعلم ان أنابيب نفط الموصل تخص رأسماليين من اربع او خمس دول ، ولكن قليلا من يعلم ان هذه الشركة دول قائمة بذاتها تحكم لا الاربع او الخمس دول التي ينتمي اليها اصحابها

فقط ، بل غيرها كثيراً ايضاً . العالم يرتجف لمجرد ذكر اسم « الرجل السري » ، باسيل زهاروف اليوناني ، الذي كان يسمسر في الحرب الكبرى وبعدها ابيع اسلحة الى من يقتلون اليونانيين . كان الجنود الفرنسيون يسقطون في الجبهة البلغاريه أثناء الحرب العظمى بمدافع افرنسية عيار ٢٥ . والمسيو « شنيدر » الفرنسي ، الشريك في معامل اسلحة « شنيدر وكريزو » له معامل في تشيكو سلوفاكيا تبيع المانيا وتمون جناب الهر هتلر بما سيستعمله في الحرب الاتية ضد جيرانه . ان فضائح الاسلحة الشهيرة التي اميط عنها طرف من اللثام في مجلس الشيوخ الاميركي في العام الماضي ، فاصطدمت بقية الاماطة بذيول لها في الحكومة البريطانية ، أرت الناس اشياء كثيرة ، لكن الشعور الذي يجب ان ينتج عنها ، وهو ان الراسمالية التي تستخدم الوطنية لاوطنية ، لها لم يحس به على نسبة حقيقته وهوله .

رافع لواء الوطنية الاستعمارية (١) في اميركا هو ملك ملوك صحافتها ، المستر « هيرست » . هذا الرجل دعت عشرات

---

(١) هناك وطنيتان . واحده اعتدائية ، كاذبة واستعمارية ، وهي رذيلة اما الاخرى فوطنية فضيلة ، وهي شعور التحرر الذي يلهب أبناء كل امة مستعبده

صحفه صباحاً وظهراً ومساء الى مبدا «اشتر ما هو اميركي»، بينما هو نفسه كان يبتاع الات طباعته والورق لجرائده من كندا وسواها. عائلتا «متسوي» و «متسوكا» اليابانيتان، الراسماليتا الاقطاعية، تحقنان الشعب الياباني بوطنية فاشستية مسمومة بينما تساهما انكليزاً او اميركين في اشغالهما، وتشتركان واياهم في استحلاب دماء الصين، وبينما ماليو بريطانيا العظمى لايبالون بمجد بريطانيا بقدر ما يهمهم تقدم اليابان الاستعماري، لانهم وظفوا اموالا لهم في مشاريعها. هل ان نظام حيدر اباد، اغنى رجل في العالم على مايقال، وطني هندي عندما يهب نصف مليون جنيه دفعة واحدة لتحصين الامبراطورية البريطانية بمناسبة يوبيل الملك جورج؟ هل الهندي آغا خان حقيقة هندي لما يصرح بأن بلاده ليس لها اقل حاجة بالاستقلال؟ هل لشانغ كاي شيك، زعيم فاشستي الصين الذي تقطر عنه الدماء، قدر نتفة من الوطنية عندما يتاجر بشخصه بين الدول ويبيع نصف مليار انسان من ابناء الشعب العظيم الذي ينسب ذاته اليه ويظلمه — يبيعهم لمتراليوزات اليابان وصناديق حديد زملائه راسماليي الغرب؟ هل اسماعيل صدقي المصري مثلا يشعر بمصريته، او «ساسون» بعراقيته، او العابد باشا

بسوريته ، او هل يبالي اي منهم لو فني جميع العرب عن بكرة ابيهم وربح كل منهم قليلا من ذلك؟ هل كان لموسوليني وهتلر ومن وراءهما من الراسمالية،وهل كان للوردات الجزر البريطانية، شي من الوطنية لما أنشأ هؤلاء دولتي الفتك لاولئك مما يمنعون في نهبه من شعبهم . (١) كلا ! الرأسماليون وخدامهم لاوطن لهم الا وطن الدرهم .

---

(١) راجع للتثبت من النبذات السابقة التي ليست الا نقاط من بحر ، ولرؤية بعض هذا البحر ، شيئاً من الكتب او المستندات القليلة التالية ، التي انتقيناها اعتباطاً :

كتاب « الحرب طبطابة » War is a rackt بقلم الجنرال بطلر الاميركي ، « الحرب العالمية القادمة » Thecoming world war بقلم العالم الانجليزي ت . ه . ونترنجهام وثائق مجلس الشيوخ الاميركي بخصوص فضائح شركات الاسلحة عام ١٩٣٤ كتاب تجار الموت Merchants of death بقلم اينجلبرخت وهانيغن ، وجميع الوثائق والمستندات التي بني عليها . الحرب السرية في سبيل النفط The secret war for oil نيغن وزيتشكا ، وجميع الوثائق والمستندات التي بني عليها . كتاب « القطن » Le coton بقلم زيتشكا وجميع الوثائق والمستندات التي بني عليها . رواية « نار »

بعد هذا التوضيح نستطيع ان نرى كيف كانت تلك العوامل الخمس تلعب حول الحبشة وبها بتلك الصورة المتنافرة التحركات التي حيرت العالم ولبكته لسببين :

اولاً — لعدم المعرفة الصحيحة التامة ، او على الاقل

الخالدة لهنري باربوس . « استعمار النفط » بقلم اشهر صحافي في العالم المستر لويس فيشر الاميركي الموجود حالياً في موسكو . الفاشستية والثورة الاجتماعية Facshism and social revolution بقلم بالم خط . « موسليني احمر واسود Mussolini redand black قلم آرماندوورغي كتاب ستالين لباربوس ايضاً جميع اعداد مجلة كرابويو Crapouillot جميع اعداد مجلة « موند » Monde الفرنسية العالمية . وهناك في كل اللغات الاجنبية الحية مالا نهاية له من الكتب والكراسات والمقالات التي نقشت على حجر التاريخ حقيقة الراسمالية في العصر الذي كان يلعب فيه بالبشر باهول صورة وكمية وتنظيم مدمر عرف منذ صار على هذه الارض شيء اسمه الانسان . اما في العربية فلا ندري وجوداً لأثر من هذا الادب المعني بحياة الراسمالية ونظامها مما يدل على ماتقول غير مقالات قلية خائفة نشرت هنا وهناك في صحفنا .

لعدم الشعور شعوراً يقينياً ، بالعومل الاساسية الراهنة في حياة الاستعمار .

ثانياً — لعـــدم تفسير الحوادث المبهمة ، والسفسطات الرسمية ، وتنقلات الشطرنج السياسي ، والتناقضات اللامتناهية، المغطاة جميعها باغرب ستور الغش والتمويه البورجوازي وأمهر وآخر ما استطاع ان يخترعه اختصاصيو الفن السياسي ، على ضوء تلك العوامل وبحسب الاستنتاج المنطقي المبني عليها . وكل هذا يعني عدم ارجاع المظاهر الى اسبابها الحقيقية .

لكن عندما نرجع المظاهر الى اسبابها نجد انه كما تنقسم العوامل الخمس الى جبهتين ، واحـدة تمثل إئتلاف الاستعمار وعمله على بقائه والاخرى تمثل إنشقاقه والهجوم عليه ، كذلك نجد جميع ما يتراءى من حركات الدول والهيئات التي فيها تنتسب الى احد مجريين كثيفين ، متداخلين ، منبعثين عن ذينك المحركين الاساسيين في مجتمع اليوم . وفي هـــذين المجرين المتصارحين اكثر فاكثر ، المتوسعين في شمولهما للحوادث المتعاقبة المتضخمة اكثر فاكثر ، نستطيع ان نضع كل ما ظهر ويظهر في الميدان الدولي لتعلق كل ما يحدث ويتشكل بتلك العوامل الشاملة ، كما نستطيع ايضاً ان نستدل مـــن

جميع ما يجري في ذلك الميدان على خطي المجربين وعلى وجود وتفاعل العوامل التي ترسلهما كأساس ومنبع لهما .

من الطبيعي ان لانستطيع مرافقة كل تلك الغيرات الشباطية الجو بتفسير موسع واثبات مطوّل . بيد ان كلا منا يقدر ان يتبين دائماً وفي كل مكان ، فيما اذا انعم النظر في الماجريات الدولية بدقة ، وفيما اذا حسب معانيها الاستعمارية الحياة حساباً واقعياً يرجع بالاشياء الى أصولها وبواعثها المادية ويقابلها بعضها ببعض معلقاً اياها على عواملها لا على هواء الكلام والتمثيل المسرحي الرسمي والنظريات الخيالية ، كيف تتفاعل هذه العوامل وترتبط بها الماجريات ارتباطاً مباشراً مهتوك الستور . ثم بعد ذلك يسهل على كل انسان يستطيع الفهم ان يفهم ماذا تريد دول الاستعمار وراسماليياتها في كل حركة وسكنة لها ، وما هو اقصى ما تستطيع تحقيقه للبشر ، وبالتالي ما هي المصائب التي تبيتها له والنهايات المحتومة لحياته فيما بقي الاستعمار طليق اليد يفعل ما يشاء . وبالنتيجة يصبح ايسر على كل انسان ، يستطيع ان يفهم ، ان يفهم موقفه وجهته ان يدرك ما هي مصلحته الصحيحة (الاتية ان لم تكن الحالية) ومصلحة أولاده وجماع عشيرته من بعده . هل يجاري المستعمرين

في أقل شي ويصدقهم ، أم لا يثق بكلمة وحركة واحدة تصدر عنهم ، ويعمل ضدهم جميعاً على السواء مهما تكلفوا البراءة وتصنعوا الجمال ، لتخليص نفسه وأولاده وضميره البشرية جمعاء من هولهم وسيئتهم ، لوضع كل شيء على اساس جديد وعادل ونظيف ، لبناء نظام ممكن وضروري ومسعد لكل انسان حين يتم ، ومتعس اثناء بنائه لواحد بالمئة او حتى بالالف من اركان الظلم والاباحية المدلهمة .

غير اننا ، وإن كنا لانستطيع مرافقة تقلبات وتناقضات عام ١٩٣٥ من حول الحبشة ، الا أنه يجب علينا ان نوضح بشيء من الاجمال كيف كان تفاعل تلك العوامل التي اخرجتها حتى اخرجتها على تلك الصورة المبلبلة الموصوفة ، كما يلزمنا أيضاً أن نوضح كيف تدل هذه التقلبات والتناقضات على تفاعل العوامل . تلزم لنا امثلة عامة الدلالة تظهر دخول الحوادث في هذا المجرى او ذاك وخروجها من هذا او ذاك . وهذا معنى التفاعل : جانبان متقابلان يؤثر كل منهما في الاخر بناء على تأثير الاخر فيه . وهذا ايضاً معنى الحياة والطبيعة وشعلتها المرقية لهما ، المولدة المحركة لهما ، المخرجة من تنافس التناقضات فيهما تآلفا بينها كتآلف التناقض

بين الرجل والمرأة في وليدهما .

وسنرى كيف أنه كلما انبثق لذينك المجريين موقف معين قائم بذاته كان اما موقفاً يميل الى قطب ذي جانبين : في جانب يقع التجمع الاستعماري في كتلة ضد أعدائه لاجل التخلص منهم وانجاح هجمة اقتسام عالمي جديد وفي الجانب الاخر اعداؤه يردون الهجمة ، واما موقفاً آخر ينفرط فيه عقد ذلك التجمع امام ضغط ومقاومة أعدائه ، التحارب الداخلي بين قوى الاستعمار المتنافسة ، سؤ أحواله وتهديدها لمصيره تهديداً شديداً . وفي كل موقف آني او محلي نرى الصورة الواحدة المصغرة ، الممثلة للصورة الكبيرة التي نشاهد فيها كيف يعالج الاستعمار اليوم نزعه . هذا النزع الذي ابتداء دوره الاول منذ ١٩١٧ ، بعد وصوله الى قمة عزمه في الحرب الكبرى ، وأخذ يجتاز دوره الثاني منذ ١٩٢٩ ، بعد خروجه مدحوراً مضروباً من مروج مجده الذهبي .

***

لكن ، قبل الاستطراد بكلمة واحدة في الموضوع يحسن بنا أن نثبت مرة اخرى ما رأينا بأم عيننا من بقاء بريطانيا صاحبة الاهمية الاولى في كلا وجهتي هذا المجال ، كما كان

شأنها في المجالات السابقة . لها الكلمة الاستعمارية الاولى ، والرأي والادارة والتأثير الرئيسي في كل خطوة تخطوها المشكلة . للرأسمالي المجتمعين تحت علمها المسعى الاول في الاختلاف اذا وقع ، وفي التجمع اذا هو وقع . في بريطانيا تبدو أقوى مظاهر وحوادث الاتجاه نحو التجمع او الانشقاق . نرى رأسماليين العالم يتحولون اليها اكثر فاكثر للسير تحت علمها نحو صليبية الهمجية الحديثة . وفيها نرى رأسماليها يختلفون وينتظرون ويشطرون بقية عالم الرأسمال معهم . وفي نفس الوقت ايضاً نجد ان هذا الاستظلال بعلمها تعاكسه وتنافسه تجمعات رأسماليين ينضوون تحت أعلام الدول الكبرى الاخرى ، وأهمها الجماعة الأميركية والفرنسية . بيد انه ، مهما يكن ، يبقى « لشخص بريطانيا المعنوي » ، « ولشركة الامبراطورية المساهمة » الدور الاستعماري الاول . وما ذلك الا لان املاك هذه الشركة اوسع املاك العالم ، لأن دائرة نفوذها اوسع دائرة ، لان عبيدها « المباشرين » يبلغون ربع أهل الارض تقريباً ، لأن أعضاءها ابلغ الناس طمعاً ، أكبر الرأسماليين عقلا ، اعمقهم حيلة واوسعهم فيها ، اغناهم واكثرهم عدداً ، وادهاهم في طرق سياسة عبيدهم . بعد بريطانيا ، في الدرجة الثانية ، تأتي الرأسماليات

المستظلات بأعلام بقية الدول ، فترافقها او تعاكسها او تحاربها حسبما تقضي المصلحة ، كما يقولون في بلدنا .

كيفما توجهنا نجد بريطانيا العظمى وراء كل حركة استعمارية مهما كان سيماؤها بريئاً أو قبيحاً. ان من طبيعة « الكاتالايزر » الاستعماري ان لايعيش وان لايكون له مكان الا مكان تعيش فيه الفظائع الباردة والحرب . والتجارة بالشعوب لاتربح مثل الربح الذي يأتي من حيث تتذابح .

سواء كانت بريطانيا خلف ايطاليا ،تدفعها للتخلص من الحبشة قبل ان تتقدما للاقتسام مع بقية الجوقة لكل منها حسب مقامه ودرجته ، أو سواء كانت خلف عصبة ومبادىء «الشرف» و « احترام العهود » واخوات هذا الشرف وتلك العهود ،فان الغاية والحافز وكل العيش لها اولاً وللبقيات برفقتها او ضدها ان تتفق مع البقيات في سبيل القسمة او تختلف معهن على الحصة . دائماً تكون ذات عمل بيد وعمل معاكس بيد اخرى ، ذات قول بلسان وقول باسان ثان ، ذات قول بشكل وعمل او دفع مستور الى عمل بشكل ملغ للقول . ذات وجه مزدوج : وجه الاله « جانوس » .

في بريطانيا العظمى تكبر انقسامات الراسمالية العالمية

وائتلافاتها ، قسم منها يعمل لهذا الغرض وقسم لذاك . قسم يقول كذا وآخر يقول العكس . شركة يتوكل عنها سياسي مستوزر قد يتوكل في نفس الوقت عن شركة اخرى تضاربها فيؤلف بينهما ، او يحصل لهذه من تلك ولتلك من هـذه ولكليهما معاً من جهة ثالثة ، جهة شعب ضعيف مغلول بآلية السلطات الاستعمارية التي يتصرف بها . هذا التنافس الحر الذي هو روح الراسمالية الملازم لها ، والذي تكبر صفته الاستعمارية في بريطانيا ، هو السبب في انه حيث يذهب الكاتالايزر يرحل الشقاء ، الشقاء العام الذي ليس الا ثمن الارباح المكومة .

ساعدت معظم الراسمالية البريطانية على خلق الفاشستية في ايطاليا ، وكانت لها اليد الطويلة في نصب « الديكتاتور » على عرشه وفي بقائه منصوباً طوال اربعة عشر حولا . كذلك ساعدت ، بل كانت اكبر عامل ، في خلق « صورة » جمعية الامم . وكلا الضمين كانا متناقضي المظهر ، وحيدي الحقيقة ، حقيقة الدفاع عن ائتلاف الراسمالية البريطانية حيث كانت تأتلف : في وقف موجة الشيوعية الايطالية وفي استثمار العالم بالاشتراك مع بقية الرأسماليات باسم القانون والثرثرة الافيونية المتمدنة دون ان يقع بينهم حرب تكون نتائجها العن لهم

من التي سبقت .

ربّت الرأسمالية البريطانية بنتها الصغيرة ، الرأسمالية الايطالية ، لمقاومة رأسماليات اخرى . كذلك ربّت رأسماليات أخرى لمقاومة الاولى . وضعت ايطاليا في وجه الحبشة من قديم وقالت لها : « اذبحي لنأكل » . وحاولت ان تخز الحبشة وقالت لها : « لن تموتي اذا انجدتك » . وبعد ذلك بزمان دفع قسم من الراسمالية المنضوية تحت علم الانكليز بالسنيور الهائل الى اقتحام الحبشة ، والقسم الاخر وقف في سبيله . من قديم جلبت ايطاليا الى شرقي افريقيا . الان تريد اغلبيتها ان تخرجها وتجلس في محلها بعد ان نظفته وطلبت سواه . من قديم هاجم استعمار بريطانيا الحبشة واحتل عاصمتها ، والان بعد صار افظع مما كان يضع على وجه بياض الكلس باسم نصرها على آكل البشر وقبيلته .

مع مجيء الفاشستية الى ايطاليا وقعت هذه تحت نفوذ غير قليل من نفوذ راسمالبي بريطانيا . وقد حدث ذلك باسم الوطنية الايطالية الفاشستية وكرامة « لمجد وديكتاتور » يقول بانه سيجعل صعاليكه الذين اجاعهم ملوكاً مالكين على بني البشر . ولما كانت اطاليا اضعف دول الاستعمار طراً

ولما بقيت كذلك طوال مدة بقاء الفاشستية فيها ، التي ما كان وظيفتها كانت طوال الاربعة عشر حولاً من حياتها إلا الادعاء بانها ستجعل القارات الخمس واوقيانوساتها الخمس امبراطورية رومانية من جديد ، فقد بقيت الانغام الفاشستية العالية تطرب بريطانيا ولا تزعجها . بقيت تستخدم ايطاليا كمرافق امين ، وتشجع ديكتاتورها بثنائها الجميل ، وبدرهم اولقمة اجمل ، وتطوح بها هنا وهناك دون تخوف . لكن لما جاء الوقت ليأ كل شعب الذي أجاعه مجد ذلك الديكتاتور ، ولما لم يعد يصبر على الجوع ، ولما راى خليفة ذئبة الرومان ان لاحيلة له الا بمد اليد الى زاد معلميه وأصدقائه من « جنتلمانية » السيتي في لندن ، ابتدأ هولاء الاصدقاء يفكرون ، لكن دون ان يخلعوا عنهم وجهيهم : وجه من يريد الاتفاق ووجه من يريد الاختلاف ، اذ انهم اعتادوا ان يطلبوا الربح ويقبضوه بكلاهما ، فكيف التخلي عن احدهما . ان كان من تجل فهو لاعادة القناع لسواها . للديكتاتور مثلا ، كما حصل في بعض مواقف الرواية الحبشية الحالية . والرجل طبعا يلبسه وهو فرح يتأبط احلام المجد . ولكن ...

هذه ال « لكن » نتركها لما بعد ، ريثما ننتهي من القصة

التالية :

روبرت لويس ستيفينغسون من مشاهير ادباء الانكليز . لقد تصور رواية مخيفة عن رجل ذي شخصيتين ، ذي وجهين، ذي طبيعتين. كان هذا الرجل المزدوج عالماً مخترعاً من جهة . كان مهذباً ، عالماً ، مخلص الحب ، يسمو الى تحقيق افكار عجيبة تدور في راسه ، واسمه « الدكتور جيكل » . انما ، من جهة اخرى، كان ينقلب ، وهو في مختبره وخارج دائرة صداقته وبيئته الحميمة ، الى نصف انسان ونصف شيء يشبه الغوريلا . وفي هذه الحالة كانت تثور فيه غرائز الاجرام ، فينحط الى التمرغ في شهوات وتصرفات فظيعة في الحانات وسواها . في هذه الحالة يكون اسمه « المستر هايد » .

كثيراً ما تخطر ببالي هذه القصة عندما افكر في مصيبة العالم بالاستعمار البريطاني . فهذه الدولة ذات الشخصية المزدوجة هي دكتور جيكل ومستر هايد السياسة الراسمالية الراقية . انما الفرق بينهما وبين بطل قصة ستيفنغسون هو في ان الاول كان نبيلا جميلا في اصله ، قبيحاً في تحوله الطارىء ، بينما شخصية استعمارنا تمثل العكس تماماً . أساسه « هايدي » ووجهه « جيكلي » . قلبه ، اعمال اربابه الخفية ، لاشياء كريهة ، بينما

السيماء في الغالب حلو وديـــع كأنه مأخوذ من حمامة بيضاء الريش ناعمته . وفي هذا الاله ذي المظهرين ، بل ذي الألف ومئة مظهر والحقيقة الواحدة يرقد اكبر خطر على مستقبل الانسان وطمأنينته ورقيه .

ولكن فيه ايضاً — في جزائره الصغيرة — دقة تستطيع ان تساعد على تسهيل الدرب امام مجرى التاريخ نحو عدل المجتمع وتساميه . هناك شعب مستثمر عظيم اخرج بايكون وشكسبير ونيوطن وتوماس مور وشلي وروبرت أوين . يروى انه لما كان المستر « إيدن » في موسكو هذا العام ، نظر الرفيق ستالين الى الحائط واظهر تعجبه بالاشارة الى تلك النقاط الارخبيلية الضئيلة ، تضيع في مياه خارطة الكرة بين المانش والاتلانتيك ، ونوه بان لديها الفرصة بعد لتطهير ماضيها . بعبارة اخرى : اذا شاء ابناؤها مشيئة حقة بدون رؤية الهند كثيراً في احلامهم ، فان آكاليل الغار تتوج رؤوسهم ، مقذوفة اليهم من الانسانية بأسرها لتوفيرهم على كل من يدب مقادير هائلة من العذاب . هيهات !

مالنا ولهذا . لنعد الى الحقائق ، فالاحلام لاتصلح الا حيث يمكن تحقيقها . لنعد الى دور الدكتور جيكل والمستر هايد ، الذي يمكن ان تلعبه بريطانيا على عدة وجوه ان شاءت ،

وان تدمج كلا الشخصين في نفسها ان شاءت ورات التناقض المفضوح مفيداً ، وان تلبس كلا منهما لغيرها وتبق هي الروح القابضة وسواها مقبوضة .

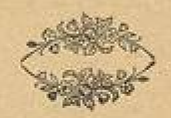
من تلك الازياء المنوعة التي تستعمل الوجهين بحسبها كونها اليوم ، في هذه الساعة من سنة ١٩٣٥ ، تحتفظ علناً بدور الدكتور الفاضل ، وتكلف سواها من الممثلين دور المستر هايد الممسوخ . هذا ، طبعاً ، هو الموافق عندما لايمكن اخفاء وجه المستر هايد ، لان بقاءه في سراديب دواوينها الخفية هو ابرع طريقة للمسرح السياسي في العالم الاستعماري . غير ان تعدياً صريحاً ، علنيا ، مثلا اعلى لاوقح شكل يتخذه الطغيان واللامبلاة الاجتماعية ، تعدياً في المظهر الوحشي الذي تتخذه المغامرة الحبشية منذ يوم وال وال الشهير — غير ان مثل هذا كيف يمكن اخفاؤه ؟ اذن ليكن المستر هايد والمتحمل كل اللعنات الحقة عليه غيرها . ان لم يكن من مهرب من سحنته فليكن ربيبها العتيق صاحبه . ليكن الدوتشه وهو خطيب فوق التانك ، او جاثم فوق الرقاب بمنجله الحصاد . ليكن السنيور موسوليني هو الديكتاتور هايد طالما انه يحب ان يكون ديكتاتوراً كيفما ال امره .

انما الفرق بين الدكتاتور هايد وبين شخصية الزواية الاصلية ، فهو في ان هذه لم تصطنع لنفسها سوى صورة واحدة من الفظاعة المجسمة . هذا ، بينما صور واقنعة وتصنعات وادوار هايد التقليدية كثيرة . ان كل رسم من الالوف التى ينشرها لوضعياته المتلونة تمثل حالة هايدية تختلف عن اختها

٭٭٭

يرسل هنري باربوس الخالد في كتابه عن ستالني قولا نبويا : « ستكون بريطانيا العظمى آخر معقل للرجعية في العالم » .

... لكن لنترك هذا الان . لنرجع الى العوامل والجريان .



سلم الانتحار

او

بين الارادة والضرورة

طغت على العالم بين ١٩١٧ و ١٩٢٩ موجتان عنيفتان، الواحدة ثورية تقدمية والاخرى رجعية توقفية . كانت الثانية تعظم وتسيطر في الظاهر . كانت تطوف لامعة على صفحة الحياة . اما الاولى فكان يبدو غالباً كأنها تخبو وتتقهقر . غير انها كانت تعظم وتنتفخ من تحت الثانية ، وتستعد لتبتلعها.

كانت الموجة الرجعية تتخذ لها في الميدان الاقتصادي وجه احوال من الرخاء والبحبوحة الموقتة . رأى قسم كبير من الناس دراهم بايديهم ، فاصبح همهم ان يصرفوا والا يبالوا بغير ساعتهم وافق اشخاصهم الضيقين ، كانما هاتف يخرج من أعمق اغوار الحرب الماضية ويخاطب قلوبهم بلسان كلسان الخيام : « اغتنموا الفرصة ، فقد رأيتم الموت ، والموت يأتي . اغتنموا هبات دقيقتكم ، ولا تحسبوا للغد ولا تنتظروا

غير القبر بعد مائدة الشراب » .

هذه الحالة الاقتصادية والعقلية التي نجمت عن الحرب المجنونة وذيولها وانطباع العالم بطابع اربابها ، والتي قللت قيمة الحياة ونشرت غيوماً مدخنة من الافكار والفلسفات والعادات والنفسيات الاغلالية السقيمة ، اثرت على الطبقات العاملة في الغرب واضعفت نضالها ، فوقعت فريسة اكذوبتين هائلتين : الديموقراطية الارتشائية الملفقة من جهة ، والفاشستية ذات الفتكات والامجاد الديكتاتورية المدمرة .

اما الشعوب الشرقية فسادها ايضاً ، على العموم ، فترة استرخاء نسبية وان كان حالها دائماً حالا ثورياً مناضلا اشد واعنف واروع من حال الغرب . غير انه اعتلى عروش بعض هذه الشعوب في امكنة زعماء مخدّرون ماهرون ، كغاندي الذي كان يجيش الهنود لمحاربة ثورة العرب العراقيين والذي جاءه شطر كبير من عظمته عن طريق الصحافة والاذاعة الاستعمارية ، وكسعد زغلول باشا الذي كان يقول : « الانكليز قوم شرفاء معقولون ! » وهو يقصد من ذلك سياسييهم المستعمرين .

ثم كانت التوسعات الجديدة ، التي عقبت الحرب والتي

اثيرت هذه من اجلها ، على حساب الامم المغلوبة (جبهة المانيا ومعاهدة فرسايل بشانها الخ ...) ، وعلى حساب الامم الضعيفة التي لعب بها (جبهة الشرق الادنى والانتدابات الخ...) فاتحة ميادين فسيحة امام مختلف الجماعات الراسمالية . وبذلك لم تكن هناك من اسباب مباشرة مستعجلة لوقوع الاحتكاكات الحربية الشديدة بينها ، أو من ضرورة للتسرع في التوثب على بعضها البعض ليخلص كل منها ما في يد الاخرى ، خصوصاً بعد ان رأت ما خرج رأساً عقب حربهم الماضية من قلاقل توجهت ضدها وكادت تدكها . تضاءل فعل التنافس بينها كما تضاءلت العوامل الاخرى . وبالنتيجة تكاثفت فعالية الائتلافات والتقسيمات عندها . كان هذا متجلياً في اجتماع الدول المستعمرة الكبرى واذنابها الصغيرة حول مائدة جمعيتهم الخضراء في جنيف ، التي ما كانت تبعد عن موائد « مونتي كارلو » كثيراً ، ثم لا تختلف عنها ابداً الا حيث تكون المقامرات المسمومة في المدينة الاخيرة دائرة على حياة الشعوب بعد ان تحولت الى اوراق نقد و « فيش » ، بينما تحتدم في الاولى على الشعوب في حالتها الطبيعية الناشفة دون تحويل .

لكن ١٩٢٩ وجد الامور على ابواب حالة اخرى . سقطت

على الناس يومذاك ازمة مالية وتبعتها ضائقة اقتصادية ، وتجسمت فيهما كل ما سبقها ونجم عنه من الفوضى الانتاجية والتوزيعية، من مظالم وإباحيات النظام القائم على تأمين أكوام المرابح وقنطرة السلطات والامجاد الشريرة على عصابات من الافراد المنحطين في استعلائهم. كانت ازمة فلس فيها عشرات ومئات الوف من الهاجمين على الذهب ، وتشرد بعدذلك ملايين عمال، وصعلكت ملايين اخرى من الشباب والفلاحين واهل مختلف طبقات الشعب . وبالطبع وجدت نفسها الرأسمالية التي سلمت من لطمات الانهيار الاولى امام مشكلة وجودها ، امام جماهير جرارة يجب ان تعيشهم وتهدئ ثورتهم ، امام كتل بشرية هائلة في الشرق اخـــذت تتحرك كالجبابرة الذين يحلحلون اجسامهم العظيمة طي أصفادهـــا بعد ان مصت عظامها راسماليات الغرب وبورجوازياتها الخاصة ، وأخيراً امام نظام اقتصادي معطل مدمر : مصارف هاوية ، معـــامل مقفلة ، مزارع شاسعة لاتنتج او تقذف حاصلاتها في البحر او تحرق لعدم وجود من يستطيع شراءها اولعدم وجود الربح في بيعها .

في كل يوم يمر منذ ذلك العام ، والراسماليات التي خلصت من زعازعه تحاول ترقيع الامور . تمعن في استحلاب ، اهالي

المستعمرات لتهدئ على حسابهم طبقاتها العاملة المتساقطة ، فتزداد جبابرة الشرق بالنتيجة تململا ومناهضة لهـا . فتعود قبضاتها على اعناقهم الى الارتخاء او تقف عن مواصلة الشد ، لتتحول الى الضغط على اعناق ملايين عمالها وليرتفع على الاثر تمردهم . وهكذا كانت تتمايل منقذفة بين الجبهتين وهي تحاول وتصادم وتراوغ من اجل موازنة مركزها الممتاز والمحافظة عـلى نظامها الاخرق الذي لايستفيدمنه سواها . ثم ، اذ تبلغ بها حالة ارتطامها بين صخرتي هذين العاملين حداً لا يمكنها فيه ان تضغط او تمتص اكثر مما فعلت من هذا العامل او من ذاك ، تتراجع الى حالة من التنافس الداخلي فيما بينها، مبدأ كل فرد من افرادها في ذلك مبدأ « بعد الطوفان » . ذلك لأنه : « اذا كان لابد من الحياة او لزميلي ، فلا كن انا الباقي والمقضي عليه هو ! »

بازدياد هذا التنافس الداخلي كان يزداد سقوط الرأسمالية قلعة بعد قلعة ، وافلاسها فرداً بعد فرد وشركة بعد شركة . كان ذلك رغم كل محاولات الترقيع ، تعميق الاستثمار والنهب ، اللجوء الى النصب عـلى الاسلوب « الكروجي » (نسبة الى ملك الكبريت وصاحب الفضيحة الشهيرة) والاحتيال « الستافيسكي »

(ملك السرقة الراسمالية الاشهر) و « الميلوني » و « الواكري » (١) وغير هؤلاء مئات عاشوا ولايزالون يعيشون على شكلهم ، رغم الضغط الفاشستي والتمويه « الديموقراطي » ، رغم البوايس والجيش وأفظع الجاسوسية وابرع « الانبياء » الكاذبين وافسدالصحافة والراديو والمسرح والسينما وكل القوى والوسائل الممكن تصورها . كانت الراسمالية تزداد تحطيماً لبعضها البعض منذ ١٩٢٩ رغم كل ما عددنا من اسلحتها واساليبها هذه في التعلق بخيط البقاء . كانت تسقط فرداً بعد فرد ، قلعةً بعد قلعة ، شركةً بعد شركة ، ملكاً بعد ملك ، وزارةً بعد وزارة ، مشروعاً بعد مشروع ، خرافةً بعد خرافة ، أساساً بعد أساس — وقريباً ديكتاتوراً بعد ديكتاتور .

خذ النكتة التالية كمثل جامع على ما نقول . فقد جاء مؤخراً في البرقيات الواردة من روما ما يلي :

« أثارت وفاة السنيور « كارلو فلترينلي » رئيس مجلس

---

(١) الاول كان وزير مالية الولايات المتحدة والثاني كان حاكم نيويورك الاول كان يأكل ضرائب الدولة والثاني اشتهر بعلاقاته مع المهربين وغير ذلك . .

ادارة بنك « كريديتو إيتاليانو » فجأة في ميلانو اشاعات كثيرة غامضة . فقد اكتفت الصحف باذاعة وفاته بكلمات قليلة من قبل اسرته ، ولم يصدر ايضاح رسمي للسر الذي يكتنف هذه الوفاة . اما اصحاب البنوك والمحامون في طول البلاد وعرضها فمقتنعون بان موت الرجل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتهمة الملقاة على عاتقه ، وهي « المتاجرة بالنقود الاجنبية ضد مصلحة وطنه » . ومما يقال عنه انه متهم بنقل ستة ملايين جنيه من ثروته البالغة ثمانماية مليون « ليرا » الى سويسرا حيث اودع تلك المبالغ الطائلة في عدة بنوك باسم زوجته . ومع انه انكر التهمة رسمياً يقال انه عرض على الحكومة مليون جنيه لطمس المسألة ، فرفضت الحكومة طلبه . . . وقد وضعت الحكومة يدها على كل املاكه وحساباته في البنوك الايطالية ، والقت حجزاً احتياطياً على حساباته في الخارج الخ ... »
(الاهرم — ٣ و ٤ ديسمبر ١٩٣٥) .

هذا الرأسمالي ، الذي انقلب عن عرشه مؤخراً ، كان دائماً من صميم زمرة الذين نصبوا موسوليني ليدافع عنهم ضد هجمات الشعب الثورية عقب الحرب وليجمع لهم المستعمرات . ومع استطراد سير النظام واستفحال اسباب تدهوره في ايطاليا ،

المتجسمة جميعاً في فترته الفاشستية الحادة ، ثم مع انتهاء كل ذلك الى حوادث التاكل الايطالي البريطاني والحرب الايطالية الحبشية ، الامور التي انتهت بدورها الى فرض المجموعة الراسمالية المغتاظة من رأسمالية ايطاليا وارادة الشعوب للسلام (وهما شيئان لم يتفقا الا عرضاً ولهدف محدود بايطاليا الفاشتية وباثارتها الحرب التي لكل طرف حجته وغرضه الخاص في مقاومتها) للعقوبات عليها — مع حصول هذه السلسلة من الاسباب ونتائجها اصبحت حكومة الراسمالية الايطالية امام تكاليف باهظة تتكبدها ، موارد ماليـــة وتجارية سابقة مقفلة الابواب ، شعب خالي اليد من كل درهم . اصبحت بحاجة الى مال ، مال مورد جديد ، لكي تبقي الدولاب دائراً متحركا ، لكي تبقي مسيطرة على عروشها . ولقد بقي لها مورد وحيد هو موردها . لكن اي رأسمالي يتنازل عن مبالغ طائلة من نفسه . انه قد يعطي مليون جنيه ، كما قيل عن « فلتر نيلي » المذكور باسم ستر فضيحة او اذا امسك به من تلابيبه . لكنه ، مع ذلك ، اذا وجد الخطر على مليونه او على أكثر منها لاحقاً به ، فهو يهرب بماله الى بلاد اخرى لامحالة ، لان الرأسمالي وطنه

حيث تكون خزائنه (١) . لذلك كان لابد لبقاء الديكتاتور قائماً على خازوقه الفارسي المزعج ، ولبقاء زمرة الرأسماليين على مقاعدهم الفارسية هذه من خلفه ، ان يقع احدهم ليستمد الاخرون من قوته . ولقد وقع احدهم بحجة او بدون حجة ، بقانون او بدون قانون كان ذلك ، فالمسألة الشكلية ليست مهمة . المهم هو الحصول على مال . ولو فرضنا انه خرق قانوناً يوجب على كل رأسمالي تقديم حصته ، فخرقه اياه خير حجة يستخدمها زملاؤه للتوفير على جيوبهم وخير امداد عاجل تأتي الديكتاتور في ورطته . اذن ، فليمت هذا الخارق للقانون بسكتة قلبية اوبالسم ، ولتنجدنا امواله بأسرع ما يمكن .

غير أن هذا السبيل ، الذي ليس قصيراً ولا يتوقف بطبيعة الفترة الانهيارية المستعجلة ، اللاحقة اعقابها برأسها لحوقاً جنونياً ، ينتهي عند استنفاذ موارد الراسمالية التي تقوم خلف ايطاليا او الى هروبها ، وبالتالي الى افساح المجال امام الشعب للقيام بثورته . واذا سبق هذه الحالة خوف كل مالي في ايطاليا من مجيء دور وقوعه عن معقده المسنن ، فيئست

---

(١) ليتذكر القاري، كيف ان الذهب الفرنسي يهرب من فرنسا الى اميركا في هذه الايام ، امام حاجة الحكومة الرأسمالية الفرنسيه اليه لتسيير دولابها وتهدئة شعبها المتذمر لها ، الذي لم يعد يقبل اعطاءها اكثر مما يعطي وهو لا يكفي . وهذا مثل واحد من مئات والوف تتكون منها حياة الراسمالية على اساس نظامه

جملتهم من الخلاص عن يد ديكتاتورهم الفتاك الصياح، فيصبح الموقف بينهم و بينه اما ان يسقطوا هم او يسقط هو.(١) لذلك، فان من المؤكد انه ستجتمع منهم زمرة كبيرة تجد من المصلحة بحسب اسبابها الخاصة في ان تستغني عن نفسها عاجلا. وهكذا يظل الاحتكاك الداخلي بين صفوف الرأسمالية محتدماً، يدحرجهم واحدا بعد واحد، ركناً بعد ركن. ومن هذا القبيل ايضاً، ولكن بشكل آخر، «مذبحة «سانت بارتولميو» المعاصرة، التي وقعت في يونيو من العام الماضي في المانيا النازية، حيث امعن الرأسماليون ورجالهم وديكتاتورهم المتوحش هتلر ورجال ديكتاتورهم امعاناً لم يسبق له في تقتيل بعضهم البعض، وفي احتجاج كل فريق لذلك بأتهام غريمه

---

(١) في هذه الحالة المذكورة، وقد تأتي قريبا ان لم تكن قد حضرت في هذه الساعة الراهنة في ايطاليا، يجب على احزاب الجبهة الموحدة ان تتخذ موقفها بدون دقيقة واحدة من التردد ضد الديكتاتور، حتى ولو مع الرأسماليين من اعدائه ذلك لتقلبه ولتحول قواه وقوى الزمرة الرأسمالية بعد وقوعه ايضاً ضد جميع من يبقى منهم وسيكون من جملة قواه حقيقة انه يحاربهم، فيصبح لذلك «بطلا شعبياً» يستثير الجماهير ويسوقها على اسلوبه الهمجي المعروف.

بتعاطي اللواط (أي الفعل الشنيع) .

***

هكذا أخذت تتجه حركة تفاعل عوامل الحياة الاستعمارية : كل منها يضغط بقسوة وثقل مستعجلين على الاخر ويأكل منه، والجميع تأكل من نظامها الراسمالي الاحتكاري الذي خرجت منه . ومن الطبيعي ان الراسمالية ، وقد رأت نفسها إنحصرت فجأة من كل جهة ، آخذة بالاكل من نفسها وهاوية ضرباً ونهباً على بعضها وعلى كل ما امامها ، ان تكون رأت أيضاً بان هذا الدرب مميت لها ، فتحاول التآلف وجمع القوى وتوحيد الجبهة والخطة في سبيل البقاء .

من ١٩٢٩ الى ١٩٣٥ كانت هذه الحالة تورّم حدّةً واتساعاً . فكان العالم الرأسمالي يغرق في ازمة قبل ان يطلع من ازمة ، يخرج من معركة تآكل متقابل ومن حراجة ترنح المصير لتغطسه في تلوياتها المصرانية معركة بعد اشد قرضاً من عظمها وحراجة موقف ومصير . وفي نفس الوقت الذي كانت الراسماليات تتبين خطر تقتيلها المتواصل هذا لبعضها البعض وهي مضغوطة بين ارتفاع موجات الشعوب المتمردة ، والذي كانت تحاول فيه ان تتكتل حول بعضها لتوقيف تدهورها على

حساب موردها الوحيد، ضحاياها وعبيدها المتلاشين اقتصادياً بحيث لم تعد تستطيع الاستمداد منهم — في نفس هذا الوقت المتلاطم التناقضات والجبهات كان استضعافها وافلاسها ومجموع احوال خرابها اسرع جداً في السير والتقلب من محاولاتها في التوقف بالتجمع والاتفاق . ذلك لان تلك المحاولات كانت تتطلب وقتاً ومساومات مما لم يكن الانهيار المستعجل ليمهلها عليها . لم تكن مجموعة الراسمالية الواحدة لتلبث ان تجد نفسها في مؤتمر او جلسة التوفيق بينها وبين زميلاتها ومنافساتها ، حتى تجد ايضاً بأنها قد تتلاشى قبل ان يتم شيء . ثم سرعان ما تعود جميعاً الى مبادلة الضربات ، الى التسلق والدوس على جثث بعضها البعض ، كاولئك الهاربين من وجه الطوفان او الساقطين في فوهات جهنم ، الذين رسمهم ميشيل انجلو في كنيسة « السيستين » في روما . وهكذا ....
ما بين « ياربي نفسي » ، وبين « ياجماعة هيوا نكون اخواناً » كانت الرسماليات تعيش طوال هذه الاعوام المدهشة وهي على درب الموت .

حالها في كل هذا كان كحالها في السابق تماماً ، كشأنها في كل ما ضيها وشان النظام الفردي التاريخي الطويل من قبلها.

كانت الراسمالية ، ومن قبلها اهالي المجتمعات القديمة ، دائماً تعيش في تذبذب ابدي بين هذين المجريين . لكن الفرق الهام المميز بين الحالة الراهنة وبين كل ماسبقها من حالات ، ان الراهنة كانت تمثل النظام في اتجاه شامل عام له يميل نحو التساقط وانفراط ، لا في اتجاه عام من الصعود او الثبات او الهبوط البطيء . بل هناوالان نجد خراب الراسماليات يتسابق كرياح الزوابع . تسير الى استئصال كل رب من ارباب المال والسطوة لايزال واقفاً على قدميه من اعمق جذوره . والزوبعة تفتل في دوراتها المقتلعة الفتاكة اعنف واعنف دقيقةً بعد دقيقة .

* * *

في هذا العام وقعت حادثتان هامتان من وليدات الرأسمالية التي تعطيها حياتها . الحادثة الاولى كانت خليقة عامل جديد . هو العامل السادس في حياة هذا القرن السائر من الاستعمار الى الاشتراكية . ولقد كان الوزنة الضخمة التي رجحت إحدى كفتي التاريخ ترجيحاً حاسماً . كان الجسم الذي اتحد فيه عاملا الطبقات المستثمرة والشعوب المستعمرة .

في هذا العام عرف العالم كله بدون استثناء ، رغم كل مانع وحاجز وهائل الاكاذيب والاساطير والجهل ، بان اتحاد

الجمهوريات السوفياتية الاشتراكيـــة هي اغنى واقوى وارقى واسعد دولة على وجه الارض ، بأنها تسدد الى الرسمالية المنحطة ضربات تترنح تحتها سكرى باحلام قبورها ، وبانها صارت كذلك في مدة تقل عن ثماني عشرة سنة من الحرب والحصار والعرقلات المتواصلة ، التي لم تعرف هدنة ، مع العالم الراسمالي باجمعه . العالم الذي لم يعمل ويتفق على شيء ما في حياته كما عمل واتفق عـــلى لزوم محق ام المستقبل القريب ، يغنون فيه لتدب الحياة الى الانسانية الدائخة برمتها . ان الراسمالية باجمعها كانت دائماً ترتجف وتجرم في خوفها من هذا الحدث ، كالشيخ الخرف يرى نهايته ويتعلق بكل دقيقة من الحياة ، كاحد اجدادها ، البابا اسكندر بورجيا ، الذي كان وهو على سرير موته يهذي طالباً ان يروي ظماه بدم طفل لدن جميل .

أصبح عالم الاستعمار اليوم مجموعة من اقزام « ليليبوث » المشاهير يتطايرون جزعاً امام انتفاض « جاليفر » الجبار . املهم ينقطع اكثر فاكثر مـــن حقن انفسهم من دمه انهم يواصلون الاستحقان بدماء عبيدهم ودماء بعضهم البعض في كل مكان لايزالون يطأونه . انهم وعبيدهم يناضلون بعضهم البعض في سبيل الاحتفاظ بدمهم . والمجموعة العالمية باسرها تمثل في

هذه الساعة حرب البقاء ، بقاء الأنسب : طبقة اعلاق الراسمالية ودماري الحياة او طبقة الانسانية المنتجة ، الطيبة العنصر ، الثائرة ، الحائرة ، المفسودة افساداً سطحياً باخلاقية الراسمالية ، المحكوم عليها منها بالتبلد وبطء التحرك والجهل وفقدان الصراط — لكن المنتفضة الان من جميع هذه الاكفان في ميدان اعظم حرب رأتها الحياة منذ كانت على وجه هذه السيارة .

اما الحادثة الثانية ، فكانت وصول عاصفة الوجود الرأسمالي ، التنازعي الائتلافي ، مرةً اخرى وفي شكله الانهياري الاخير الى الحبشة ، عن طريق وال وال .

وصلت الى الدولة الوحيدة ، الباقية من عهد المجتمع القديم ، من غير وقوع كلي تحت سلطة الراسمالية وتيار نظامها . وقعت الحبشة بين ان تقتسمها الراسمالية وبين أن يحاول كل شطر منها ان ياخذ لنفسه منها اكثر ما يمكن اخذه لتوقيف تدهوره ، اذ ان الحبشة بعد كل حساب — وان كانت صعبة على دولة واحدة ، لأنها قوية بظروفها الطبيعية وتماسك شعورها الوطني وحنكة من يقودها (١) — لاتستطيع ان

---

(١) الحقيقة الاولى بين الثلاث المذكورات عن الحبشة بين الشحطتين يظهر بوضوح في اقوال كل من يعرفها ، ولعل

تقدم للرأسمالية منهوبات كثيرة في وقت عاجل. كل مــا اصبحت تطلبه الراسمالية (وخصوصاً اكثرها إشرافاً على الخطر) من كل مكان يصح لها مربض فيه هو قبضة او قرض عاجلان، لان المشرف على الافلاس القريب الأكيد يكاد لا يطلب الا ان لا يقع افلاسه اليوم، حتى دون ان يخطر بباله ان استحقاق كمبيالة الغد تجمع طابقه دون ريب. ان ارض

اوضح ما ظهر ذلك في كتاب «ماكس جروهل» الالماني، وعنوانه «المعقل الحبشي» يدل عليه. اما الحقيقة الثانية فتتضح في ان الحبشة لاتزال باقية على الخريطة كدولة مستقلة بعد كل ما مر عليها. بقيت الثالثة، وهذه تستخلص من كل ما كتب عن الامبراطور وبعض اعوانه ومن حوله من الشباب «كالرأس نسيبو» وسواه. واكثر ما يبين ذلك كتاب الصحافي فارغو الذي لم يكن خبثه قليلا فيــه ثم هناك مجمل السيرة السياسية للحبشة، التي لو لم يكن على راسها رجال اكفاء لما ظهرت تلك المهارة السياسية الملموسة في هذه السيرة. اما من وجهة الموقع «الستراتيجي» الحربي، فنظرة في كتاب الجنرال هـ. روان روبنسون «انكلترا، ايطاليا، الحبشة» وفي تفصيله لمعركة عدوى وتوقعاته، ثم في ما تناقلته الصحف طوال السنة مــن آراء مختلف الخبراء الاميركان والفرنسيين والانكليز والالمان، تعطي فكرة في الموضوع.

الحبشة وشعبها يكاد ان يكونا بكرين، ثم يحتاجان في هذا الوقت غير الملائم الى مدة طويلة للارضاخ .

والان ، وقد وصلنا الى لب الموضوع الاستعماري وضبطنا كل قواه ، كما احطنا بأبرز ساحاته الراهنة وهو الساحة الحبشية فلنلق نظرة على التفاعل الحالي المباشر بين هذه العوامل. لنفحص احتكاكاتها ، فان ذلك ينير سبيلنا .

لكن يجب ان لاننسى كون الساحة الحبشية ليست الا احدى الميادين الفرعية للحياة الراسمالية في طورها الحالي ، رغم أنها ابرز تلك الميادين وعلامة كيلومترية تدل على آخر مرحلة لتلك الحياة . يجب ان لا يغيب عنا ابداً ، بعد الذي عرفناه ورأيناه ونراه باعيننا من امر الاستعمار ان ميدانه العام هو العالم بأسره ، هو كل ما يمكن ان يبتلعه الطمع والتنافس ويتعلق به وجوده المنهار . وبالتالي يجب ان لا ننسى لدقيقة واحدة كون الساحة البارزة يمكن ان تنتقل في كل دقيقة مع انتقال مشكلة وجود الراسمالية الى غير الحبشة ، الى حيث يكون الاصطدام بين عوامل بقاء وموت الاستعمار اضخم واسرع نتيجة مما هو في الحبشة . كل انسان يقرأ جريدة يسمع مثلا عن ساحة الشرق الأقصى ،او ساحة النمسا ، او الساحة الالمانية

السوفياتية ، وكيف أن كلا منها تبدو كأنها ستنبثق اليوم او غداً كأبرز ميدان يغطي على كل ما عداه . وسيلق ضوء على هذه الامور فيما يأتي من الكلام . فلنحصر أنفسنا ، اذن ، في ساحة الحبشة التي في فهمنا لها على حقيقتها فهم العالم الحاضر بأسره ، وبالتالي استطاعة على التنقل مع مشكلاته بسرعة وباطلاع سابق على اسراره ، ثم على اختيار موقفنا بقوة ودون تردد في سبيل توليد العالم الاتي اسهل ولادة ممكنة ، ذلك العالم الذي اصبح شرطه واحداً لا غير : القضاء على الرأسمالية الباقية التي تتمسك بالنظام الحاضر ، والذي اصبحت الاساليب لتحقيقه كل اسلوب يمكن التفكير به وتطبيقه والاستفادة منه مهما كانت الفائدة صغيرة .

لكن مهما يكن من امر ، نلاحظ ان الاستعمار في ساحة المشكلة الحبشية الحاضرة يهبط على سلم انتحاره درجة فدرجة ، متبعاً طريقه الذي خططناه . انه ينزل عليه مرغماً ، بطبيعة نظامه في طوره الحالي ، الذي انقلب حاداً بعد الازمان. لماذا ؟ لان العوامل التي جاءت ضده بعد ظهور جمهوريات السوفيات كوزنة حاسمة في ميزان التاريخ لم تعد تحكم عليه التقهقر والاكل من نفسه فحسب ، بل بالخروج من المسرح

على طول .

***

هوذا العالم كما نراه في هذا العام ينشطر كدول ، الى قسمين : القسم الواقع تحت نفوذ كثيف للراسماليات الكبرى ، والقسم غير الواقع تحت شيء منه او تحت شيء قليل . فالواقع تحت نفوذها الكثيف المباشر هو كل العالم ما عدا بلاد السوفيات ،حليفاتها من الدول الشرقية (تركيا ، فارس الخ ...) ، الصين السوفياتية ، الحبشة . هذه الدول وحدها تستحق ان توصف كمستقلة تماماً او شبه تمام عن تصرف الرأسماليات العالمية بها وعن استيلائها على ارادة حكامها واحتكار مشاريعها الاستثمارية الكبرى ووسائل الانتاج الصناعية فيها واسواقها . وكل استقلال لكل من دول هذا القسم هو استقلال قائم بذاته ، له صورته الخاصة واسبابه الذاتية الخاصة ايضاً .

ثم نجد العالم بعد هذا ، وبناء عليه ، مقسماً تقسيماً آخر الى ثلاث درجات ، تمثل ثلاث درجات لمطامع الراسمالية واغراضها وكفاحها في سبيل البقاء اثناء ما تتلوّى في محنتها الانهيارية الموصوفة .

الدرجة الاولى تؤلف بين تناقضات وعداوات جميع الراسماليات في نقطة اتفاق بينها ، توحدها جميعاً في جبهة . هذه النقطة هي وجود اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية كعدو مشترك لها جميعاً . الرأسماليات غير مختلفة أبداً في وجوب تحالفها لتتخلص من هذا العدو وكلها تحلم باستعماره . اما زعيمة هذه الفكرة والحركة فهي طبعاً الراسمالية التي تستظل بعلم بريطانيا . اما البقيات فيوافقنها على مسعاها ، ويرين في تحقيقه برداً وسلاماً للجميع ، اذ تأخذ كل منها اراضي واسعة منها ، تقتل كل منها قسماً كبيراً من شعبها الجائع في الحرب ضدها ، توجد كل منها سوقاً جديداً لها او مجال مشروع استعماري خلاب ، وتضرب الفكرة الشيوعية ، كوطنيات متحررة وكتحقيقات اشتراكية ، ضربة مادية ومعنوية شديدة ، ضربة تمتلك قياد الامور بعدها زمناً طويلا بال يكون اروح حالا من حاله الراهن . هذه الضربة تكون ابدع حاصل تحلم به ، لانها تخلصها من الفكرة والحركة اللتين يتجسم فيهما اتحاد جميع العناصر الانسانية الواعية ، المخلصة ، العاقلة والشريفة ، على محاربتها ووضع حد نهائي لعصر بربريتها المجرمة انها تخلصها من سيف جدها ديموكليس ، المسلط

فوق رأسها بأقل من شعرة .

المحرك الاكبر والزعيم الاول للاستعمار ، الكاتالايزر البريطاني الذي يفرق بين البشر ويسود ، يعرف ايضاً كيف يدأب على كم الشتات وتوحيدها امام هذه النقطة ، على هذه الدرجة الاولى من سلم حياته الهابطة . إنه يضم تحت جناحه اويمد بكل « ارادته الطيبة » ، بكل انواع مؤازرته واشكال دهائه ، بحركاته وسكناته ، فكرة وحركة الاتفاق على هذه النقطة في كل مكان لايزال له فيها وجود .

ساعدا الكاتالايزر اليمنى واليسرى في هذه الطبخة النظيفة هما حكومة اليابان من الشرق ، وحكومة المانيا النازية من الغرب . وكلا الحكومتين مع راسماليتيهما هما اكثر نواحي العالم انضغاطاً بين اسنان الالة الراسماليه المتعطلة . الاولى لا يعيش شعبها ليأكل ، ولا هو يأكل ليعيش ، لانه ان يسلم كل وجوده في سبيل ايجاد الامداد الكافي لفتوحات مجانين الامبراطورية اليابانية التي تجر لعبة الدمار والنار ، كما كان يجرها « آتيلا » وتيمورلنك من قبلهم ، على مرابع الصين المنهوكة ، والتي تجر بركة الانتحار باسلوب « الهارا كيري » الياباني على نفسها . اما الثانية ، المانيا النازية ، فلا شك بان

شعبها أشق أمة في الغرب الاوروبي ، تركبها رأسمالية يائسة وحكومة فتاكة يعد الامبراطور غليوم وزمرته بركتان بالنسبة اليهما ، لا تعرفان اي اختراع يحصد لها اكبر كمية من البشر ؛ تجدان نفسيهما مطحونتين بين حجري رحى التاريخ المتكتل عليهما ، تبتلعهما موجة ثورية ترتفع اعلى فأعلى ، وتحصرهما بين جدران ضيقة من اوراق معاهدة « فرساي » ، اي من مصالح ومدافع بقية الراسماليات المحيطة بها في بيمارستان الدول الاوروبية الضاج .

تقول العوبة هذه الراسمالية ، الهر هتلر ، في كتابها ، ماين كامف » (أي كفاحي !) : « اذا ارادت المانيا ان تغزو اراضي جديدة في اوروبا ، فهذا لا يمكن ان نقوم به على غير حساب روسيا . يصبح من الضروري ان تتحول « الريخ الجديدة » (أي المانيا النازية) الى درب فرسان الجمعية « التيتونيه » (١) القديمة ، ان ترجع المحراث الالماني الى

---

(١) فرسان الجمعية « التيتونية » (اي المنتسبة الى قبائل العرق « التيتوني » الجرماني) كانوا في القرون الوسطى اقطاعيي المانيا المجتمعين في منظمات دينية اشتركت بالحروب الصليبية ضد الشرق ، كما كانت تتجه في غزواتها المتواصلة نحو اراضي بولندا وروسيا .

الارض الالمانية بواسطة السيف وان تقدم سلاماً للامة (!!).
مع انكلترا وحدها يستطيع الانسان ان يحقق الهجرة الالمانية
الجديدة تحت ستار ما ... وليس من واحد بين جماعة السلم
عندنـــا يرفض ان ياكل خبز الشرق ، حتى ولو ان المحراث
الاول ، في الازمة القديمة كان السيف الخ ... »

اما عن آراء بريطانيا في المشروع . فالمسألة شهيرة أنها
دائماً خاف الهر هتلر منذ نشأته السياسية وذيوع خبر مبادئه
العسلية . منذ كان زعيم رأسماليها وملك ملوك النفط في يوم
من الايام ، السر هنري ديتردينغ ، يمد حركته بدعاية امهات
الصحف الصفراء وبالمال يرسله اليه عن يد وكيله الدكتور
جورج بل ، هذا الثرثار المحنك الدخائل الذي قتله اصدقاؤه
النازي ، عندما ظهرت الفضيحة ، في ليلة ابريل ، ١٩٣٣ ،
قرب بلدة « روز ينهايم » داخل الحدود النمسوية التي ظن نفسه
اميناً فيها. (١) ثم ان تصريحات لوردات بريطانيا ، وعطف

(١) ص ١٩٥-١٩٦ من كتاب «الحرب السرية في سبيل النفط»
« لهانيغن وزيتشكا » ، وبالاستناد الى بيانات الصحافي النازي
الفرنسوي المعروف « كزافيه دي هوتكلوش » .

اكبر رأسمالي العالم من ورائهم ، ومساعدتهم ودعايتهم المتواصلة في سبيل هتلر واعداد مشاريعه الجهنمية الخيال على حساب بلاد السوفيات ، معقل أنبل واجمل واعدل ما اوجدته الانسانية حتى الساعة .

خذ مثلا على هذا قراراً رسمياً ، علنياً ، خالعاً عن سحنته كل ستر من ستور المخادعة الاستعمارية ، ابرمه مجلس اللوردات في يوم ٧ مايو الجاري . لفت يومئذ اللورد ديكنسون انظار انداده الى شدة وطاة القرار الذي اتخذه مجلس عصبة الامم ضد المانيا يوم ١٦ ابريل الماضي لاقدامها على اعلان التجنيد الاجباري . ثم طلب من المجلس ان يجيز قراراً في تشجيبه يبدأ ببسملة : « ان هذا المجلس يأسف الخ ... » ، فاجازه حضرات الاعيان . ثم قال اللورد : « ان عصبة الامم ابتعدت عن السياسة التي كانت مرسومة لها في مبدأ الامر ... » اي انها بعد دخول جمهوريات السوفيات اليها اصبحت لاتجاري مطامع هؤلاء اللوردات كما كانت تفعل من قبل . وفي تلك الجلسة تكلم لورد آخر يدعي « فويل بكستون » ، فقال ما معناه : « ان الدول التي تعادي المانيا ليس لها حق في ذلك ، فالمانيا (أي راسماليتها لاشعبها النبيل العظيم)

لكراهيتها للشيوعية ان هي الا عامل كبير من عوامل السلم (أي « السلم » الرأسمالي المعهود !) » . ثم اردف بان هذه الحقيقة خرج وهو مقتنع بها بعد الحديث الذي جرى بينه وبين الهر هتلر في برلين (١) !..

والان ، نعود فنقول بان هـــذه النقطة التي تتفق عليها الرأسمالية كانت متفقة عليها منذ اول دقيقة ظهرت بـــلاد الاشتراكية على مسرح التاريخ . فحال نشوب الثورة في ممالك القيصر الروسي إلتف جميع المستعمرين والرجعيين على بعضهم البعض واضرموا لهيب حرب صليبية ضد السوفيات . كان جندي قائد الرأسمالي الالماني يمشي الى جنب جندي قائـــد الرأسمالي الفرنسي والانكليزي والروسي والياباني والاميركاني الخ ... لاجل قتل ثورة شعوب القيصرية ضد مستعبديها منذ وجد الاستعباد . لقد وصف المستر تشرشل ، سياسي الاستعمار اللامع ، تلك المقاومة « بهجوم الاربع عشرة دولة ! » ومنذ ذلك الوقت حتى هذا الوقت والعالم الرأسمالي يحارب جمهوريات السوفيات في حالتين من السلم والحرب .

لكن النكتة هي أن هذه الجمهوريات كانت طوال مدة

---

(١) عن جريدة « الديلي مايل » تاريخ ٨ مايو .

هذه الحرب مسدودة على من اتفقوا عليها ، اذ ان جميع محاولات فتحها باءت بالفشل والخسران الذريع ، فكانت النتيجة ان الراسمالية لم تستطع حتى الان ترقيع احوالها من هذا المصدر المستقل عنها وعلى هذه الدرجة . بل بالعكس ، كل يوم كان يمر ، ويمر ، ينتج ضعفاً عند المستعمرين اكثر مما ينتج قوة عند جمهوريات الأحرار . واصبحت مهاجمتها اليوم من قبل اكبر عدد ممكن ان يتحد عليها ضرباً من اضمن ضروب الانتحار السريع . ثم ان الاتحاد عليها كان ، (حتى في اشد اوقات ظهور الاتفاق عليها) (١) ، ولا يزال مستحيلا لمجرد ان محاربتها واخضاعها (ولو على سبيل الفرض) يستلزم وقتاً ليس بالقصير بينما الراسماليات المتحاسدة وازماتها وحاجاتها ومطامعها امور تتطلب الاشباع والسد السريع ، وبالتالي صرف الجهد في مد اليد الى اقرب واسهل الوسائل التي ليس اخضاع غريمهم

---

(١) راجع كتاب « عامل بريطاني » (A British Agnet ، تأليف السر « بروس لوكهارت » الذي كان سفير بريطانيا في روسيا ايام الثورة وقبلها وما بعدها مدة لتتأكد من هذه الحقيقة التي تبدو غريبة ، ولكن التي ليست مع ذلك الا طبيعية .

بأقربها وأسهلها . وفي هذا نجد التفسير لوجود كفة راسمالية تكون دائماً مصادقة الوجه للسوفيات وكافية شرها عنها . هذا، وقوة السوفيات المادية والمعنوية واطمئنان شعبها وراحتهم ومحبتهم الحقيقية العميقة لقوادهم وزعمائهم هي الاسس الباقية في ردع التعدي المتحد عنها. يكفي ان نعلم بأنه كلما خطر لمجانين الفاشستية في المانيا واليابان بان يحققوا ما يتصورونه طار في السماء ركن ركين لهم في جهة من جهاتهم التي ظنوها معصومة عن العين ، او جاءهم صوت صافي الرنين ، صادقة ، بواسطة سفير او مقالة صحفي او بوق الراديو ، أن مدن المانيا واليابان ومراكز صناعات ودور حكومات رأسماليهما تبعد بضع ساعات فقط عن الحدود السوفياتية ! عند ذلك يتحقل من لا « يرفضون اكل خبز الشرق » ريثما تعاودهم النوبة .

ويدخل في الدرجة الاولى هذه ، التي تصح مورداً للمحتضرين العطاش ، حليفات السوفيات كتركيا ، ايران ، الخ .. وحول هذه ايضاً سد منيع من وطنية شعبها وقادتها وقوة الحلف . ثم تأتي الصين السوفياتية في هذه الدرجة ايضاً . ان حرب الرأسمالية العالمية المتحدة عليها مشنونة مندلعة النيران على افظع واقتل صورة تكون عليها الحروب منذ سبع سنوات

طوال ، منذ شعرت الراسمالية بوجودها . لكن هذه الحرب لم تفدها شيئاً ، بل انها تستفذ وتمتص من قوى الراسمالية مقادير هائلة بدل ان تمدها بشيء يمسك بها عن الهبوط . ذلك في نفس الوقت الذي تتوالى انتصارات السوفيات الصيني ، في نفس الوقت الذي تقوى وتترعرع شديدة العود وتزداد حجماً وتحريراً للصين المستعمرة يوماً بعد يوم .

ماذا بقي معنا من الدول المستقلة عن الرأسمالية في العالم ؟

بقيت الحبشة ، وهي الدرجة الثانية .

اما الثالثة ، فهي ممتلكات المستعمرين نفسها ا هي البلدان والدول التي يستثمرونها أينما كانت .

***

في الواقع ان الحبشة تأتي في الدرجتين الثانية والثالثة معاً . فهي من جهة لاتزال مستقلة بمعنى الكلمة ، يتصرف اهم واقوى وأنشط حكامها بداخليات امورها وخارجياتها حسبما يرون من مصلحة بلادهم وسيادتها التامة . ومن المشهور عنهم ان الامتيازات التي يعطونها لجماعات متحاسدة من المستعمرين تكاد لاتكون اكثر من حبر على ورق يستفيد منها الاحباش اكثر مما تستفيد العصابات المسلحة التي

تنوي تمدينهم .

لكننا نجد الحبشة من الجهة الثانية بلاداً تتعلق بها مصالح سلبية ، ان لم تكن ايجابية ، لراسماليات مختلفة تمتد من اسوج ، بلد الجنرال « فيرجين » ، حتى توكيو ونيويورك . هي لقمة يريد كل نبيل ابيض التهامها ، وأول من يسيل لعابه لمنظرها بريطانيا العظمى . كل يرى فيها مورداً وتكأة له ، يستند اليها قليل في طريق إنحداره السريع . اليابان تجد فيها سوقاً لبضائعها الرخيصة ومحطة وقاعدة لحلمها الاستعماري الطويل العريض . المانيا تجد فيها سوقاً وخميرة مؤامرات وموضوع مساومة على النمسا . ايطاليا الفاشستية تنشد فيها مقبرة لشعبها الجائع المهتاج وان تحلب منها كل نقطة دم . ملوك النفط من اميركيين وانكليز يرون فيها ظلال « ذهبهم الاسود » ملطخاً من كل جانب بأجمل ألوان الدم الاحمر ، يرونه لأنفسهم أو لراسمالية « الدوتشة » الذين يقتلع سوقهم من يدهم ان جاءه النصر ، وينافس اسواقاً اخرى لهم (١) بما يستملك مما

---

(١) السبب المباشر لسقوط الديكتاتور الاسباني بريمودي ريفيرا ، كما روي هانيغن وزيتشكا في كتابهما المقشعر العجيب عن جرائم وغرائب راسماليات النفط في العالم ، يعود الى

يرقد من ذلك الذهب تحت ارض الحبشة . (٢) فرنسا تطلب

اتفاق شركة « الستاندارد ايل » التابعة لجماعة « روكفلر » وشركة « الشل » التي يديرها « ديتربنغ » على خلعه ، بعد ان صار وجوده ديكتاتوراً يحرم سوق اسبانيا من احتكارهم له لمصلحة غيرهم من الراسماليين الاضعف منهم . فتأمل ... والنكتة ان ملك اسبانيا الفونسو الثالث عشر ، كان مع تينك الشركتين ضد ديكتاتوره لانه يملك اسهماً في احدهما . فلما سقط ديكتاتوره وسافر الى باريس ليموت بمرض القلب ، لم يلبث ان تبعه الملك نفسه . فتأمل ايضاً ! ..

(٢) في اوائل اكتوبر من هذا العام نشر كاتب فرنسي خبير في الموضوع اسمه « ف. بلونديل » مؤلفاً باسم « جيولوجية الحبشة والصومال والارتريا ومواردها المعدنية » ، وهو يثبت فيه وجود النفط في هذه المناطق . ويحسن لاستجلاء هذا الموضوع ، الذي لايزال مبهما وغارقاً في اسرار مدغمة من رحلات و « نطنطات » المستر تشرتوك والمستر ريكيت مع مستر اومستر ين آخرين غير منظورين ، مراجعة مقال تغلب عليه العمية ويدل ابهامه على ابهام الموضوع ، منشور في مجلة « موند » (عدد ٣٤٥ ـ ١٠ اكتوبر) « بقلم لويس لوناي » تحت عنوان : Le Marsouinie fait la guerre

بؤرة جهنمية ما تقذف فيهـــا غضب « الدوتشي » المصاب بأنواع من الالتهابات العصبية فتستريح من شرّ صياحه ، وشرّ ثورة شعبه البادية الامارات ، وتدعي بقولها : « اللهم اهلك الكافرين بالكافرين » اذ ترى الدوتشه واصدقاءه السابقــين لايبخلون على بعضهم بالصفعات غير اللينات . واخيراً ، بقية العالم الراسمالي مجرور بأسره نحو بالوعة تناقضاته المتحولة الى الحبشة لتتمايل بينها وبين نقطتين او ثلاث نقاط اخرى مهددة بالانفجار هنا او هناك او هنالك في كل دقيقة من دقائق ساعات

اما قول « المانشستر غارديان » : يعجب الخبيرون في أحوال الحبشة مـــن اهتمام الاميركيين باخذ امتيازات لاستنباط البترول فيها ، ويؤكدون بان من يتوهم في الحبشة خيرات كثيرة يخطئ في وهمه » ، فدليل على وجود الخير من اسود اللون واصفره . أخيراً ، لعل ما نسبته بعض الصحف الى احد زعماء « اوسا » (قرب هرر) ، محمد يحيى سلطان ، من « أن الذهب السائل (البترول) الذي اكتشف حديثاً في بلادنا هو سبب الحرب ، وكان واجباً ان نقتل كل رجل يعبر بلاد الدناقل لكي لا يراه » — لعل هذا القول أقرب ما يكون من الحقيقة . بل استنتج بان للنفط الاول في اهتمام الرأسمالية البريطانية الاميركية بالحبشة .

هذه السنة الهائلة . تتطاير الراسمالية نحو بالوعتها ، لتجلس على فوهة بركان فائر الجوف ، لكي لاتتخلص من جلستها المزعجة على راس مقعدها الفاسي المسن النحيف ، الذي ليس لها ان ملت القعود عليه الا ان تميل هاوية عنه في البالوعة السوداء التي حفرها « قنافذ الاستعمار » ، على حد تعبير الامبراطور النابغـــة مينليك !

للرأسماليات ان يتطاحن" تطاحنهن الاخير ، او القريب من الاخير ، حول ما يتصورونه في الحبشة مـــن الاسباب التي تطيل بقاءهن .

غير أن الرأسماليات لاتني ولا تقف عن التفكير ، وعن العمل بقدر ما بقي لها من القوة المتضائلة والاعصاب المنهوكة ، في اللقمة السوفياتيـة الكبيرة . كلما رات نفسها تتدهور زاد تذبذبها وتسارع بين الاتجاه نحو تلك اللقمة ، بين الاتحاد على البقاء بتحطيم مجرى القوى المتحدة ضدها — وبين ان تتيقن من انسداد هـذه السبيل عليها لترجع الى تنازع البقاء في حيزها ، الى قانون حياة الغابات الذي عاشت فيه منذ اول ما رأت عيناها النور !

عندما تتراجع الراسماليات عن الدرجة الاولى الى الدرجة

الثانية تنقسم الى معسكرين كبيرين ،متشعبين ، يظهران كحياكة عجيبة من اغرب المتعاكسات والمتناقضات والاشتباكات والسحريات غير المفهومة . انكلترا تبدو حليفة الحبشة وانكلترا لا تبيعها سلاحاً واليابان صديقة الحبشة وعدوة ايطاليا ، ولكنها تبيعها سيوفاً لمحاربة الغازات والدبابات . فرنسا حبيبة ايطاليا وانكلترا في وقت واحد ، والاثنان يكادان يسحبان الخناجر بدون اقل شك . المانيا الفاشستية عدوة ايطاليا الفاشستية ، فكيف ذلك ؟ كنا نظن الفاشست يطبقون قول المسيح : « أحبوا بعضكم بعضاً » . هتلر يعطف على الحبشة ويرسل اليها الجواسيس . الفاتيكان يريد السلام ، ويسجد للدوتشة ، ويحترم الحبشة لانها مسيحية ويلفق الاخبار عن تعذيب رهبانه المهندسين بين الاحباش لتعليمهم كيف يقتلون بعضهم بعضاً . ثم المانيا وايطاليا الزميلتان تتصافيان ، ثم تتعاديان ، ثم تتشاتمان وتتشامتان ، ثم تتعانقان ، الى آخره . بريطانيا تناصر السلام والحرية وفي الحبشة وبتصيد بوليسها الشبان في شوارع القاهرة والشيوخ المتفانين في الخير في فلسطين كما يتصيد لورداتها الحمام . اميركا تحظر البترول واميركا تبيع البترول . إيه ! انه بحر مخلوط ليس في العالم قلم الا ويعمل

صاحبه من الكتابة بحبره المعكر .

غير ان المسألة دائماً تظهر واضحة للجميع ، كلما ، ارتد الاحباء عن جدار الدرجة الاولى الى منا كفة بعضهم ، ان اللاعبين الاولين هما بريطانيا وربيبتها الفاشستية ايطاليا . بعد ذلك تدخل خلف بريطانيا كل رأسمالية ترى لها مصلحة في بقاء الحبشة مستقلة ، وخلف ايطاليا كل راسمالية ترى العكس .

بريطانيا تقاوم ايطاليا من اجل السلام ، المحافظة على الامضاء ، الحرية ، النظام الدولي ، النظام السماوي ، التأمين المشترك وهلم جرا . لكن بريطانيا تقاوم ، كما لا يشك في ذلك عاقل ، في سبيل مركزها الامبراطوري . فلو فرضنا ان جدار الدرجة الاولى ظل مسدوداً الى الابد ، واحتاج « الدوتشه » ومن خلف الدوتشه تدبير امرهم تجاه حبيبهم وشعبهم ، وكانوا قد ملكوا الحبشة وتمكنوا فيها — لو فرضنا كل هذه الاشياء الممكن حدوثها لوقت محدود فقط ، فهل يرحم الدوتشه ومن خلفه آباءه لوردات البريطان . لا ، وربك ! انه يلغم البحر المتوسط من « نابولي » ، عبر جزيرة صقلية ، حتى طرابلس ، ويقطع الدرب بين انكلترا ومكان ما تمص منه مصها في الهند ومصر والسودان . انه يرسل طياراته فوق لندن . انه لا

يتريث دقيقة في ابتلاع مصر والسودان، في التطاول على الهند، وفي اخـذ كل بقعة تصلها يده وبركة الفاشستية . ان الطماع والموشك عـلى الانهيار شخصان لايعرف لما يتصوران ويعملان حدوداً تحد . فكيف بهما اذا اجتمعا في ديكتاتور ؟ في موسوليني الذي لم يرحم احداً استطاع ان يمسك به ويعتصر منه فلساً او روحاً ترضيه، الذي يفتك بشعبه، بني جلدته ودمه، فتك المنجل بالسنابل . والا ، فما معنى جره ما لا يقل عن ربع مليون جندي ايطالي، والوف وعشرات الوف العمال والموظفين، وعدد عظيم من جنود المستعمرات الى مغامرته الحبشية ؟ هـل اذا دوّخ بهم الحبشة وامتلكها تركهم يتفلون ويأكلون ويحلمون في مصيف من النجد الحبشي ؟ أم انـه يرجعهم الى ايطاليا ومختلف بلدانهم ؟ كلا الفرضيتين ليستا مما يوافق مزاج واحلام موسوليني ومن وراء ظهره . كلاهما ايضاً لايتفق مع حالة خطر الانهيار الدائم الملازم للفاشستية اكثر منه لأية صورة اخرى من صور الراسمالية . بل الذي يتفق معهـا ان تمد يدها، وهي رابضة في قلب الامبراطورية البريطانيـة، وهي تستطيع التحكم بطريق الهند، الى كل كنز عن يمينها او يسارها من التي يربض عليها حضرات اللوردات

جاء لأحد ألسنة هؤلاء اللوردات ، الجنرال روان روبنسون، في كتابه الامبراطوري « انكلترا ، ايطاليا ، الحبشة»، الذ قصد منه محاولة التوفيق بين الطرفين باخراج الحبشه من حلقة العلاقة بعصبة الامم ووضعها بين صديقتيها الامينتين ـ جاء لهذا الجنرال، المتلمذ على امثال « ماكيكل » السابق الذكر، ما يلي نقلا وتعليقاً : « ان الشعور الذي توحيه العصبة الان يمكن اقتطافه من عبارة جاءت في « التريبونا » (جريدة من جرائد موسوليني) بتاريخ ٣٠ يوليو هي : « قد تكون الدقيقة أتت للتفكير اذا لم تكن ايطاليا موسوليني مدعوة ً فعلاً لتحرير اوروبا (خذ بالك : اوروبا نفسها ،لا الحبشة فقط !) بعمل حاسم هادي ٌ من هذه المراوغة الثقيلة، البليدة ، المتمثلة في جمعية الامم » . العبارة التي كان من الممكن لكاتبها ان يضيف اليها قوله : « وعندئذ يصبح الدرب خالياً لتلك الامبراطورية الرومانية الجديدة التي يضع « الدوتشة » امر بنائها في البنود الاولى من برنامجه ! » ـ هذا هو نقل الجنرال الانكليزي وتعليقه .

ثم هذا هو معنى الاقانيم الجليلة في قاموس راسمالية بريطانيا: المحافظة على امبراطوريتهم التي لم يبق بينها وبين الذكر الصالح

الا شيء كقاب قوسين أو أقرب .

أما إختباء بريطانيا وراء عصبة الامم فتجد فلسفة الأمر فيما نقله نفس الكاتب عن زميل له. قال لافض فوه : « اسمع ما يقوله مؤلف فرنسي علم عن هذا الموضوع : « سيرى القارئ ... بانه ، كنتيجة للأهمية الكبيرة التي استوجبت الاعتراف بفعالية القوى الجوية ، يصبح من اللازم تطبيق مبدأ تمركز القوى وتناسق الجهود ، بدون تلاعب منا بالكلام في غير محله (أي بدون قول شيء وقصد شيء كعادة كتاب الراسمالية) ، ورفعه الى مركز أعلى مما هو فيه ... انه سيصبح من الواجب ربط الجيوش ببعضها : جيش البر ، جيش البحر جيش الجو ، الأمر الذي يستوجب توحيد الدماغ في القمة » (١)

هذا التوحيد في الدماغ تنشده الراسماليات في جمعية الامم ، والا ففي ديكتاتور مستفرد الدماغ لكل راسمالية على حدة . وذلك تجاه من ؟ تجاه من يملك « فعالية القوى الجوية » . من المعروف ان بلاد السوفيات اقوى من كل العالم في جيشها الجوي . ولكن من المعروف ايضاً ان ايطاليا ، بالنسبة لبريطانيا ، قوية ايضاً في الجو . اذن ، الخطر

(١) عن كتاب الجنرال « اليهو » ، ولكن مستعدين » .

حاضر . يجب دماغ فرد للادارة . هـل تكون جمعية الامم هذا الدماغ أم يكونـه الديكتاتور . اذا كانت العصبة تجيد الادارة في سبيل ابقاء راسمالية الامبراطورية وحلفائها ، فلتكن هي . وهذا سر تعلق بريطانيا بها و تلقيبها اياها بأجمل الأسماء. وهذا ايضاً سر ترددها ، من جهة اخرى ، واصطدامها بحقيقة ان في العصبة ايضاً صوت جديـــد ليس صوتها ولا هو نبرة زميلة . ومثل خرق الجدار السوفياتي صعوبة نصب ديكتاتور مستعجل في بريطانيا . إذن ، فلتكن العصبة دماغاً ضـــد مخاصماتها ، ان لم يمكن جعلها او جعل شيء سواها آلة مفكرة ومنفذة ضد العدو المشترك على حساب تأخير تصفية مشاكل وحسابات مطامع الراسماليات الدخلية ، على حساب تأخير مسألة اللقمة الحبشية ، او النمسوية مثلا ، او اي سواها . لكن هيهات هذا ! ان الراسماليات مجبورات على الاكل من بعضهن البعض . واذن فدمـاغهن مجبوران يكون عصبة الامم ضد دمـــاغ آخر لشطر منشق عليهـا منهـا . عصبة الامم هي اذن آلة ، تحطيم الراسمالية للراسمالية . اذن ، هي آلة الانتحار الاستعماري البطيء ، السلم الذي يقوده في نزوله الى مرقده درجة درجة . وهنـا تصبح العصبة ، نوعاً ما ، دماغاً صالحاً . تصبح اداة

للسلام الحقيقي الذي لا يرادف معنى كلمـــة « السلام » في فم الراسماليات . بل تعني السلام الذي تحدد معناه شعوب الارض المظلومة بلسان ممثلتها اتحاد الجمهوريات السوفياتية ، الدولة الاشتراكية الوحيدة بين خمس وخمسين دولة وخيـــال دولة رأسمالية ، والتي اصبح لها وحدها من التأثير على العصبة ما يزيد، في حاصله ، على تأثير جوقـــة الخمسة والخمسين معاً . فتأمل كيف يكون الانحدار ! . . . ثم كيف يقابله السمو . والمثل يقول : « كل طلعة امامها نزلة » !

على كل حال ، الموت الطبيعي البطيء خير من الانتحار الجنوني المستعجل عند ذوي التوازن .

نرجع الى ايطاليا الفاشستية . ايطاليـــا الفاشستية تقول بانها تريد ان تمدن الحبشة ، ان تحرر العالم من العصبة ، واخيراً ان ترسل على العالم انوار الامجاد الرومانية . ما معنى كل هذا؟ ان معناه هذا الحساب البسيط :

ارسل المسيو « جنتيزون » ، مراسل جريدة « الطان » ، جريدة الراسمالية والمؤتلفة على معاضدة موسوليني كل منهـا لغرضها الخاص ، من روما الى صحيفته يقول : « في دقيقة معينة اصطدمت فرقة (أي فرقة ايطاليا) بجماعة تبلغ الألف

من الاحباش ، ولم تحتاج الى اكثر من بضعة مئات قنابل ، من عيار كيلويين الواحدة لحصدهم وتكنيس الارض منهم في الحال (١) . (عدد ٦ اكتوبر ، ١٩٣٥ ، من « الطان ») .

جللت مجلة « موند » صفحتها الاولى بهذه العبارة التي قل أن استعملت البربرية ابدع منها للتعبير عن نفسها ، ثم كملت الحساب على الصورة التالية المضبوطة بحروف المأساة السوداء وحروف الثورة الحمراء :

« بضعة مئات تعني على الأقل ٣٠٠ قنبلة كل منها من وزن الكيلويين ، اذن ٦٠٠ كيلو للالف . بناء عليه يلزم ٨،٤٠٠،٠٠٠ كيلو من القنابل لأجل حصد وتكنيس أرض الحبشة بأسرها ! » انتهى .

هذه هي المدنية والأمجاد ، بركات الفاشستية والديكتاتورية ، التي تستعد لاجتياح العالم كوباء اسود مميت لم تر الانسانية مثلها حتى في افظع اوباء القرون الوسطى ... هذه هي الانوار والمكانة تحت الشمس التي يطلبها موسوليني لشعبه الجائع ، الدائخ ، الشقي كضفدعة مداسة اوكقبيلة من الذباب رشت عليه سموم « فليت » .

---

(١) لفظة « Déblayer » التي استعملها المراسل تفيد معنى التكنيس معنى الحصد معا

مهما يكن الحال، فالمسألة متعلقة بالدرجة الثانية، باستقلال الحبشة، وبالدرجة الثالثة، باملاك الامبراطوريات الاستعمارية وبقائها، على حد سواء. وهي متعلقة بالدرجة الاولى ايضاً، بقضية العالم التحريرية باجمعه، بمستقبل الانسان، بتحقيق الراحة البشرية الحاضرة والاتية، بايجاد النظام الاجتماعي المكمل، المرفه، المنمي، المسعد كل فرد سليم في ذلك النظام.

لكن المعركة الان تدور على الدرجتين الثانية والثالثة. هي بين الحبشة والاستعمار باجمعه من جهة، وبين الاستعمار والاستعمار من جهة. وهذا الاتجاه مهما يكن ليشكل دليل تقدم ومناعة لا يمكن مقاومتها في الدرجة الاولى، دليل انحطاط الراسماليات اكثر فاكثر الى الاكل من بعضها البعض، انصرافها اكثر فاكثر الى التذابح وصرف الجهود في إراحة البشرية من اثمها العظيم.

بلغت الامور حداً لاتستطيع معه راسمالية بريطانيا ان تتسامح البتة مع راسمالية ايطاليا، ولا ان تتراجع هذه خطوة واحدة امام الاولى، لان حياة وموت كل منهما متعلق باقل تراجع يظهر منها. اذا تسامحت بريطانيا ورثتها ايطاليا،

ريثما ترثها الاشتراكية . اذا تسامحت ايطاليا ورثتها بريطانيا، ريثما ترثها الاشتراكية . من منهما يرضى ان يتنازل عن أواخر ساعاته لزميله ؟ هذا هو السؤال !

ولو فرضنا أن كلاهما تسامحا ، واقتسما مع البقية بلاد الحبشة المظلومة ، فان القضية بين الامبراطوريات تهبط الى الدرجة الثالثة ، مندفعة بقوة انهيار النظام الاقتصادي وتدحرج الرأسماليات الغارقة في ازماتها وتطاحنها . وستبقى القضية في نفس الوقت قضية بين بلدان الدرجة الاولى المستقلة وبين العالم الاستعماري . امام انسداد الاولى عليها ستأكل نفسها حتى النهاية . واذا هاجمت مباشرة كانت الساعة آخر ساعاتها وعلى حال ، هجوم المجرى المعاكس لا يقف عن التحطيم فيها ، وان كانت هي تتحول عنه الى تحطيم نفسها .

الاستعمار يجتاز آخر دور من ادوار نزعه .

ساعة خلاص الانسانية قريبة .

على كل انسان شريف ان يساعد ولادة العالم الجديد .

على كل رجل وامرأة يحبان الحيــــاة ويكرهان الموت ، يحبان اولادهما آباءهما واخوتهما واصدقاءهما ويكرهان مـن يذبحونهم جميعاً ويضمرون تحويل دمائهم الى دراهم — على

الجميع أن ينضموا خلف الأحزاب التي كرست نفسها لتوليد التاريخ .

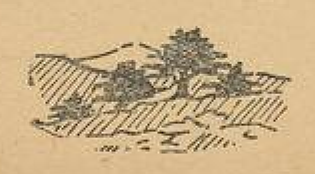
على كل انسان طيب العنصران يدافع عن الحبشة المظلومة ليأكل الأشرار بعضهم البعض !

***

ارادة الرأسماليات تريد البقاء والقضاء على اعدائها . الضرورة ، أي الظروف والحاجات التي خلقتها وتتحكم بها ، تجعلها تقضي على بعضها البعض . وهذا ما يسميه الماركسيون بحتمية التاريخ .

هذا ما يؤذن بفجر صفحة أخرى من الحياة ، نخرج بها من كهوف ما قبل التاريخ التي ندب فيها كالديدان ، لنتهادى تحت سحر أنوار العصر الجديد ودفئه وجماله وشعره .

فلكين ، اذن ، النضال القائم اليوم هو الأخير !



فهرس الكتاب

صفحة

